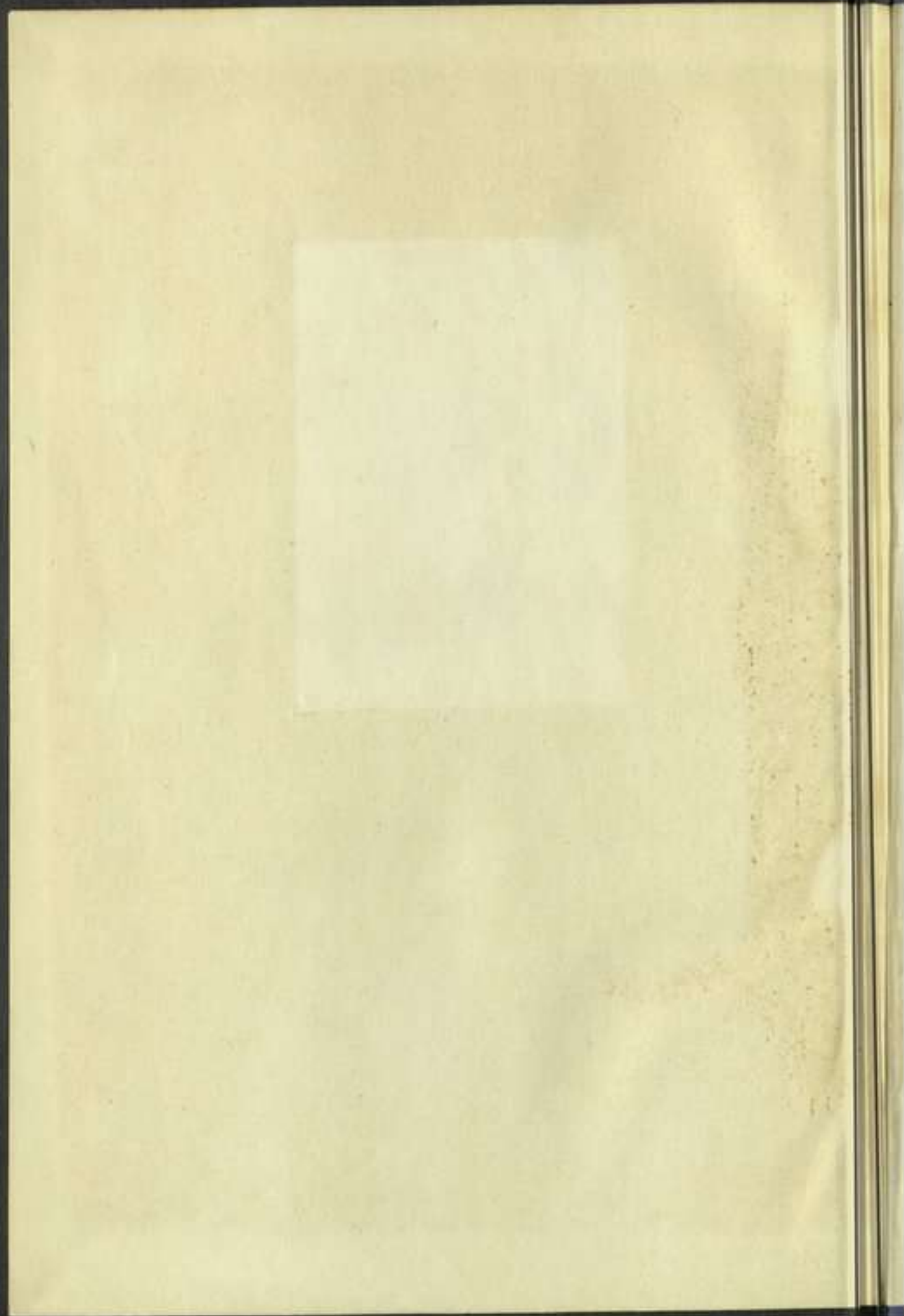
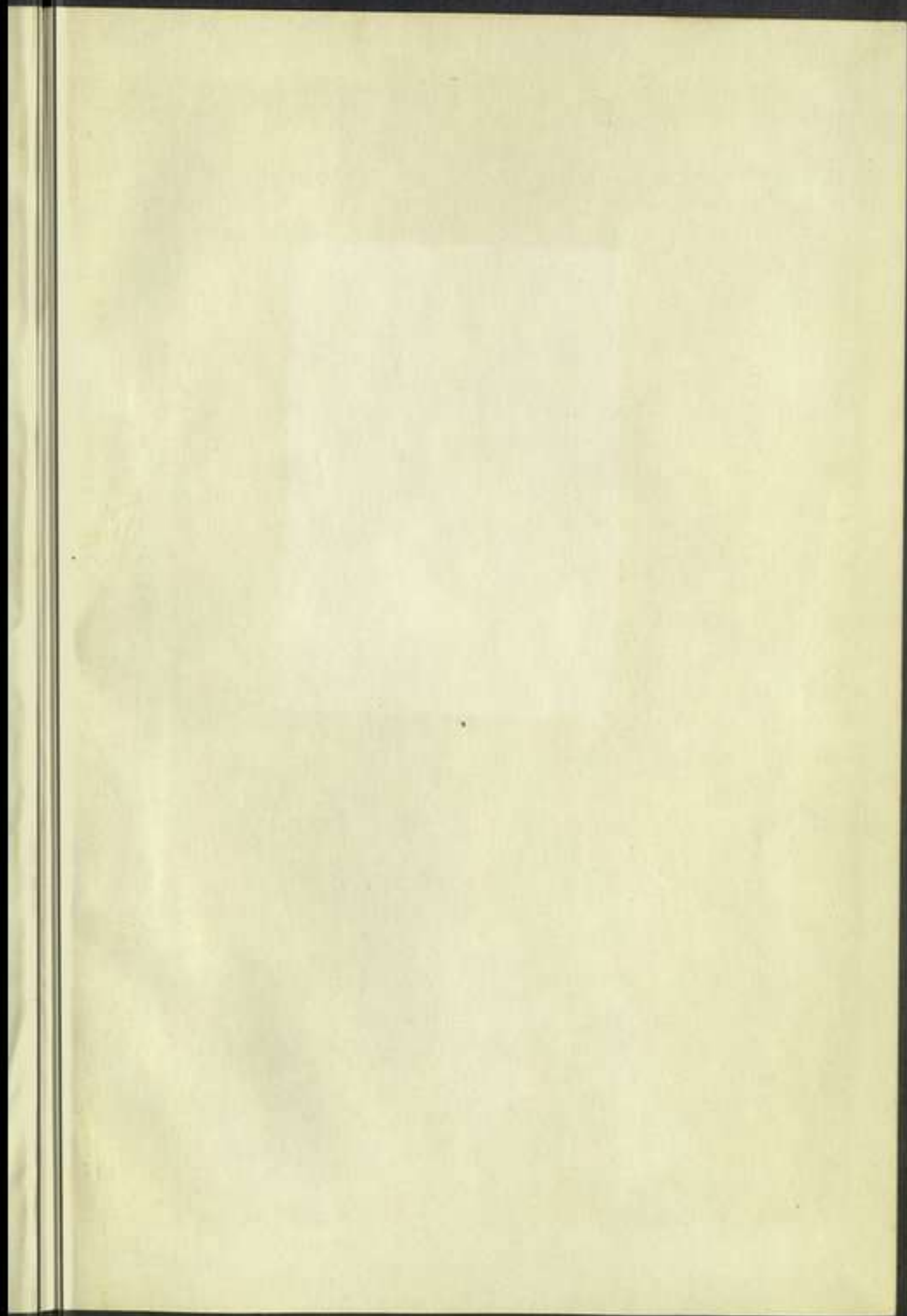


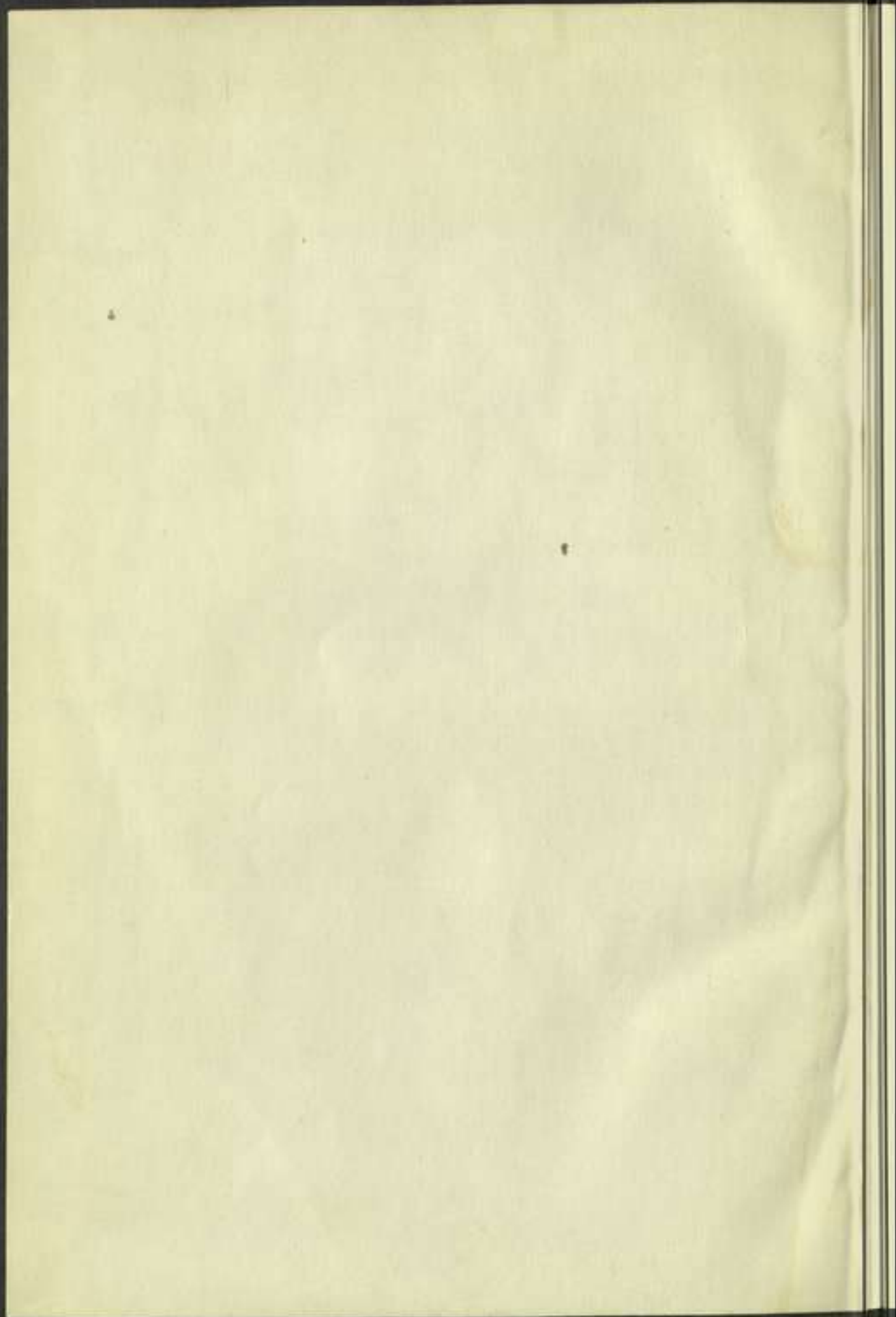


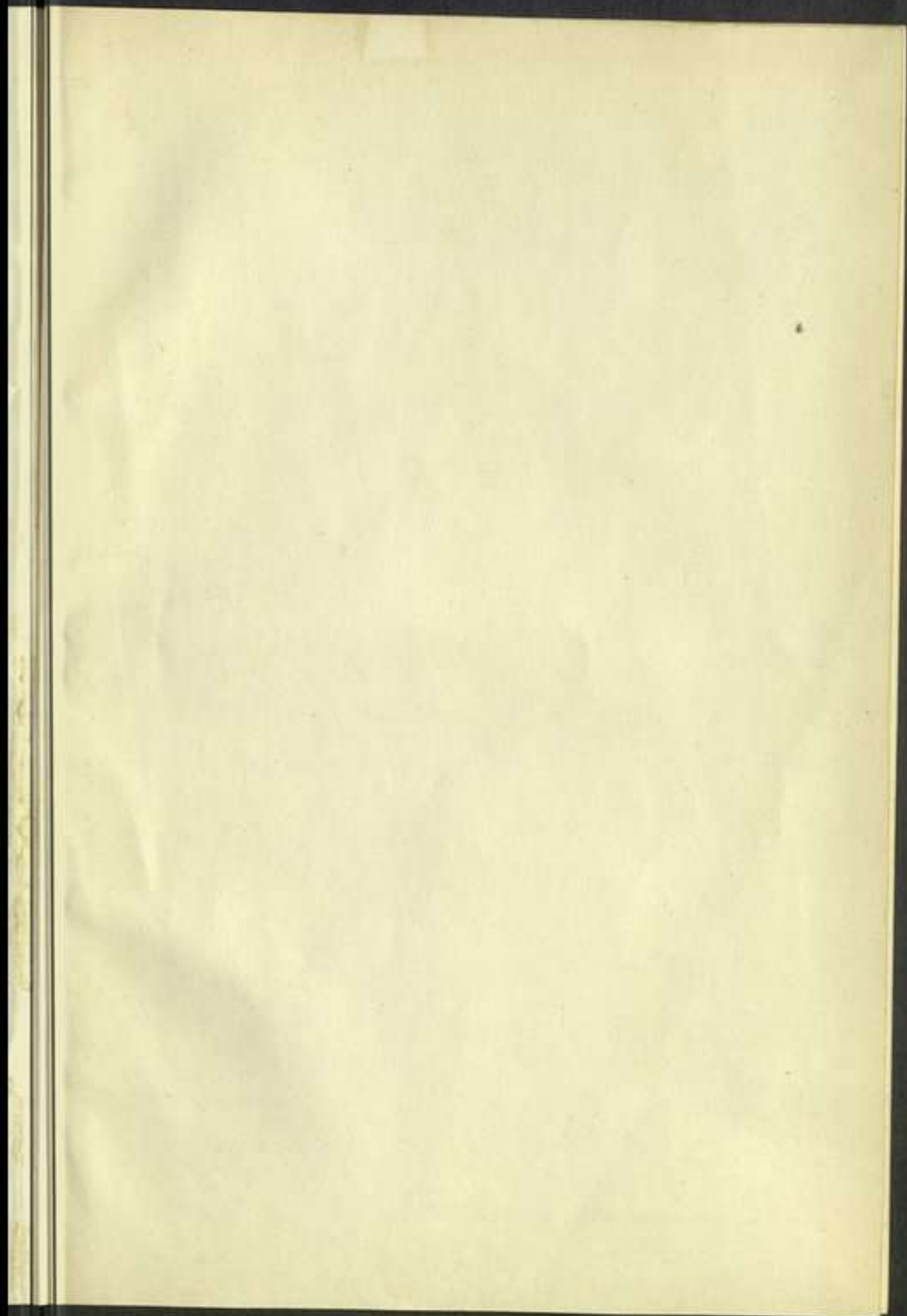
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT













من الشرق والغرب

809

R162FA

c. 1

فصول مقارفة

بين أدبي الشرق والغرب



فہرست کتابیں

پیشکش شدہ



مقدمة

هذه دراسات مقارنة بين أدبي الشرق والغرب ، وفصول منها في هذا الكتاب الذي أرجو أن يلقى قبولا حسنا لدى القراء ، إذ أنه لون جديد من البحث والمقارنة حتى نستطيع أن نتبين مكانة أدبنا بين الآداب الغربية ، ونقارن بين المذاهب المختلفة التي طرقتها الأدباء والشعراء في الشرق والغرب ، كما تناولت فيه جهود علماء الغرب في الشرق ، وأثر علماء الشرق في الغرب .

والكتاب يضم فصولا في الاجتماع فضلا عن فصول الأدب ، غير أن الإطار الذي تراءى فيه هذه الفصول هو إطار المقارنة بين الشرق والغرب ، حتى يمكن تحديد مكانة العرب في المجتمع البشري كله .

ولقد كان النقاد يعتقدون ولا يزالون يعتقدون حتى الآن أن أنجح الوسائل لتوضيح مكانة الأدب هي مقارنته بالآداب الأخرى ، وحينئذ تجلى قيمته ، وتتضح لنا مكانته .

هذا هو هدفي من هذا الكتاب ، لهذا جعلته زاخرا بالمقارنات ، خافلا بالمساجلات لنعرف مالنا وما علينا .

وقد قامت الجامعات في أوروبا بتخصيص كراسي الأستاذية للأدب المقارن ونهض كليمان وفيلاريت شاسل ، وبنلو ، وتكست بتدريس هذا الأدب في فرنسا وإنجلترا ، كما قام دي سانتكيس بتدريسه في نابلي وأرتورو جراف بتدريسه في تورين ومارك مونييه بتدريسه في جنيف ، وكانت الدروس الافتتاحية لهذه المحاضرات لا تقتصر على الجامعات فحسب ، بل كانت تنشر في الصحف والمجلات ، وظهرت عقب ذلك - الدراسات التفصيلية والقوائم الإجمالية والكتب الوافية ورسائل الدكتوراه في هذا الأدب .

ولم تكن هناك دراسة اجتماعية تخلص من هذا اللون من المقارنات . والدراسة المقارنة تدرس في الغالب عن طريق علاقات ثنائية أي علاقات بين عنصرين فحسب سواء كان هذان العنصران كتابين أو كاتبين أو طائفتين من الكتب أو الكتاب أو أدبين كاملين أو وضعين اجتماعيين متشابهين .

والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب يحقق هدفه وعلى الله التوفيق .

حديث في الشتاء بين الشرق والغرب

نظم الشعراء العرب الشعر في الفصول جميعا ، ولكنهم وجهوا جل اهتمامهم الى الربيع ولم يفز الخريف ولا الشتاء الا بقسط ضئيل ولكننا سنحاول في هذا الحديث ان نعرض لما ذكره العرب في الشتاء فقد قيل : انه في يوم ٢١ من ديسمبر تكون اشعة الشمس عمودية على درجة عرض ٢٣/٢ جنوب خط الاستواء او على مدار الجدي بتعبير ادق ، فيحدث الانقلاب الشتوى ، وفي الشتاء يشتد البرد ، ويخشن الهواء ، وتساقط أوراق الشجر ، وتدخل الحيوانات الى الجحور ، ويظلم الجو وتسير الدنيا كأنها عجوز هرمة قد دنا منها الموت .

والشتاء كما تعرف موسم النشاط والحركة والعمل المتصل الذي لا يعرف التواني ولا الكسل ، ففيه ينفذ اغلب المشروعات واكثر الرغبات وهو يختلف بين قطر وقطر وبين ارض وارض ، ولكنه عند الاوربيين يتخذ طابعا جميلا ، فالصقيع يتساقط ، والجليد يغطي الارض كأنه مرآة ناصعة ، والطبيعة ساحرة فاتنة برغم عبوسها وظلمتها وبرغم ان الشمس لا تشرق على تلك الاماكن الا لماما ، وان الشتاء يعقل الاحياء في ديارهم ، ويمنع الاحباب من مزارعهم في بعض الاحيان ، ويدفعهم الى ترك المغاني التي كانوا يأنسون بها ، ويتجمعون فيها ، ويسكنون اليها .

وقد كان شعور العرب منذ العصر الجاهلي نحو الشتاء شعورا حسنا جميلا ، فهو الذي كان يجمعهم حول النار يتجاذبون اطراف الحديث ويتطارحون فنون الكلام ، وهو الذي يجعلهم يقنون ويرقصون ويهرجون ويطربون حول هذه النار . وهو الذي يدفعهم الى السخاء والكرم والجود ، وفي هذا يقول شاعرهم :

نحن في المشتاة ندعى الجفلى لا ترى الادب فينا ينتقر

فهم يدعون في الشتاء الناس الى موائلهم ومجالسهم ، وهم ينتهزون هذه الفرصة ليظهروا كرمهم وسخاءهم وجودهم ، ولقد ظل هذا الشعور نحو الشتاء ماثلا في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي والعصر الاسلامي حتى العصر الحديث .

ففصل الشتاء اذن عند العرب فصل الجود والكرم وفصل السخاء والوفاء وقد وصف بعض شعرائهم برودته وزمهريره ، وقال بعض

الأدباء : ان له برودة تغير الالوان وتكشف الأبدان وتجفف الريق في
الإشفاق والدمع في الأماق ، وهو الذي يحول بين الكلب وخريره
والأسد وزئيره والظير وسفيره والماء وخريره وقال ابن المعتز :

قد منع الماء من اللمس وأمكن الجمر من المس
فليس تلقى غير ذي رعدة ومسلم يسجد للشمس

والواقع اننا اذا ما اردنا ان نتلمس بعض الصور الفنية والأدبية
التي قبلت في الشتاء وجدناها صورا طريفة حقا غريبة حقا :

فهذا شاعر يدعو شاعرا ان يحرك عودا ويحرق عودا ، يحرك عودا
لسماع اشجن الأنغام واعذب الألحان ، ويحرق عودا ليستمتع بالدفء
وينعم بالهناء

وهذا شاعر غيره وهو أبو سعيد المخزومي يعرض علينا صورا عن
الشتاء اكبر الظن اننا لمسناها في حياتنا العامة كثيرا ، وتمثلت أمام
عيوننا جميعا فيقول :

اذا كنت في بلدة نازلا وحل الشتاء حول المقيم
فلا تبرزن الى ان ترى من الصحو يوما صحيح الاديم
فكم زلقة في حواشي الطريق ترد الثياب بخزى عظيم

وهكذا وجدنا الشعراء العرب يعتبرون الشتاء فصل الجود والكرم
كما يعتبرونه فصل البرد القارس والمهرير الشديد والذي تأخذ فيه
الطبيعة صورا جديدة لم يألها العرب من قبل .

والشتاء في بلاد العرب فصل قصير الأمد واحساس شعراء العرب
بالحر ورعشاء الصحراء أكثر من شعورهم ببرد الشتاء .

ونحن اذا ما اردنا ان نقارن بين موقف الشعراء العرب وموقف
شعراء الفرنجة استطعنا ان نقول : ان شعراء الفرنجة كانوا أشد احساسا
واعمق شعورا من الشعراء العرب بالنسبة للشتاء للأسباب الجغرافية
المعروفة : فالشتاء عند الفرنجة فصل طويل الأمد ، والشمس لا تشرق
فيه الا لاما ، والشمس الزائرة في القرب على عكس الحال في الشرق ، فهي
محركة شديدة الوقدة .

(لعمري)

والشعراء الفرنجة يجتمعون في الشتاء على النحو الذي يفعله
الشعراء العرب الا أنهم يكثر من الحديث عن المدفأة مثل الشاعر
الانجليزي شيللي والشاعر الفرنسي فرانسوا كوبيه الذي قال : في المساء
في جنى المدفأة .

فكرت عدة مرات في صوت عصفور

كان يفرد بين الغاف الغاية في أيام الشتاء

ذات الاوقات الناعسة والروح الخاملة

وكانت الأعشاب المهجورة

تميل بهاماتها في عرض الفناء

تحت القبة الساكنة للسماء

أواه ! كم تمنى العاصف أن يبقى الشتاء .

فالشاعر الفرنسي فرانسوا كوبيه في هذه القطعة يصور جالسته في حمى المدفأة في الشتاء ويصور مشاعر الطيور الشاردة في الفضاء . وكذلك كان يفعل الشاعر الإنجليزي المشهور ولیم شكسبير من قبل ، اذ صور شكسبير في إحدى مقطوعاته موقفه مع صاحبه حين قال :

ما أشبه فراقى عنك بفصل الشتاء

ولت مرانى مع سنتى الهاربة

فكم لظلمات قارسة أحس بها

وأى جذب لديسمبر العتيد في كل مكان

وهكذا كان الشتاء ملهما لشعراء العرب والفرنجة . ولم يكن الإلهام مقصورا على فصل الربيع وهو فصل الخضرة والتفجرة والبهاء ، إنما كان ممتدا إلى الفصول جميعا . ولكنه ظهر في كل فصل بظابعه الخاص وسماته المميزة .

فإذا كان الربيع تحدث الشعراء عن الأزهار البانعة والأوراق المورقة والأطياف الصادحة والطبيعة الباسمة والأمال المتفتحة ومغاني الحب والهوى ومواطن الجمال وتباريح الود والجوى .

وإذا كان الخريف تحدث الشعراء عن الأوراق الذابلة والأزهار المصوخة والأمال النائية والأحلام الضائعة .

وإذا كان الصيف تحدث الشعراء عن الحر اللافت والقيظ الشديد والبحر والشاطئ والغيد الحسان والكواكب الملاح ، وتحدث الشعراء عن المدفأة والنار والدخان والأحلام والأمال المكيوتة والأمانى المكتومة والنفس المحترقة وقد قال أبو تمام :

ضربت الشتاء في أخذه ضربة غادرته عمودا ركوبا

وكان ابن المعتز يعيب على أبي تمام هذه الصورة ويقول في كتابه « البديع » أنها من الاستعارات الرديئة التي استخدمها أبو تمام .

وقد تأثر الشاعر الإنجليزي المعروف بيرس شيللى بالشتاء فنظم قصيدة من درر قصائده في الشتاء جاء فيها :

جثم الطائر ينتحب على حبيبه الراحل

فوق فتن رطب

وكانت الريح الباردة تزحف في الأعلى

والجدول المنجمد يرسخ في الوادى

ولم تكن هنالك ورقة في الغابة العارية

ولا زهرة منشورة فوق الأديم
ولم تكن هناك حركة للهواء
إلا جمجمة عجلة الطاحون تدوى في الفضاء
فهذه صورة طريفة من الأدب الغربي يمكن أن تقارنها بصورة
أخرى شرقية كقول الشاعر العربي :

حتى إذا ما أقبل الشتاء
جاءتك منه غمة عمياء
لو أنه روح لكان قدما
أو أنه شخص لكان جهما
يأتبك في أيامه رياح
ليس على لاعتها جناح
حراكها ليس إلا سكونا
تضرب الأسماع والعيونا
يحدث من أفعالها الزكام
هذا إذا ما فانتك الصدام
ثم يأتبك مطر مداوم
كانه خصم لنا ملازم

هذه صور جميلة من الشتاء في الآداب وهي صور باهرة مجلوة
في معارض الجمال والخيال بديعة المناظر حلوة الأطارات .
وهكذا كانت فصول الطبيعة دائما وأبدا وحييا موحيا والهاما ملهما
للأدباء والشعراء والفنانين على مر العصور وتوالي الأيام .

الحريف فى الأدب الانجليزى

قسم كثير من نقاد الأدب الانجليزى وغيره من الآداب الاجنبية الطبيعة قسمين : طبيعة هامة وطبيعة حية ، والطبيعة الهامة كل ما فى السماء والارض مما ليس له روح وليس له قلب يخفق وعرق ينض . فزهرة السوسن طبيعة هامة وشجرة اللبلاب ودوحة البلوط طبيعة هامة والبحر والنهر والقدير طبيعة هامة والربيع والخريف والصيف والشتاء طبيعة هامة اما الطبيعة الحية فتشمل الحيوان المستأنس والطيء الاليف وغير الاليف ... وكل موجود ذى روح سواء كان مما يعيش على الارض ويقطع من رزقها ... وبأكل من حشائشها أو كان من نسج الخيال ، ووهم الاساطير ...

فنظرة الشعراء الى الخريف اذن كانت على انه اثر من آثار الطبيعة الهامة ومظهر من مظاهر الحياة الطبيعية وقد اختلف الشعراء فى احساسهم به :

فمنهم من يحس الطبيعة احساسا عميقا جارفا يخالط دمه ويمارز روحه ... ويسرى فى اعصابه فاذا بحواسه متنبهة ، واذا بمشاعره متيقظة ... فلا تفوته حركة عصفور ولا هديل حمام ولا تغريد طائر ، ولا يفوته مذاق تفاحة ، ولا عبير زهرة ، ولا نامة ولا نومة ولا حركة ، ولا سكون ...

ومنهم من يمزج العواطف بنفسه ويسكب على الطبيعة افراحه ومزاحه .. وأشجانه .. واتراحه ...

ومنهم من يصور الناس بين اكناف الطبيعة متنعمين بخيراتنا .. متنعمين بأفضالها بين جدول جار ، ونهر عذب سلسال ، ويخرج من ذلك بحكمة الهبة ... ونزعة صوفية تمتلك نفسه امتلاكاً وتستحوذ على روحه استحوذاً ...

بهذه العواطف المتباينة وبهذه المشاعر المتفاوتة يستقبل الشعراء والكتاب فى الأدب الانجليزى الخريف ولا يزالون يستقبلونه حتى اليوم فهو مبعث الهام كثير منهم ومهبط وحيهم ... ومنبع أفكارهم ... وملأذ خواطرهم .

وقد رمز بعض الشعراء الى الخريف بالشيخوخة كما رمزوا الى الربيع بعنفوان العمر وشرح الشباب ، ورمزوا الى الأمل بالخضرة والى الحب بالوردة والى العفة والظفر باللون الأبيض الجميل .

ولقد استهوت صفرة الشمس في الخريف وقلة الضوء وخفوت
النور ... وذبول الزهر ونضوج العشب وتساقط الاوراق الجافة على
الارض ... واوبة الاطيار الى الاوكار .. والضواري الى الأوجار ...
والناس الى الديار ... استهوى ذلك كله في الخريف انظار الكتاب
والشعراء فاذا بأمالهم تصغر وتشعب ... ويخيم عليها ظلام مقبت
وكآبة موجعة ... واذا بأحلامهم تذبل وتذوى وتتبعثر على الارض
وتذروها بد الرياح في وجه الفضاء ... واذا بهم ينظفون القصائد
الرفيعة والمقطوعات العذبة الجميلة التي تنضج رقة وجمالا ... وتقطر
لوعة ودموعا على العمر الداهب ، والشباب الغائب ، والخريف المنصرم
الذي لا يحمل شيئا ولا يبقى على شيء .

وكان شعر الشعراء في الخريف في العصر الكلاسيكي تقليدا ...
وتمثيلا لشعراء اليونان والرومان مثل ثيوفريطس اليوناني أحد ادباء
الاسكندرية القدماء ومن الذين وضعوا اساس الشعر الريفى ، وفرجيل
الرومانى الذى نظم اغاني الرعاة فكتب لها الخلود ... وتروم بها نغم
الزمان ...

والملاحظ في ادب الخريف وغيره من شعر الفصول في العصر
الكلاسيكى انه ممزوج بذكر آلهة الطبيعة وارباب الخصب والجمال
واساطير الاغريق والرومان : فعروس الجمال (اكو) بارعة الجمال تفرم
بشباب وسيم الطلعة جميل الشكل يسمى (ناريس) او النرجس
فتغازله وتشرع في ملاطفته ولكنها لا تستطيع من ذلك شيئا ولا تجد
الى ذلك سبيلا لانها فقدت المرونة في الكلام والقدرة على التعبير . واتى
عليها الخريف فدوت كما تذوى الزهرة ولم يبق لها الا الصوت الذى
لقتها اياه آلهة القمر .

وقد كتب ادمند سبنسر في القرن السادس عشر تقويم الراعى
وهو قصيدة طويلة تشتمل على شهور السنة جميعا . وقد خص شهور
الخريف بكثير من روائع وصفه وبدائع قصصه ، فدعم بذلك الادب
الريفى في انجلترا الذى ازدهر في ايطاليا على يد (بتراارك) وفي فرنسا
على يد (دوديه) .

وتشتمل قصيدة تقويم الراعى بشيد خزين او اغنية متاوهة
بشدها كولن كلوت في شهر يناير ليشكو حبيبته روزالند ، ثم يتلو
شهر يناير شهر فبراير حيث يقص علينا سبنسر قصة السدانة
والعوسج حتى اذا ما وصل الى شهر اغسطس تحدث سبنسر عن الغناء
والطرب والابتناع والابداع ، وشكا في سبتمبر نوم القساوسة في الكنيسة
الرومانية حتى اذا ما وصل سبنسر الى شهر اكتوبر عاد الى اناشيد
الرعاة ، وظل بين انغامها حتى يتم الحول وينتهى العام . ومثله في ذلك
كله - كما يقول وليم وردزورث - مثل القمر يشق طريقه في السماء
الفائقة في ثقة وخطوات وئيدة .

ومن الشعراء الذين مجدوا الخريف الشاعر الانجليزى الكسندريبوب
في نهاية القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر .

وقد أنشد قصائده عن الخريف والربيع والصيف والشتاء وهو في العشرين من عمره بعد ما أنشد وهو في الخامسة عشرة من عمره ملحمة شعرية ضمنها كثيرا من خواطره وافكاره واحلامه وأوهامه في هذه السن ولم يلبث أن مزقها وقدمها غداء للنار .

والواقع أن شعر بوب في الخريف لا يخلو من روعة وجمال وقد كتبه على نسق الشاعر الرومانى فرجيل ، غير أن الصنعة ظهرت في أسلوبه في كثير من المواضع ظهورا واضحا .. متعمدا ، فهو يهتم بمقتانة التراكيب ، وبنقاء اللفاظ .. واختيار التعابير كما يهتم بالانقسام والانقسام .. والاصباغ والالوان . وهذا الاهتمام قد يقلقه ويؤرقه في بعض الأحيان .. فإذا بأسلوبه باهت شاحب لا أثر عليه من جمال .. ولا مظهر عليه من حسن . وإذا ببوب نفسه لا يدوق من أجل ذلك النوم الا غراما .. وإذا هو يجلس في بستانه .. أو يسير بين المروج أو على ضفة جدول أو غدير . ينظم قلائد أسلوبه .. ويحسك طراز شعره .. لا يكاد يدرك أو يعي ماحوله .. ومن حوله من الأحياء والأشياء ..

وكتب جيمس تومسون James Thomson قصيدته في الخريف وهو في الرابعة والستين من عمره في القرن الثامن وتشيع بين قصيدة تومسون برغم ما بها من وصف دقيق لمظاهر الطبيعة رنة حزن عميقة وسدى شجن دفين . ولعل هذا يرجع الى أن تومسون كان ميالا الى الحزن والتشاؤم مسرفا في اليأس والقنوط .. فقد حبيبته انصر ماتكون شبابا وأروع ماتكون جمالا وأحلى ماتكون فتنة وهو يحمل لها بين جوانحه الحب العميق .. والهيام الشديد .. وفقد أخاه الذي كان صقيه ومعينه على صروف الزمان .

وبرغم هذا الحزن وهذا الألم الذي يشيع في شعر تومسون نجد في قصيدة الخريف نزعة جارفة نحو الطبيعة ووداعا صادقا حارا للتعلق بأهدابها ولوعة مفرطة خالصة على تغيرها وأمحالها ، وقد نفى تومسون بهذه القصيدة مازعمة الكسندر بوب من قبل وهو أن ما يجب أن يدرسه الإنسان هو الإنسان ! ..

والخريف المنقل بالثعرات الشبيهة والخيرات الناضجة أشبه شيء في عين تومسون بالرجل الذي أثقلته الخبرة وحكتته التجارب وربته الحياة ، اسمعه يقول :

عندما ينشر الخريف أشعته المتفرقة

التي ينذر بها مقدم الشتاء

تمرح الخيرات في آفاق رحيبة

وتلتف بين جنبات السماء الساكنة

وينساب تيار الماء هادئا رقيقا

قبل أن يحين الشتاء ..

وتشيع الجلبة والضوضاء في الضفة الآمنة

أيه أيتها الطبيعة التي تزخر بكل شيء !

امنحني بعضاً من اسرارك الخفية
 واجذبيني الى السماء .. الى هذا العالم اللانهائي
 ودعيني ارقد بجوار الجدول الخفيض واتاغى احلامي
 فمنك تبدأ وفيك تعيش واليك تنتهي انغامي !
 ثم تأمله مرة ثانية وهو يخاطب الخريف :
 يافضلا يجثم فيه الضباب وينضج الثمر
 يا صديقا حميما للشمس التي تهب الازهار والحياة والاشراق
 كأنما دبوت مع الشمس مصير الكروم التي تغطي السقوف
 واتفقت معها لتغمرها بالثمر والخير والبركات
 كما اتفقتما أن تثقلا بالتفاح اشجار الكوخ
 التي يفشي جذوعها نبات الطحلب
 وتحمل النضج الى لباب الفلاحة الجميلة
 من ذا الذي لم يرك يا خريف بين خزائن محصولاتك
 وشعرك تعبت به الريح حتى أوشكت أن تدروه
 اين انغام الربيع ... اين !
 دع عنك انغام الربيع فلك يا خريف انغامك !

وعندما قامت الحركة الرومانتيكية في انجلترا ، وقدمت الالتر
 الرومانتيكي او الفن الذي يحدث اكبر متعة ممكنة للشعوب على حد
 تعبير ستندال Stendhal لم يفقل الشعراء ولا الكتاب الاصول
 القديمة في الادب الريفى ، ولكنهم أصبحوا أفرادا يعبرون عن ذواتهم
 بأدق معاني هذا اللفظ ولم يسجل الشاعر منهم الا تجربته الفردية ..
 ومشاعره الذاتية .. وخلصات حسه ونبضات شعوره دون أن يعبرا
 بالمجتمع ولا بأوضاع المجتمع .. ودون أن يرى الا قلبه على حد تعبير
 مايثو أرنولد ولا يتعكس الا على « الأنا » كما يقول علماء النفس وهي
 التي تحركه كيفما هوت وحيشما شاءت .

وإذا كان جيمس تومسون رجلا متشائما حزينا فان لورد بيرون
 كان كما يقول اميل فاجيه Emil Faguet أقوى من ساهم في وضع
 نموذج للرجل الرومانتيكي او « الرجل المكتئب الجبرى » اسعده
 يقول : -

لقد طفقت يد الحاصد
 تحصد الثبت الرمادى الناضج ..
 ولكن صوت الناعى ..
 أخذ ينتحب على الشباب الداهب ..
 واقبل الخريف فى اندفاع
 يحمل بين طياته الاوراق الجفاف ..

ولكن زهرة حبنا لا تزال يانعة الاشرار
برغم دنو شبح الجفاف الذريع ..
وكقطرة النداء فوق الجبل ..
وكزبدة الامواج بين البحر ..
وكانبشاقة الماء بين المعين الدفاق ..
ولى شبابه الى الأبد ..

والى جانب لورد بيرون يقف الشاعر الحالم بيرس شيللى وقصيدته
الحالة « زكا » التى استهلها بقوله :

« مات الصيف واخلاق الخريف يتنفس » وفى فقرة اخرى
يقول : « مات الصيف وعشت انا لأكى وأغرق فى بلبله من النحيب »

والى جانب هؤلاء جميعا يقف شاعر الحب والجمال جون كيتس
John Keats الذى بهرته مجالى الطبيعة واستهوته مفان الخريف
فكتب بعض القصائد العذبة بتفننى بوجهه الجميل وطلعت الساهرة .

الصيف

فى الأدب الانجليزى

الفرق فى الحديث بين الربيع والصيف كالفرق بين الطبيعة المزخرفة ذات الزهر المتفتح واورد المناق والمروج الخضراء وبين الطبيعة السافرة المجلوة التى تبدى كما خلقها الخلاق العظيم .

فصل الصيف فصل الحرية والانطلاق ، وسماء الصيف ناصعة لا يعكرها سحاب ولا يطمسها ضباب ، وأرض الصيف واضحة لا يفرقها مطر ولا يعرقها تلج ولا برد ، ووجوه الصيف فرحة مستبشرة تستقبل النور والضياء ، وتستمتع برخى الهواء لا يكبها قيد ولا يسترها حجاب .
وإذا كان الجغرافيون والفلكيون يقولون ان الفصول أربعة : الصيف والخريف والشتاء والربيع ، فاننا لانكاد نميز هذه الفصول فى مصر تميزا ظاهرا ، انما نجدتها تختلط اخلاطا وتمتزج امتزاجا ليس بينها الا فروق ضئيلة تزداد كلما دنونا من الصيف أو قربنا من الشتاء .

اما فى أوروبا بوجه عام وفى انجلترا بوجه خاص فان الامر يختلف عن مصر كثيرا : فالفصول واضحة ظاهرة ، والشتاء شديد البرودة ممتد الجليد غزير المطر ، والصيف معتدل جميل ، ولذلك كان احتفال الشعراء والأدباء من الانجليز بالصيف عظيما كما كان احتفالهم بالشتاء عظيما كذلك .

وقد اخرجت الدكتورة ادبث ستبول كتابا سمته كتاب الشتاء جمعت فيه القصائد التى قيلت فى الشتاء ونظمتها شعراء كثيرون من مختلفى البلاد سواء فى الأدب الانجليزى أو الأدب الفرنسى ، وعرجت على الأدب الصينى واليابانى فذكرت لنا مجموعة من القصائد العذبة والمقطوعات الرقيقة .

اما الصيف فقد عده الانجليز فصل المتعة والحرية والانطلاق فلا يكاد يقبل الصيف حتى يدع الناس البيوت ليذهبوا الى سواحل البحار أو سفوح الجبال ، وتكون ربة البيت الانجليزى فى هذه الفترة كما يقول « لى ستامب » قد فرغت من تنظيف بيتها من بقايا الفهم فى الشتاء ، ففدا متعشا مبهجا يبعث على الراحة والاطمئنان .

وهناك من يقضون الصيف على سواحل البحار بين مرح ولهو ولعب وقصف ، ويتهادون متباطئين متشددين يخطرون فى مختلف الملابس والأزياء ، وهناك من يقضونه على سفوح الجبال بين صعود وهبوط

محتدين احديتهم السمكة ، سائرين في شعاب الجبال المتعرجة ، او
ممسكين بالامراس القوية والجبال المتينة المنذية .

وقد سجل كثير من الشعراء هذه المظاهر الجميلة والمباهج اللطيفة
في اشعارهم ، وامتاز الادب الانجليزي بتلك القصص الموسيقية القصيرة
المسماة « بالاد » Ballads ، وهي التي تناقلها الخلف عن السلف ،
وسرت عبر السنين من افواه الشيوخ الى افواه الشبان ، وتضمنت
بعض هذه الاقاصيص الموسيقية او « بالاد » مغامرات كثيرة حدثت
في الصيف مثل بالاد ابنة ايرل مارو The daughter of Earl Marrow وهي قصة
فتاة خرجت ذات يوم في الصيف تنزه بين المروج الخضراء والزهور
المائلة فالتفت طائرا جميلا بفرد على فنن ، فدعته الى ان يعيش معها
ويرتع بين اكناف قصرها والغاف حديقتها ، ولكن ما ان جن الليل وهبط
الظلام حتى غدا هذا الطائر الجميل شابا وسيم المظهر حلو القسمة
في شرح العمر وعنفوان الشباب ، فاشتدت دهشتها وازدادت حيرتها ،
غير انه لم يلبث الشاب الوسيم ان انقلب الى طائر مفرد كما كان ،
وانطلق الى قفصه الذهبي .

وتقدم الخاطبون الى الملك يطلبون يد ابنته الفتاة ، ولكنها كانت
تردهم واحدا تنو الآخر ، وتأبى عليهم ذلك اباء شديدا ، فاعة بصحبة
هذا الطير الجميل الذي تانس بجواره ، فاقسم الاب قسما غليظا ان
يقتل ذلك الطائر ، وان ينتقم منه شر انتقام ، غير ان الطائر علم بما
اعتزم عليه الملك فذهب الى مهبط راسه ، واحضر بغاث الطير وخلصوا
العروس من الخاطبين .

وهذه « بالاد » Ballad او القصة الموسيقية خرافة مافي
هذا شك ، ولكنها تعطينا صورة واضحة عن ذلك اللون من القصص في
الادب الانجليزي الذي طار صيته في الافاق ، وتندر به الموسيقيون
الجوالون في شتى البلاد ، كما تصور هذه القصة الموسيقية احدي
مغامرات الصيف عندما تخلص الطبيعة من اغلال الشتاء وقبود الجليد .

ولم يكن احتفال شكبير بالصيف اقل من احتفال غيره من
الشعراء ، فقد ضمن مقطوعاته المسماة « السونات » Sonnets
كثيرا من الاحلام التي تراوده والهواجس التي تنازع قلبه عندما يقبل
الصيف كما كتب مسرحية « حلم ليلة في منتصف الصيف » وهي
مسرحية ابداعية من نوع الماهة يغمرها ضوء الشمس وينسكب فوقها
نوء القمر تجيش بالعواطف الرقيقة والاحاسيس الجميلة والاشجان
الانسانية ، وضمن بعض مسرحياته الاخرى اشعارا رقيقة عن جمال
الطبيعة في الصيف فوق شطآن فينسيا .

وقد صور شعراء البحيرة في الادب الانجليزي مثل كوليردج ووليم
وردزورث بهجة الطبيعة في الصيف واصطفاف الموج مع الشاطئ في
صخب وجلبة او في خفوت وهمس كما صوروا الزيد وهو يتسائل
كالقطن المندوف ويتراعى تحت اقدام الصخور الشامخة .

حتى اذا ما ادبر الصيف وحل الخريف ثارت في نفوس الشعراء
عواطف جديدة واحاسيس اخرى كالشاعر الرومانتيكي لورد بيرون أو
الشاعر الحالم بيرس شيللي الذي قال :

مات الصيف وعشت انا لآبكي
واغرق في بلبلة من النحيب
ان العالم يفرق في دنيا الرؤى
وكم انا تعب مكدود
لاني اجول من غيرك
كانت لدى فرحة دائمة
في صوتك الحنون وبسمتك الضحوك
ولكنها تولت الى الابد وساذهب في الرها !

الربيع

فى الأدب الانجليزى

ليس الاعجاب بالطبيعة وقفنا على شعب من الشعوب ولا لغة من اللغات ولا أدب من الأدب ، وليس الاعجاب بالطبيعة مقصورا على زمن دون زمن ولا عصر دون عصر ، ولكن الاعجاب بالطبيعة وجد منذ وجد الانسان ووجدت الطبيعة ، فألهمت الشعراء والكتاب والفنانين ، وستظل تلهم الشعراء والكتاب والفنانين حتى يرث الله الارض ومن عليها وما عليها

ومن مظاهر الطبيعة فصل الربيع حيث يعتدل الجو ، ويرق النسيم ، وتصفو السماء ، وينضج الزرع ، وتفتح أكمام الأزهار ، وتترنم الاطيار بأعذب الاغاني واشجى الانغام .

واذا كان الأدب الانجليزى يعتمد فى أصول كثيرة على الأدب الاغريقى والأدب الرومانى فينبغى أن نقرر حقيقة لا محيص عنها ولا مفر منها وهى أن الأدب الكلاسيكى القديم حافل بوصف مظاهر الطبيعة ، وبوصف الربيع .

وقد ذكر جوته أن الطبيعة عند اليونان قد بلغت أوج الجمال فى شعرهم وأبعد مراحل الفتنه والبهاء . . وقد أسس ثيوقريطس فى القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة فى الشعر الريفى ووصف المروج والمرعى وأعياد الربيع .

وهذا فرجيل حدا حدا ثيوقريطس فالف أغاني الرعاة .

وهكذا نما الأدب الريفى والشعر الريفى أو ما يطلق عليه الانجليز Rurol Poetry

وأخذ أدب الطبيعة ينمو فى عصور الأدب الانجليزى المختلفة حتى جاء شكسبير فى القرن السادس عشر فصور مجالى الطبيعة وفتنتها وصور صخب الطبيعة وقسوتها فى أدبه الذاتى وأدبه الموضوعى .

وان من يقرأ مقطوعات شكسبير وأغاريده يجد وصفا رائعا للربيع بين ثناياها ، وقد أهدى شكسبير المقطوعات الاولى الى نبيل مجهول الاسم اختطف منه معشوقته وحرمه جمال الطبيعة وروى الربيع وبهجته الصيف وفتنة الحريف ، وأهدى المقطوعات الباقية الى فتاته وهى ذات شعر أسود وأهاب أسمر ، فخالف بذلك عادة الشعراء الذين كانوا يرون عرائس أحلامهم وملهمات فتنهم فتيات ذوات شعور شقراء وبشرة بيضاء

وحوت مقطوعات شكسبير جملة من أوصاف الطبيعة ومباهج الربيع
وفرق شكسبير بين الطبيعة والحب فكتب جنون الحب ويأس الحب والهوى
والشباب حتى أن الشعراء الرومانتيكيين استمدوا أصول فهم ومقومات
مذهبهم من هذه المقطوعات الرائعة التي ديجتها براعة شكسبير .

السمعه يقول :

- تعالى واحيي معي وكوئى حبيبة فؤادى ...
- فسوف تنبت لنا مسرات الحياة ...
- ان التلال والوديان والمروج ...
- والجبال السماء تبدى لنا الرضوخ ...
- هنالك سوف نجلس فى الربيع فوق الصخور ...
- حيث يتراى الرعيان يطعمون الاغنام ...
- وتتجلى الاطيار الصوادح فوق الغدران ...
- تترنم سكرى بأعذب الالحان ...
- هنالك ساصنع لك سريرى من ورود ...
- ومن نوار آلاف الازاهير
- ساصنع لك قبة وثوبا ..
- موشى بأوراق من الزهر بيضاء ...

وقد ألف الشاعر الانجليزى جون دن John Downe فى نهاية
القرن السادس عشر ومستهل القرن السابع عشر مدرسة شعرية كانت
تهتم كل الاهتمام بالناحية الميتافيزيقية فى الشعر وكلفت بما بعد
الطبيعة كلفا شديدا ، وقد شاع مذهبها فى جميع انحاء الشعر حتى
شمل الغزل والحب ووصف الربيع فقال جورج هربرت George Herbert
من أتباع هذه المدرسة :

- أيها النهار الصبوح الذى لانسمع فيه ركزا ...
- وغمره الاشرار ورخى النسيم ...
- كانك يوم عرس للسموات والارض
- ان الظل سيخزن عليك عندما يهبط المساء ...
- لأنك ستلفظ أنفاسك الاخيرة ...
- أيها الربيع الطيب الباسم اليوم المتفتح الورود ...
- كانك الصندوق امتلا بصنوف الحلوى الشهية ...

ان الحانى تخبرنى ان لا يامك نهاية محدودة ..

ولا بد لكل شىء حينئذ أن يموت ...

فجورج هربرت ينظر الى الربيع على أنه جمال زائل وحسن لا يدوم ،
ويخرج من ذلك الى حقيقة لا خلاص منها ولا محيص عنها وهى أن كل شىء
ما خلا الله باطل لا يدوم

وقد سبقت المدرسة الرومانثيكية فئة من الشعراء تغنوا بوصف
الطبيعة والريف كان منهم كوبر الذى قضى الجزء الاكبر من حياته في
بلده على ضفاف أحد الانهار وفي حوى الاشجار المتشابكة المتدلية
والمرامى الممتدة الفسيحة فأرانا الشمس وهى تشرق على الفأبة ،
وأسمعنا هديل الحمامة وهى تهدل فى عشها ، وصوت جناح اليمامة
وهى ترغرف فى الاجواء ، وجعلنا نستنشق أريج الزهر وهو يفوح
فيعبق الأرجاء .

كذلك فعل وليم كولنز Collins وبليك Blake الذى وصف
الربيع وصور مفاتنه ولكن تصويره ممزوج بالم دفين وحزن عميق
يعصف بقلبه عصفا ويهز أركان نفسه هذا .

وكتب الشاعر الانجليزى جيمس تومسون James Thomson فى القرن
التامن عشر قصيدة بعنوان « الفصول » تعد من روائع شعره ، فمهد شعره
لمدرسة الحقيقة فى الادب الانجليزى أو مدرسة الحالمين الذين يحبون
الطبيعة لما تمثل فيها من جمال وتجل على وجهها من امارات الفتنة والسحر
والرواء ...

ومن الشعراء الذين وصفوا الربيع وتغنوا فى وصفه الشاعر
الاسكتلندى وليم دنبار رب القوافى فى اسكتلندة كما يقول الانجليز .
اسمعه يقول فى قصيدته :

عندما أدبر شهر مارس بعواصفه الهوجاء

وأقبل أبريل مفضض الانداء ...

ومطلع على الطبيعة الهادئة ..

بريح عاتية آتية من الشرق ...

وأعقبه شهر مايو مشرق الازاهير

طفق الطير يفرد ...

بين الورود العبقرة البيضاء والحمراء والسمراء ...

فقد وقع أنغامها متعة للسامعين ...

كنت هاجعا فى مخدعى حتى تبليج الصباح ...

فخلت فلق النور يطل بأعين من بلور ...

وخلت مايو الصبوح يمثل حيال مخدعي ...

في ثياب مزخرفة الألوان ...

هادئا رزينا ينبض بالحياة والنشاط

ويتدثر بدثار ناصع متآلف من الازهار اليانعة ..

ذوات الالوان الرائعة بيضاء حمراء سمراء زرقاء ...

يعلوها القفل وتفضضها اشعة الشمس الذهبية ...

واعتم القصاص في انجلترا بوصف جمال الربيع والمشاعر التي
تنتاب ابطال قصصهم في الربيع من حب ، كما اهتم الشعراء الرومانتيكيون
في انجلترا اهتماما بالغا بوصف الربيع وذلك لان الرومانتيكية كان من
مذهبها الرجوع الى الطبيعة او المعيشة داخل الكل كما يقول الفيلسوف
الالماني جيته . ان الرومانتيكية حب للأسفار وترنم بالاشعار والاحاسيس
الجياشة والمشاعر الدفاقة .

وكان من اعلام هذه المدرسة الشاعر ولیم وردزورث وجون كيتس
والشاعر الحالم شيللى ولورد بيرون ، قد حوت دواوين هؤلاء الشعراء
شعرا عن الربيع ومباهجه والاحاسيس التي تنتاب الشاعر في ابائه
وغضونه ، فهم يصورون نظرة الطبيعة في الربيع وتفتح الزهر واخضرار
الزرع وتفريد الطير وهم يتخيلون للربيع وجودا معنويا ويخاطبونه
مخاطبة حسية ويتحدثون اليه حديث القلب الى القلب ونجوى النفس
الى النفس ، ويتفنن الشعراء في ذلك ماوسعهم التفنن ، فاسمعونا
قالب الربيع وخلصات نفسه كما صوروا الابداع الالهى دون زخرفة ولا
بهرجة بين القاف الغاب ومجرى العيون والينابيع ، وقمة الصخور ،
واعماق الوديان .

ولم يتمسكوا كل التمسك بالمناسبات الدقيقة بين المشبه والمشبه
به على نحو ما نجد في الشعر العربي انما غدا شعرهم مشاعر دفاقة
واحاسيس جياشة تنساب في سهولة وبساطة كما ينساب الجدول
الهادر ، والفدير الرقراق ..

وقد ظهرت نزعة تصوفية في وصف الربيع كتلك التي نجدها عند
الشاعر الانجليزي كوفنتري باتمور Patmore والشاعر الانجليزي
فوجهان . فليس «فوجهان» شاعرا رومانتيكيا يحب الازهار ويعشق
الورود في الربيع ، وليست الازهار تتجلى حيال عيني «فوجهان» كحسنة
ذات فتنة أو ربة من ربات الجمال نصفها انسجة ونصفها زهرة ، ولكن
«فوجهان» يخرج من الربيع ليلقى ربه ، ويخاطب خالق هذا الجمال
الساحر الخلاب ، فاذا كان كولريديج يتحدث عن الزهرة من جذورها الى
كأسها ، ويصور فتنة الروض ، فان «فوجهان» يصور قدرة الخلاق سائرة
بين البساتين ، مارة عبر المروج ...

وفي الادب الانجليزي الحديث نجد وصفا للربيع عند د . هـ .
لورنس ، وت . س . اليوت واوسكار وايلد وغيرهم برغم أن أكثر الادباء
الانجليز في العصر الحديث يمكن أن نطلق عليهم أدباء الكارثة لعبوسهم
وسخطهم وفقدهم الامل في مظاهر الحضارة الحديثة .

بين الربيع والخريف

أوشك الصيف أن يدبر بحره اللانح ، وقيظله الشديد ، وأخذ الخريف يتقدم في اختيال شبيهاً فشيئاً حاملاً نسائمه الرخية الناعمة الوادعة إلى الدنيا ساكباً روحاً حلوة لطيفة في أنفوس ، والخريف لكل فصل من فصول السنة له طابعه وسماته وله صبغته ومميزاته ، وإن من يتصفح دواوين الشعر العربي يجد أن الشعراء العرب قد تحدثوا كثيراً عن الفصول ، فتحدثوا عن الربيع وتحدثوا عن الخريف وتحدثوا عن الصيف وتحدثوا عن الشتاء ووصفوا مفااتها ومظاهرها ومجاليها ، ولكنهم وجهوا جل اهتمامهم إلى الربيع منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث وتفننوا في ذلك ماوسعهم الافتنان ، وابتدعوا في ذلك من المعاني ماوسعهم الابتداع ، فالربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد يتكلم ، والدنيا معاش للورى حتى إذا أقبل الربيع فهي منظر ، وتبدو أوراق الشجر حيال الشاعر على الربيع عذارى ، والنضارة ضحكا ، واهتزاز الفصول مفاولة ، ويبدو نغم الربيع يلثم خد الزهور ، ويبدو الروض حيال الشاعر في الربيع عرساً جمع أنواع السرور ، وما إلى ذلك من تأملات رقيقة وتصورات طريفة وخیالات جميلة .

وإن الباحث في شعر الربيع يجده في سهولة ويسر ، ولكن الباحث في شعر الخريف يصادف مشقات كثيرة وعقبات أكبر ، ولكنه بعد هذا كله وبرغم هذا كله ينتهي إلى أن الشعراء العرب قالوا في الخريف شعراً طريفاً ما في هذا شك .

فالطبيعة معلمة المعلمين جميعاً كما يقول ليونارد دافنشي والطبيعة ملهمة الفنون . وقد يحب الشاعر الطبيعة ، ويحب الفن بعدها على حد تعبير الشاعر الانجليزى وليام كولنز .

وقد قال العرب في الخريف : انه ربيع النفس ، كما أن الربيع ربيع العين فطبعه بارد يابس ، فيه يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتنضج الثمار ويغير وجه الأرض ويصفر ورق الشجر ، وتهزل البهائم ، وتموت الهوام وتنحجر الحشرات .

وقد ربط كثير من الأدباء والشعراء بين الربيع والخريف فقال أحدهم كل ما يظهر في الربيع نوار ، وفي الخريف نجنى ثماره فهو الحاجب أمامه والمطر قدماه .

وقد افتخر شاعر بالخريف على الربيع فقال :

محاسن للخريف بهن فخر على زمن الربيع وأى فخر به صار الزمان أمام برد يراقب نزحه وعقيب حر

قلت ان أحد الأدباء قد وصف الخريف بأنه ربيع النفس كما أن الربيع ربيع العين ، وقد حاول بعض شعراء العرب التحدث عن خلجات نفوسهم ونبضات شعورهم وخطوات عقولهم أكثر مما يتحدثون عن مباحجه ومفاتيحه ان كانت له مباحج أو مفاتيح .

وقد كان شعور شعراء العرب بالطبيعة على أشده وبالفصول في أوجه ، فمنطقة البحر الأبيض المتوسط لما تمتاز به من مناخ معتدل وتربة خصبة وسهول خضر كان شعور شعراء الشام ومصر والاندلس فيها بالطبيعة والفصول جليا واضحا ، وامتاز شعر الاندلس بوجه خاص بهذا اللون من الأدب على يد ابن خفاجة وابن هانيء وابن زيدون ، وكان بعض الشعراء العرب يشاركون الطبيعة في حليها وعطرها وفي كسانها وعريها ، كما كانت الطبيعة تشاركهم في أفراحهم وأتراحهم وفي غنائهم وبكائهم كذلك المشاركة الوجدانية التي نجدها في الأدب الأوربي والتي عبر عنها الشاعر الفرنسي بول فاليري في قوله :

« انى أعرف هذه الطبيعة وتعرفنى ولم يبق لدى منها شيء مستور
فهي تخفق في كل نبضة من نبضات قلبي ... »

وقد عبر عبد الله بن المعتز عن هذه المشاركة بين الطبيعة والشاعر في قصيدة له عن أيلول أو عن الخريف بمعنى آخر ولكن مشاركة ابن المعتز للطبيعة لم تكن الا لنساقى الراح غداقاً وتعاطى كنوس الخمر دعاقاً ، ولم تكن الا مشاركة محدودة مختصرة .

طاب شرب النـسـجـوح في أيلول
برد الظل في الضحى والاصيل
وخبت جمرة الهواجر عـنـا
واسترحنا من النهار الطويل
وخرجنا من السـموم ليرد
ونسيم وطيب ظل ظليل
وشمال تبشر الأرض بالقطر
كذيل الفـلـالة المـبـاـول
فكانما تزداد قربا الى الجنة
في كل شارق واصيل
ووجوه البقاع تنتظر الغيث
انتظار المحب رد الرسول

وان من يقرأ هذه الابيات يجد فيها مشاركة بين الشاعر والطبيعة ، ولكنه يجد بعد هذا كله وصفا للطبيعة والخريف ولا تطلعنا هذه الابيات على نفسية الشاعر اطلاعا ينفع غلتنا ويروى صدانا ، ونحن يمكن أن نعرف ذلك كل المعرفة اذا قارناها بقصيدة للشاعر الانجليزي (تومسون) في الخريف ، ذلك الشاعر الذي جمع قصائده في الشتاء والربيع والصيف والخريف في مجموعة بعنوان الفصول على النحو الذي فعله الشاعر الفرنسي سان لامبير Saint Lambert . ويكفى أن أذكر نبذة من قصيدة لامارتين في الخريف لتعرف الفرق بين الشعارين :

سلام أيتها الغابة المتوجة ببقايا الحضرة ...
 وبأيتها الأوراق المصفرة فوق الأعشاب المنثورة ...
 سلام أيتها الأيام الجميلة الأخيرة فبعدك أحزان الطبيعة
 لأنك توافقين حزني وتسرين نظري ...
 أجل اني في أيام الخريف هذه حيث الطبيعة تحتضر
 أجد الجمال الذي أنشده في نظراتها المتحجبة ...
 فهي وداع الصديق وهي الابتسامة الأخيرة ...
 من شقاء سوف يفلقها الموت اغلاقاً أبدياً ...
 ان الوردة تسقط بعدما تعطي اريجها الهوا ...
 وهنا جثم في الشمس والحياة الوداع ...
 أما أنا فسأموت ، وروحي وقت الغناء ...
 سوف تردد صوتاً حزينا رقيق الايقاع ...

فالشاعر الفرنسي لامارتين يصور أثر الخريف في نفسه أكثر مما
 يصور أثر الخريف في عينه كالشاعر العربي ، ويجاري فكرة الحزن التي
 كانت مهيمنة على الأدب الرومانتيكي في فرنسا وانجلترا ، ويعبر عن
 ألمه وشجونه على العكس من الشاعر العربي الذي تسيطر على نفسه مشاهد
 الطبيعة كقول الصنوبري في الخريف :

نحن منه على تلقى شتاء يوجب القصف أو وداع مصيف
 في قميص من الزمان رقيق ورداء من الهوا خفيف
 يرعد الماء منه خرفاً اذا ما لمست يد النسيم الضعيف
 ولكن الخريف مع ذلك لم يكن داعياً الى شعر الوصف فحسب ،
 بل كان داعياً الى شعر النصح كذلك ، وقد اكتسب ذلك النصح بأسلوب
 طريف رقيق كقول الشاعر :

خذ بالتوتر في الخريف فانه نصديقها ومن الصديق يخاف
 يجري مع الايام جرى نفاقها مستوبل ونسيمه خطاف

ومهما يكن من شيء فاننا ينبغي أن نعترب بأن نظرة الشاعر العربي
 للطبيعة كانت نظرة مكانية أكثر مما كانت نظرة زمانية ، ولم يكن شعور
 الشاعر العربي بالزمان الا في خطوات قليلة تتناثر كالأزهار هنا
 وهناك .

المسرح المصرى والمسرح الانجليزى

يلتقيان في حركات تطورهما

ان المتتبع لتاريخ المسرح المصرى يجده قد مر بتطور عظيم منذ نشأته حتى العصر الحديث يشابه الى حد بعيد ما مر به المسرح الانجليزى الا ان نهضته عندنا قد بدأت قليلة ضعيفة منذ الحملة الفرنسية على مصر حتى نظم الخديو اسماعيل علاقاته بالغرب ، فارسل البعث العلمية التى تثقفت بثقافات الغرب المختلفة، وتطبعت بطابع الحضارة المختلفة ومتابعة العلوم والفنون كالسرح والسينما والنحت والتصوير ، ولم يكن لمصر قبل عهد اسماعيل عهد بالتمثيل الا ما كان من ملاعب فى الاسواق والمواسم والحفلات الخاصة حتى شيد الخديو اسماعيل دار الاوبرا الخديوية بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس الذى حضره كما نعلم ملوك العالم وأمراؤه وكبار رجاله فاحب الخديو اسماعيل أن يرفه عنهم وأن يستقبلهم احسن استقبال .

وكانت اول رواية اخرجت على مسرح الاوبرا رواية (عبادة) من عمل الموسيقي الايطالى الشهير جوزيف فردى ، اشترك فى وضع الرواية وتصوير مناظرها «مارييت» نفسه ، ومثلت فى مساء ٢٤ من ديسمبر سنة ١٨٧١ بحضور كبار القوم واشترك بعض الجنود فى الظهور على المسرح

وهذه الرواية من الروايات التى طالما مثلها المرحوم الشيخ سلامة حجازى بعد أن ترجمها الى العربية الأديب المعروف سليم نقاش ، وقد اشتركت السيدة منيرة المهدية فى بعض الروايات التى كانت تمثل فى ذلك الوقت فى بعض المسارح المحلية وان كان اشترك المرأة المصرية فى التمثيل محظورا ومقصورا على المرأة الاسرائيلية أو المسيحية السورية .

وهكذا نشأ التمثيل فى مصر ضعيفا فاترا حتى جاء شوقي فالف مسرحياته الرائعة التى كانت - برغم ما يوجه اليها من نقد فنى فى بعض الاحيان من ناحية المسرح - حجرا راسخا فى بناء نهضة المسرح المصرى وتشجيع الكتاب على الخوض فى غمار المسرح والاتيان بشمار قرأههم والابداع فى حبك المسرحيات ولا نزال حتى الآن نتقدم فى سبيل النهضة المسرحية ، ونرجو ان يستمر تقدمنا حتى نقف تيار السينما الجارف ونجعل الناس يؤمنون برسالة المسرح الخالدة .

وقد مر المسرح الانجليزى كذلك بتطور كبير حتى وصل الى حالته الراهنة، فقد شهد المسرح الانجليزى فى منشئه روايات الغلام والافانز

وكانت تدور حول أشخاص الكتاب المقدس وأحداثه كما شهد روايات المعجزات التي تعرض لما لاقاه القديسون الصالحون في حياتهم من آلام وأوصاب .

وشهد المسرح في القرن الخامس عشر المسرحية الخلقية . وما جاء العهد الاليزابثي حتى كان المسرح يقام في جنوب التيمز حيث يزدحم بالعو الفقرا والجمعة والجوز ، وكان المسرح نفسه بدائيا يختلف كل الاختلاف عن مظهره في العصر الحديث في بنائه وتقسيمه .

وقد مر المسرح الانجليزي بأزمات عنيفة كل العنق في فترات مختلفة من حياته الفنية ، فأغلق فترة طويلة من الزمان حتى أتبع له أن يفتح بعد ذلك وأن يدخل عليه كثير من التحسينات سواء كانت في بنائه وتقسيمه أو كانت في رواياته التي تعرض على خشبته وقد تعددت وتنوعت المسرحيات وأصبحت ذات غرض اجتماعي أو غرض سياسي أو غاية عالية .

ونفضة المسرح الانجليزي في العصر الحديث انما كانت بفضل اعلام كبار حاولوا أن يقتفوا أثر شكسبير ودريدن واضرابهما مثل أوسكار وايلد وبرناردشو ، وسومرست موم وجالزورثي الذي يعد من تلاميذ الكاتب المسرحي المعروف إبسن .

ان من سنة الحياة التطور ، ولقد تطور المسرح الانجليزي كما تطور المسرح المصري حتى وصل الى حالته الراهنة .

وانا لنرجو أن يستمر هذا التطور ، فلا نرجع بحركة الاحياء الى الوراء ، كما نحب أن يقتبس المسرح من المسرح الانجليزي بل من المسرح الغربي بوجه عام محاسنه وفضائله حتى يكون مسرحا عالميا بأدق معاني هذه الكلمة .

كشف مسرحى عظيم

عن المسرح فى الشرق

اتفق نقاد المسرح أو كادوا على أن العرب لم يعرفوا المسرح أو المسرحيات فى عصورهم القديمة وأنهم تقدموا بعض التقدم فى عصورهم الحديثة ، فعرفوا المسرح والمسرحيات ، وكانت معرفتهم بها قبل شوقي بآمد وجيز ، ولكن أحدا منهم لم يحاول أن يبحث أو يستقصى نصيب هذا القول من الصحة أو الخطأ حتى قام أحد المستشرقين - ولا أقول أحد العرب المعنيين بشئون المسرح - فقدم للعالم تمثيليات عربية مثلت فى القرون الوسطى وضعها محمد بن دائيال الموصلى أيام الظاهر بيبرس فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وهذا المستشرق هو البروفسور باول كاوى وقد نقل بعض هذه المسرحيات عن أصلها العربى ، وقد فقد البعض الآخر ، فترجمها عن النص الانجليزى الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الحسينى ، وعرف بهذه التمثيليات جميعا الدكتور قواد حسنين

وهذا العمل ان دل على شيء فانما يدل على كشف مسرحى عظيم وكسب تاريخى كبير ، وقد ذكر المستشرق الكبير جورج جاكوب محتويات هذه التمثيليات فى كتابه تاريخ مسرح تمثيل الظل وقال : ان ابن دائيال اعظم شاعر ممتع فى العربية ، وقد نبه جاكوب الى هذه المسرحيات البروفسور مركوس جوزيف مولر فوجد هذه المسرحيات فى مكتبة « سكوربال » الاسبانية وقد فهم جاكوب نصوصها بمعاونة نولده وجولديزهر ودى خوبى

وأول هذه المسرحيات مسرحية (طيف الخيال) وهى تعطينا صورة رائعة للحالة السياسية والثقافية فى مصر فى عهد بيبرس ، والذي نلاحظه عليها أنها ليست مسرحية متناسقة الأجزاء متناسبة الأطراف ، ولكنها تصور الحياة تصويرا فريدا ، أما الفاظ هذه المسرحية فهى رائعة ومعانيها رقيقة وشخصياتها متداولة طريفة « كالأمر وصال » الذى زها على الناس بأعماله العظيمة وامجاده الكبيرة وقد رغب فى الزواج والمعيشة عيشة الاستقامة والهناء ، فطلب من الخاطبة اختيار نصف دينه وانتقاء شريكة حياته

أما ثانية هذه المسرحيات فهى مسرحية « عجيب وغريب » وتصور الحياة المصرية فى الأسواق تصويرا رائعا رائقا ، وتبين المهن المختلفة والصنائع المتعددة وتظهر فيها ضروب مختلفة الألوان من الأخلاق والطباع ، كفى صانع المباح ، وخویش الحساوى ، ومقدام الآسى ، وعجيب الواعظ ، ومبارك الفيال الذى يخرج على المسرح قائلا :

انظر الى الفيل في تهويل خلقته
واعجب لاتقان صنع الخالق البارئ
كعبة بنيت عمدا على عمد
وقبرت ظاهرا بالزفت والقار
تخال من ورق القلقاس قد نبتت
اذناه حين تراه عاديا « سارى »

وان من يسمع هذ الايات يرى انها رقيقة هزلية ، ويستطيع ان
يستشف جو المسرحية فهو يدعو الى المرح والفكاهة .

اما المسرحية الثالثة فهي « المتيم » وهي تتعلق بعشق المتيم
للتييم وفيها تحريش الديوك على الكفاح والثيران بقصد الفرجة
والنسلية ، ونرى في هذه المسرحية الجزار « تعاشير » والكبابجي
« أبو جعران » ، ونرى الوليمة والخمر والعود والند والبخور ونرى
المتيم في آخر المسرحية يطلب التوبة من الهوى ، فيلتفت الى القبرة
ويعتو حيث يفسل ويدفن

واننا نسمع في هذه المسرحية كثيرا من نفحات العشق والهوى
كهذه التي نسمعها في مسرحيات مجنون ليلى وقيس لبنى وجميل بثينة
فها هو ذا ابن دانيال يعرض لشخص يبعه الهوى فيقول :

اهل القرام تجمعوا وتوسلوا وتضرعوا
موتوا تعيسوا في الهوى وتمزقوا وتقطعوا
وخذوا حديث متيم عمن سواه اودعوا

ولست اكتب هذا الفصل لأحدث عن القيمة الفنية في هذه
التمثيلات او عن قوة الحوار وسلاسته او عن جمال العرض ودقته ، وانما
اكتب هذا الفصل لأبين قيمة اكتشاف هذه المسرحيات من الوجهة
التاريخية في دراسة فن المسرح عند العرب فليس من شك في أنها هدت
الى تراث كان مجهولا والى حلقة كانت مفقودة في دراسة المسرح .

وان كانت هناك كلمة يمكن ان يقال في ختام هذا الفصل فهي اننا
ينبغي ان نبحث عن اصول المسرح عند العرب ، ولا نكتفى بهذه الأحكام
النهائية التي يظن كثير من كتاب المسرح أنهم وصلوا اليها ، واننا ينبغي
ان نجد في بحثنا ونمعن في دراستنا ، والا نقف مكتوفى الأيدي مشلولي
الحركة منتظرين أحد المستشرقين كالبروفسور باول كاوى ليقدّم الينا
هذه المسرحيات الثلاث التي ألغت في القرن الثالث عشر الميلادى . !

أمير الشعراء الانجليزى فى الأدب العربى الحديث

تصدر جامعة الدول العربية ترجمات جديدة لمسرحيات شكسبير ، ولستنا فى هذا المقام نحب أن نتعرض لهذا المشروع من حيث قيمته وخطره ، فهذا قول قد فات أوانه ، وأقدم المترجمون على الترجمة منذ سنوات ، وها هم أولاء قد انتهوا منها ، وها هو ذا الأستاذ عباس محمود العقاد قد انتهى من تأليف كتابه « التعريف بشكسبير » الذى يعد بمثابة التمهيد لسلسلة الترجمات التى ستطبع وقد صدرت من المجموعة عدة كتب .

لستنا نريد أن نتعرض لهذا كله ، إنما نحب أن نقول : إن فضل شكسبير ليس وفقا على الأدب الانجليزى ، إنما تعداه الى الآداب العالمية جميعا ، ومنها أدبنا العربى الحديث ، وأثر شكسبير على السريية يمكن أن نقسمه قسمين : القسم الأول متصل بالنثر وهو الترجمة ، والقسم الآخر يتصل بآثاره فى الشعر العربى .

ومسرحيات شكسبير لا يجد فيها المتعة القارىء الانجليزى وحده ، بل يجد فيها هذه المتعة كل قارىء فى أى قطر أو مصر ، لأنه يجد فى شخصياتها أناسا يشعرون مثل شعوره ويتحركون فى مثل اتجاهاته فى التفكير ، فهى موضوعات إنسانية تمس النفس الإنسانية مسارا رفيقا رشيقا .

وقامت جهود أدبية كبيرة منذ مطلع النهضة الأدبية الحديثة لترجمة هذه المسرحيات .

ومنذ نصف قرن تقريبا عنى الأستاذ إبراهيم زكى ، من كبار موظفى وزارة المالية بهذه الترجمة فأصدر كتابا فى ١٢٠ صفحة صغيرة الحجم لخص فيها بعض مسرحيات شكسبير ، ولعله نقل هذه الترجمة عن كتاب « شارل ، ومارى لام » الذى تقوم دار الهلال بشره ، ونشرت منه حتى الآن جزأين يضمنان مسرحيات : الزوبعة وحلم ليلة صيف وقصة الشتاء وضجة بلا طائل و « كيفما تريد » وسيدان من فيرونا وتاجر البندقية وترويض التمرة وصاع بصاع واللييلة الثانية عشرة ومناحف أثينا وهاملت وعطيل وبركليس .

وبرغم أن اسماعيل عبد المنعم كان موجزا فى ترجمته لبعض مسرحيات شكسبير أكثر من ترجمة دار الهلال فقد وجد فى ترجمته المتعطشون الى الثقافة الاجنبية شيئا يزيدون به ثقافتهم ، ويلبسون به تفكيرهم ، ولا سيما أنهم كانوا يتوقون الى أبواب جديدة من المعرفة بدلا

من هذه الأساليب الأدبية العقيمة ، التي سيطرت على الفكر الغربي
أن ذاك ، وبدلاً من هذه الموضوعات السقيمة التي لا تساير الحياة ،
ولا تجارى الزمن ، وأسرف فيها الأدباء والمثادبون في هذه الفترة .

لذلك كان من الجميل أن يقوم اسماعيل عبد المنعم بهذه الترجمة ،
التي صدرها بمقدمة وصف فيها هذه الروايات فقال : « وقد اخترنا
من رواياته ذلك النوع المعروف بالماساة لأنه برع فيه وأبدع أيما أبداع
وكانه غاص في سويداء القلوب ، ووقف على أخلاق الناس وأظهر
ما تكنه الضمائر وباح بما هو في طي الكتمان ، فسطرها من انفس
العاشقين وعبرات البائسين ، وأرانا فيها أشكالا متضاربة من الطبائع
وصورا شتى من العادات ، فهدب النفوس وقوم الأخلاق ونل بها عروش
الظلم وقوض دعائم الاستبداد » .

وترجم طانيوس عبده رواية هملت . وكان طانيوس شاعرا متأثرا
متفنا في كلتا الصناعتين جيد الملمة لطيف التخيل عصري المعنى
مستعذب اللفظ ، أكسبته رواياته شهرة بعيدة عند قراء العربية ،
وانزله شعره منزلة كريمة بين أوائل الشعراء ، وأمتاز سليمان أفندى
القرداحي والشيخ سلامة حجازي ومحمد بهجت بتمثيل دور هملت .

وكانت مسرحية « عطيل » أول رواية مثلت لشكسبير على المسارح
العربية في مصر ، وترجمت بإشارة سليمان أفندى القرداحي ومثل فيها
سليمان أفندى دور البطل ، وقام بهذا الدور بعد ذلك أحمد فهم
ومحمد بهجت ، كما قام جوق إسكندر فرح بتمثيل هذه الماساة ، فأحرز
في تمثيلها نجاحا منقطع النظير .

وترجم محمد عفت القاضي في المحاكم الأهلية مسرحية « ماكبث »
وكان يمتاز إلى جانب عقليته القضائية الممتازة بذاق أدبي رقيق وحس
فنى مرهف . فأقبل على ترجمة « ماكبث » بشغف ونهم ، وكان عفت
يحسن قرض الشعر ، وله فيه قصائد جيدة فنظم ماكبث بالشعر ،
وحاول أن يحافظ على روح النص محافظة دقيقة ، والملاحظ في ترجمة
محمد عفت أنه لم يحذف منها شيئا إلا إشارات بسيطة جدا كان لابد
من حذفها في النص العربي ، لأنها لا تناسب ذوق القارئ في البلاد
العربية .

ولما عاد الممثل الكبير جورج أبيض من الخارج وتشبع بروح
المرح الأوربي وأراد أن يقوم بنهضة مسرحية في مصر ، طلب من
الأستاذ خليل مطران أن يقوم بترجمة بعض روائع شكسبير . وفعل
أقدم مطران على الترجمة وقدم للمسرح المصري « ماكبث » وهملت
وعطيل وتاجر البندقية والعاصفة وريشارد الثالث والملك لير ويوليوس
قيصر .

وجدير بالذكر أن « مطران » كان يترجم عن الفرنسية ، ولذلك
وجدنا بعض الاختلاف عن النص الانجليزي الاصل ٠٠٠ كما أن
« مطران » حذف كثيرا من المشاهد والتفاصيل في مسرحياته : ومثال

ذلك انه ادمج فصول هملت الخمسة في اربعة وحذف مشهد الجنائيات في الفصل الاول من مسرحية « ماكبت » ، وبرغم حذف بعض المشاهد وصل الى ذروة الادب الصافي الرفيع ، ولولا ان « مطران » ترجم عن الفرنسية لبلغت ترجمته اعلى درجات الكمال الفنى .

ومن الذين عكفوا على ترجمة مسرحيات شكسبير كذلك ، الأستاذ عوض محمد والأستاذ عوض ابراهيم والأستاذ ابراهيم رمزي والأستاذ محمد حمدى ، وترجم الأستاذ سامى الجريدينى المحامى روايتى يوليوس قيصر وهملت وصدر اولاهما بمقدمة جاء فيها :

« ولم اكن افكر قط فى الاقدام على ترجمة هذه الرواية لو لم يكن لى من « عطيل » اكبر مشجع ، ليس لانى ممن يجرون فى مضمار خليل مطران ، ولكن للتشبهه بالكرام ، فخليل مطران على ما اعتقد اقدر عربى يستطيع ترجمة شكسبير ولعله اول من ترجمه ترجمة حقيقية .

ولم يكن اثر شكسبير مقصورا على الترجمة فحسب ، انما شاع فى شعر الشعراء ، واخيلتهم وتصويرهم الفنى بطريق مباشر وغير مباشر ، ولولا ان « شوقى » قد اطلع على انتاج شكسبير المسرحى وتشبع بفنه ما اقدم على تأليف مسرحياته الشعرية ، وما اخرج لنا الروائع من شعره مثل مجنون ليلى ومصرع كليوبترة وغنترة وقمبيز وأميرة الاندلس ، وغيرها ، بل انى لاذهب الى ابعد من هذا فأقول : ان « شوقى » فى « مصرع كليوبترة » هذا حذو شكسبير فى فنه المسرحى فى بعض احداث الرواية ، وفى بعض المشاهد المسرحية وحاول ان ينسج انتاجه بالخصب والتشعب مثل شكسبير .

وقد نظم شوقى قصيدة من عيون شعره فى ذكرى شكسبير . والقصيدة همزية ، استهلها بالمجد الذى نالته انجلترا فى البحار وفوق الجزيرة واخذ يزهو بنظام الانجليز الدستورى ومشاعرهم بشكسبير . فما انجبت انجلترا شاعرا مثله ، وما تغنى طائر بأعذب من شعره . وبه وصل مجد الجزيرة الى النجوم الزهر فى السماء . اذ كشف الشاعر عن سرائر النفوس وكوامن القلوب ، وشعره ملهم يصدر عن نفس موحية ، ومعانيه ابداع عذارى ، ومسرحياته ككتاب الدهر فيها شتى العبر ، وفيها الاضحاك والابكاء ، وفيها الافراح والاتراح ، وفيها الآهات والبسمات تأمله فى قوله :

ما انجبت مثل « شكسبير » حاضرة
ولا نمت من كريم الطير غناء
نالت به وحده انجلترا شرفا
ما لم تنل بالنجوم الكثر جوازا
لم تكشف الشمس لولاه ولا بليت
لها سرائر لا تحصى واهواء
شعر من النسيق الاعلى يؤيده
من جانب الله الهام وابعاء

وكل معنى كعيسى في محاسنه
جاءت به من بنات الشعر عذراء
أو قصة ككتاب الدهر جامعة
كلاهما فيه أضحاك وابكاء

وقد ختم شوقي قصيدته بالدفاع عن شكبير ، اذ رماه بعض
النقاد بأنه صور الانسان بصورة ذئب متعطش الى الدماء ، واجرى
انهار الدم في مسرحياته ، وملأها بحوادث الاغتيال والقتل . فقال : ان
هذه الصور ليست الا صورا مستمدة من الحياة ومنزوعة من الواقع ،
فانظروا الى العالم كيف تتقاتل الأمم وتتطاحن ، وكيف مشى لؤم الحياة
في الناس كما مشى آدم فيها وحواء .

ودعا شكبير الى ان ينهض من رقده حتى يبسط بقلمه دولة
انظلم ، ويحطم صرح الطفيلان في أركان العالم ، وقد سطر لهؤلاء الباغين
صفحة سوداء هي العزاء الوحيد والبلسم الشافي الذي يخفف الآلام ،
ويمسح اتراح البائسين في خضم الحياة الرحيب .

ولم يكن اثر شكبير مقصورا على شوقي فحسب ، انما امتد الى
شعر حافظ ، ولكننا قبل ان نتعرض لهذا الأثر على شعر حافظ نحب
ان نعرض لآثر شكبير على شاعر آخر من الشعراء المجيدين ، وهو
الشاعر محمد الهراوي ، الذي نشر منذ سنوات قصيدة عن خنجر
« ماكيت » الذي رفعه للانتقام في مسرحيته الخالدة فقال :

أرى خنجرا يدلى الى بمقبض
أنصلا ترى عيناي أم أنا خائله ؟
فياها النصل الذي لاح في الدجى
وقد حال دون اللمس لا اللمح حائله
ترى أنت نصل أم تخيل وأهم
به خبل الحمى فخابت دلائله
نعم أنت في عيني تمثلت مثلما
يجرد نصل هذبته صياقله
وقد جئت تهديني طريقا شرعتها
وتشبه نصل في الذي أنا فاعله
أكذب عيني أم اصدق ما رأت
وهل صح حتى أو دهم الحس خابله
والا فما بالي أراك وقد بدا
عليك كما لم يبد من قبل سائله

أما شاعر النيل ، حافظ ابراهيم ، فصور هذا الخنجر في إحدى
قصائده الرائعة المنشورة في ديوانه ، صوره وهو يتراءى أمام بصره ،
بعد أن نزع من غمده في الليل البهيم ، فأخذ يتألق كاللهب اللامع ثم
حمله والرهبة تملأ جوانحه ليجهز على ضيفه الملك « دنكان » ليعتلى
عرشه ويحتفظ بالملك لنفسه ويخضع الرعية لامرته .

صور حافظ خنجر « ماكيت » تصويرا ادبيا خلّاقا ، رقى
بقصيدته الى مصاف الشعر الرفيع ، فهي حاوة اللفظ ، جيدة الصوغ ،
رائعة الأسلوب ، واستخدم فيها حافظ كل ملكاته الفنية ليسمو بها الى
فن شكبير الأسلوبى !

غير ان شكبير يمتاز على حافظ ابراهيم بالناحية النفسية في
التصوير ، اذ جاءت قصيدته مفعمة بالعواطف ، مصورة للانفعالات
النفسانية التي تساور بطل المسرحية . وقد حاول حافظ ابراهيم ان
يستخدم هذه الاداء الفنية فى شعره ما استطاع الى ذلك سبيلا فوفق
حينما وفشل احيانا ، وقد جاء فى قصيدته :

كانى ارى فى الليل نصلا مجردا	يطير بكننا صفحتيه شرار
تقلبه للعين كف خفية	ففيه خفوق تارة وقرار
يمائل نصلى فى صفاء فرنده	ويحكيه منه رونق وغرار
أراه فتدنينى اليه شراستى	فينأى وفى نفسى اليه اوار

امارة الشعر

بين شوقي ودريدن

أمير الشعر المصري هو أحمد شوقي بلا منازع ، أما أمير الشعر الإنجليزي فقد يظن ظان أنه وليم شكسبير ، الذي ترجم بشعره الحادي ، وتغنى بذكره الركبان ولكنه في الواقع ليس وليم شكسبير ، بل هو جون دريدن الذي منحه الملك شارل الثاني لقب « أمير الشعراء » .

وانا لا أذكر « شوقي » في الأدب المصري إلا أذكر دريدن في الأدب الإنجليزي ، فقد تربى شوقي في أكناف القصر الملكي كما تربى دريدن ، وقال عن نفسه : أن جدته أدخلته على الخديو اسماعيل وهو في الثالثة من عمره ، وكان بصره لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه ، فطلب الخديو بكرة من الذهب ، ثم نشرها على البساط عند قدميه ، فوقع على الذهب يشتغل بجمعه واللعب به ، وقال الخديو لجدته : اصنعي معه مثل هذا ، فانه لا يلبث أن يعتاد النظر الى الأرض ، فقالت : هذا دواء لا يخرج الا من صيدليتك يا مولاي ، قال : جيئي الى به متى شئت !

وهكذا تربى شوقي في أكناف القصر ، ولد بباب اسماعيل ، واسترعت مواهبه الشعرية « الخديو توفيق » فأوفده الى أوروبا ثم اتصل بعدئذ بالقصر .

وهكذا كان دريدن : انحدر من أسرة عريقة ، ومدح وهجا من أجل الملكية ونظم قصيدتي ابسالوم واكتيوفيل Absalom and Achtiophel التي تعد من أروع قصائد الهجاء في الأدب الإنجليزي ، ضد شافسبري الذي اتهم بالخيانة العظمى للملكية ، وأنتج كثيرا من المسرحيات التي نالت الرضا السامي كفتح غرناطة التي نال عليها لقب أمير الشعراء .

وقد كتب شوقي للمسرح كما كتب دريدن ، وألف الأول « مصرع كليوبترة » وألف الأخير « في سبيل الحب » وهاتان المسرحيتان تمثلان حياة كليوبترة ، الأولى تبرز ناحية المصرع والمأساة ، والأخيرة تبرز ناحية الحب التي تطفئ على كل شيء حتى على الواجب عند بعض الناس .

كان شوقي أميرا للشعراء ، وكان كما يقول خليل مطران « لا يكدر فكره ولا يجهد في معنى ولا مبني » وقال عنه عبد العزيز البشري : « انه كان من أمهر الصاغة في هذا الزمان » ، ولكنه في الواقع علا وهيط ، وأبدع وأسف ، وأحيانا كان من هؤلاء الشعراء الذين يقول عنهم شللي : « ليس عليهم الا أن يهزوا بجذع الشجرة فتساقط عليهم ثمارا جنية . »

ويقلب ان تنشأ الأشعار في اذهانهم من تلقاء ذاتها ، ولا دخل لارادتهم فيها ، بل برغم ارادتهم .

اما دريدن فقد كان اميرا للشعراء ، وزعيما للمسرح بلا منازع . ولد سنة ١٦٣١ ، وتعلم في مدرسة وستمنستر ، ويقول بعض النقاد : ان دريدن في سنه الاولى قبل عهد الاصلاح لم يكن يملك اذنا موسيقية ، ولا ذوقا شعريا لقرض الشعر ، ولعل هذا يرجع الى انه قد بدأ شعره متأثرا بالمدرسة الميتافيزيقية التي كان على رأسها الشاعر جون دن John Donne ، ويمتاز شعره بالفموض والابهام والمفارقات ، والاقتصاد في استعمال الكلمات ، وكان من رجال هذه المدرسة جورج هربرت ورثارد كراشو Richard Crashaw ، ولكن دريدن لم يلبث ان جثع عن هذه المدرسة وهذا المذهب الشعري .

وقد ساعدت عودة الملكية دريدن على الانتاج الخصب ، فالف عدة مسرحيات - حين امرت الملكة بفتح ابواب المسارح بعد اغلاقها - تعد من روائع المسرح الانجليزي ، ولقد تأثر دريدن بين جونسون أحد معاصري شكسبير ، كما تأثر بشكسبير ، وقال : « انى أعجب بين جونسون ولكنى أحب شكسبير ... »

وقد برع دريدن في تأليف المأساة البطولية Heroic Play كما تابع تأليفه في ملاحى انسخيرية Comedy of humour ومسرحيات دريدن متنوعة : ففيها مأساة البطولة ، وفيها ملهاة السخرية ، وفيها الجامعة بين المأساة والملهاة .

وملاحى دريدن قليلة ، ولكن اقوى مناصر لها وهو سكوت يقول : انها « ثقيلة » غير ان هازلت ، وهو أحد المدافعين عن ملاحى عهد الاصلاح قد وجد فيها بعض وجوه الحسن ولكنه في شيء من السرف أو القتامة ! ولقد سما بدريدن كثير من النقاد ، فذكر سير والتر راليه مبلغ نبوغه في التهكم السياسى الذى جارى مختلف العصور . وقال كونجرىف : « انى اجازف فاقول : انه لم يكتب احد في لغتنا الانجليزية في كثرة دريدن وتنوع فن دريدن ، ووصل الى جودته . ويقول ايضا : ان شعره يحوى بين ثناياه كثيرا من فنون الجمال بل لئن لم يكن له سوى اغنياته او مقدماته لكفى ان يند بذلك على بنى جنسه .

ويقول سانتسبرى : ان دريدن قد بلغ ذروة الدراما ، او كما يقول الفرنسيون La tête dramatique في مسرحيات « في سبيل الحب » و « الزوج والبدع وأورنج زيب » .

هذا عن دريدن أمير الشعراء الانجليزى ، اما شوقي أمير الشعراء المصرى فقد كتب للمسرح « مصرع كليوبتر » و « مجنون ليلى » ، و « أميرة الاندلس » ، وغير ذلك ، فأضاف الى الشعر فتا مسرحيا جديدا فاستحق لقب أمير الشعراء بلا مرأه .

بين لورد بيرون وعمر بن أبي ربيعة

يجد كثير من النقاد مشابه شتى بين الشاعر العربي المعروف عمر ابن أبي ربيعة والشاعر الانجليزي الذائع الصيت اللورد بيرون ، وترجع تلك المشابه الى اسباب عدة وبواعث مختلفة .

فعمر بن أبي ربيعة انحدر من اصل طيب ومنبت كريم وعاش بين عامي ٢٣ ، ٩٣ هـ في الحجاز ، وكلنا يعرف البيئة الحجازية في ذلك الوقت ويعرف الشباب الحجازيين من أبناء الخلفاء والامراء ووجوه القوم الذين عاشوا في بسطة من العيش وسعة من الرزق .

وقد عكف الشباب على قلوبهم يمتعونها غاية الامتاع ، فأيامهم قنص وطرود واقامة في البادية او لهو ومرح ومزاح في الحضر او اجتماع حول جدول من الجداول المنسابة او غدير من الفدران الصافية ، او في ظل دوحة من الادواح الفارحة او مجرى ينبوع من الينابيع السائقة ، ولياليهم انس وبشر وغناء وطرب .

كان عمر بن أبي ربيعة شابا من أولئك الشباب السراة ، فارح الطول غصن الازهار ، مرح الشباب ، ظاهر الجمال ، وكان يطوف بالكعبة ينسب بالفواني ويترنم بالأغاني ويتشبيب بالجوازي ، وترقب مواسم الحج ليتفزل بالرائحات والغاديات .

وكذلك كان لورد بيرون فهو ينحدر من اصل طيب ومنبت كريم عاش بين عامي ١٧٨٨ م ، ١٨٢٤ م ونشأ نبلا من سلالة اللوردات ، ورت اللوردية وهو لم يزل طفلا ، ثم أضاف الى مجد الحسب طلعة جميلة لولا ما كان فيه من طلع يسير ، وعرف الحب وهو في الثامنة من عمره ، فانه لما كان طالبا في المدرسة الثانوية احب فتاة تكبره وتزوجت سواء ، فلم ينقطع تفكيره فيها وأخذ ينشد فيها الشعر .

وعاش بيرون متمتعا بحقوق النبالة الا انه لم يرعها حق الرعاية، وانطلق متحررا من الاوضاع الاجتماعية ، فطرد بقوة الرأي العام من انجلترا . وهام في أوروبا ، وتجرع من كل كأس قطرة ، وعاش في اليونان وبين الجنود الاتراك ، وقطع البسفور سباحة ، وتحمس لاهل اليونان الذين يحاربون الاتراك في سبيل حريتهم ، وقصد الى بلادهم يريد القتال في صفوفهم ، فنالت منه حمى الملاريا هناك ومات في أبريل عام ١٨٢٤ .

وكان لورد بيرون على حد تعبير ماتيوارنولد أقوى قوة دافعة في الادب الانجليزي ، نظم الروائع من الشعر والبدائع من الملاحم مثل عرس ابيدوس وتشايلد هارولد وما نفرد وغيرها ، وكان الى جانب انتاجه الادبي الممتاز يمتاز بطلاقة وجهه وبشاشة محياه وأطلقت عليه

الناقدة الفرنسية المعروفة مدام دي سثيل « نرون الحب » كان يغزو المجتمعات بقامته المديدة فاشتدت الغيرة بين النساء على حبه ، ودبت الشحناء وعمت البغضاء ، وتحطمت نفوس ، وتقطعت أنفاس .

وهو في ذلك يشبه الشاعر عمر بن أبي ربيعة ، الذي كان يحب المغامرة والمخاطرة ، فلم يكن الرجل الذي يقف ويصف ويحوم ولا يرد كما يقول الزبير بن البكار إنما كان رجلاً بليغ القول بالغ العمل ، تارة ينسب بزئيب وتارة ينسب بهند وحيناً يتشبه بالرباب وحيناً بالثريا وغير ذلك من الأسماء .

فقال في الثريا :

قال لي صاحبي ليعلم ما بي	أحب القبول أخت الرباب ؟
قلت وجدى بها كوجدك بالعد	ب إذا منعت طيب الشراب
من رسولى الى الثريا فانى	ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

وقال في هند :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد	وشفت أنفسنا مما نجد
وأشبت مرة واحدة	أنما العاجز من لا يستبد

وقال في عيلة :

أحب لحب عيلة كل صهر	علمت به لعيلة أو صديق
ولولا أن تعفنى قريشى	وقول الناصح الأدنى الشفيق
لقلت إذا التقيت قبلينى	ولو كنا على ظهر الطريق

وحدث قدامة بن موسى قال : خرجت بأختي زئيب الى العمرة ، فلما كنا نشرف على عشر ليال من مكة لقيني عمر بن أبي ربيعة على فرس ، فلم على فقلت له : الى أين أراك متوجها يا أبا الخطاب ؟ فقال : ذكرت لي امرأة من قومي برزة الجمال ، فأردت الحديث معها ، ثم أخذ يصفها لي ويصف مكانها ، فقلت هل علمت أنها أختي ؟ فقال : لا واستحيا وثنى عنق فرسه راجعاً الى مكة ! ...

وبينما عمر بن أبي ربيعة منصرف من المزدلفة يريد متى اذ ابصر بامرأة في رحال ففتن بها وسمع عجوزاً تناديها : يا نوار استتري لا يفضحك ابن أبي ربيعة ، فاتبعها عمر وقد شغلت قلبه حتى نزلت بمعنى في مضرب قد ضرب لها فنزل الى جنب المضرب ، ولم يزل يتلطف حتى جلس معها وحادثها ، وإذا هي أحسن الناس وجهاً ومنطقاً فزاد ذلك من إعجاب عمر بها ، ثم أراد معاودتها ، فتعذر ذلك عليه وكان ذلك آخر عهده بها ، فقال فيها :

علق النوار قوادح جهلا وصبا فلم تترك له عقلا

الى آخر الأبيات .

وكذلك كان لورد بيرون يتفزل بالنساء مثل ماري شوارت وماري باركر وسارة صوفيا وكارولين لامب . ولعل انسى امرأة وقعت في حب بيرون هي الليدي كارولين لامب التي احبته حبا ملك فزادها وقد اهدت له خنجرا مرصعا بالاحجار الكريمة فقدم اليها الخنجر وقال :
تفضلتي ... !

وكما كان عمر بن ابي ربيعة جريئا في معاملته للنساء كان لورد بيرون ، وقد تزوج عام ١٨١٥ وهو في السابعة والعشرين من عمره فتاة كان ينتظر ان تراث ثروة طائلة ، ولكنه لم يقم على حياته الزوجية الا ريثما ولدت له بنته ، وبعدئذ ضاقت زوجته بالعيش معه وهجرته الى اهلها ، فلم يستطع بيرون الحياة في انجلترا فازمع الرحيل الى سويسرا حيث التقى بالشاعر الرومانتيكي شيللى في حرم الثلوج هناك .

وقد احب بيرون « اوجستا » فتاة وتزوجها وهي شابة ممثلة الجسم جميلة الوجه هيفاء القد حلوة التقاسيم ، ثم تبين بعد ازواج انها اخته من ابيه . ويقول اندريه موروا انه نقب عن المستندات التي خلفها بيرون فعثر على بعض الرسائل التي كتبها الى اصدقائه وابنت فيها حبه وغرامه باوجستا . وقد اثمر هذا الحب فتاة تدعى « ميدورا » .

وقد برع عمر بن ابي ربيعة في الشعر الفصلي ، غير انه برز في الاسلوب الشعري القصصي الطريف الذي يختلب الالباب اختلابا وينتزع الاعجاب انتزاعا . فانت مضطر حين تقرا قصيدة من قصائده ان تتابع القصيدة لتعرف نهاية قصته فيها ، بل انت مضطر حين تتصفح ديوانه ان تتلوه من اوله الى آخره ، لان عمر يمتاز بجاذبية عتيقة وقدرة على الاسر والاستهواء للقلوب والعقول جميعا .

وقد جاء في الاغاني ان عمر فاق نظراءه بسهولة الشعر وشدة الاسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر واستنطاق الربع وانطلاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وقال نصيب :

كان عمر اوصفنا لربات الجمال . وقال الفرزدق بعد سماع ابيات من شعره ؟ اتق الله يا ابا الخطاب يا الغزل الناس وقال جرير : انكم يا اهل المدينة يعجبكم النسيب وان انسب الناس المخزومي !

اما لورد بيرون فبرغم انه شاعر خرج على التقاليد - مدح النقاد انتاجه الادبي كالتاقد المعروف ماثيو ارنولد الذي عده اقوى قوة دافعة في الادب الانجليزي كما قلت آنفا . اسمعه وهو يقول لماري شوارت التي تزوجت جون ماسترز :

حسنا انك ترفلين في حلق السعادة

وكم اتمنى ان اذوق الهناء ...

فقلبي لا يزال يرنو الى الرفاهية معك كما داب على ذلك من قبل

بورك زوجك افسوف يستقى الالام ... كى يكون على مرأى من
حظه السعيد ولكن كم يحمل قلبى له من الشحاء ...

ان لم يحمل لك الحب الاكيد ...
وداعا يا مارى ... فحتم على الرحيل
فكلما كنت هائلة لا اعرف طعم الاشجان
ولكن قربك لا استطيع البقاء
خشية أن يهوى قلبى سريعا فى هواك !

وقد امتاز بيرون الى جانب هذه الناحية الفزلية الرفيعة بوصف
الطبيعة حتى اصبح زعيما من زعماء المدرسة الرومانتيكية فى الادب
الانجليزى ، تلك المدرسة التى قامت على ايدى بيرون وشلى وكيتس
وورد زورث وغيرهم من شعراء الرعيل الاول فى الادب الانجليزى ،
وامتازت هذه المدرسة بمسحة رائعة من الجمال فى وصف الطبيعة
وتصوير الخلجات الانسانية فى اسلوب عذب رقيق بديع .

ويقول الناقد و. ليك :

« ان انتصارات العباقره ، لاعظم شرفا واجل فخرا من تلك
الانتصارات التى تحرزها القوة الجسدية فى المواقع الطاحنة فوق الارض
والمعارك الضروس فوق اليم ! تتخرب من اثرها الممالك وتتدمر المدائن
وتزهق حياة انجند وتنساب الدماء ! ولكن انتصارات العباقره لا تسيل
فيها قطرة من الدماء ، وانما تشير كاثار ضخام فوق الخرافات والاساطير
وتهدى الامم الى الكمال ... وان بيرون من هؤلاء العباقره ... ياخذ
سمته الى كل طريق يصل الى شفاف القلوب فالقلوب تفرح عند قراءته
بالافراح ... والعيون تنهل عند تلاوته .. بالدموع .. فربما كان لبيرون
نقاد .. ولكن لم يكن له منافس ... ! »

وكان عمر بن ابي ربيعة يستمد كثيرا فى شعوره من وحى الاسلام
ويضمن شعره بعض معانى القرآن الكريم ، وقد لقيته صاحبه فى
المسجد ينظر الى نساء وفى يدها خلوق طيب من خلوق المسجد ،
فمسحت به ثوبه ومضت تضحك فقال :

ادخل الله رب موسى وعيسى	جنة الخلد من ملانى خلوقا
مسحته من كمها بقميصي	حين طافت بالبيت ما رفيقا
غضبت ان نظرت نحو نساء	ليس يعرفننى مرون الطريقا
وارى بينها وبين نساء	كنت اهذى بهن بونا سحيفا

وكذلك كان لورد بيرون يستمد بعض قصائده من الدين فكتب
ملحمة بعنوان « قابيل » استمد بعض اصولها من الدين المسيحى ، صور
فيها سخط قابيل على خطيئة ابيه آدم وعلى خروجه من الجنة فى جو
دينى رهيب تلعب فيه الارواح والشياطين ، كما كتب ترانيم عبرية عذبة
المعنى رائعة الخيال ، واستمد بعض صورها من الكتب المقدسة القديمة .

الليل

بين الشرق والغرب

كان صاحبي أديبا رائق الحس مرهف الشعور ، صادق الوجدان لا يفر شيئا جميلا من الشعر أو النثر حتى أراه يسعى الي ويحدثني عنه ، حديث المعجب المتذوق ، وكنا نتحدث عن بعض الكتب الأدبية التي ظهرت حديثا للقيف من الأدباء والشعراء وكنت أعجب بسعة اطلاعه ، ووفرة محصوله ، وتمكنه من الإحاطة بكل شيء جديد غير أني في هذه المرة وجدته ساكنا ساكنا ، وكنا نجلس في حديقة غناء في الهـواء الطلق والليل مرخ سدوله علينا غير أن التجوم كانت تلتصع في السماء ، وتثاق على صفحتها كالزهر الأبيض المنتور . ولم يلبث صاحبي أن خفض بصره وقال : هذا الليل الساحر الأخاذ بنجومه المتألقة وكواكبه المتلألئة في صفحة السماء ، وهذا القمر المختال على عرشه في أجواز الفضاء ، هذا الليل يسكونه الرهيب ، وصمته المهيـب ، وهمسه الرقيق كم ألهم الشعراء ، وكم سكب ذوب السحر في قلوب الفنانين ! قلت : أراك تتحدث بانفعال عن الليل ، تراك هل أمسيت محببا واقعبا ؟ فقال : كلا يا سيدي فانما الليل قد حظي في الآداب العالمية بأهمية كبيرة ومنزلة رفيعة ، وظل يلهم أرباب الشعر ورسـل الفن منذ الأزل الى وقتنا هذا ، وأكبر الظن بل أكبر اليقين ، ان كان اليقين يصغر ويكبر ، أنه سيظل يلهم أرباب الشعر ورسـل الفن حتى يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها ، وجدير بك أن تتحدث الى قرائك هذه المرة عن الليل فاني أجد في حديث الليل متعة ليست بعدها متعة وسعادة لا تعدلها سعادة . قلت :

كان الليل في الشعر الجاهلي ملهما للشعراء الذين كانوا يضربون في الصحراء ويهيمون في القفلة بين الرمال الصفر والسماء الزرقاء ، وقد ذكر امرؤ القيس الليل في معلقته كما ذكره طرفة بن العبد ولبيد وغيرهم من شعراء المعلقات ، وترجم الأعشى صناجة العرب بسجـره وفقتته ، ولكن الشاعر الجاهلي لم يجد غير « ليل كموج البحر أرخى سدوله عليه بأنواع الهموم ليبتلى » كما هو الحال عند امرئ القيس ، ولم يجد غير « ليل بطي الكواكب » كما هو الحال عند النابغة ولم يجد غير ليل قد مضى عطف منه فرجع كما هو الحال عند سويد بن كاهـل الشكري ، وغير ذلك من التشابيه والتصاویر التي يستمددها الشاعر الجاهلي من البيئة العربية والطبيعة الصحراوية وتساير نفسيته الحرة وتجاري خياله الطليق ، فالليل يتمطى بصلبه ويردف أعجـازا ، والليل لا يتقدم الا ليتأخر ، ونجومه كأنها دواب يسحبها الليل سحباً ويسوقها النهار سوقا ، كأن بها تناقلا من العرج وتباطؤا من الزمن ، فهي لا تتحرك الا بمقدار ، وهي لا تتقدم الا بمقدار .

الليل في العصر الاسلامي

ولما انقضى العصر الجاهلي وجاء العصر الاسلامي وجدنا العرب يتفننون في وصف الليل تفننا ، ويتنوعون في تصويره تنوعا ، فالليل قد انتصف عمره والليل قد استغرقنا شبابه ، والليل قد شاب رأسه ، وشمطت ذوائبه ، وتقوس ظهروه ، وتهدم عمره ، والليل تقوضت خيامه ، وخلع الأفق ثوب الدجى ، والليل قد تطرز قميصه بغرة الصبح وافتت الفجر عن نواجذه ، وما الى ذلك من خيالات جميلة وتأملات طريفة .

ومن الطبيعي أن يتعرض الشعراء لوصف النجوم عند حديثهم عن الليل ، ولعل أطرف ما وصفت به النجوم قول ابن الرومي :

رب ليل كأنه الدهر طولا قد تناسى فليس فيه مزيد
ذو نجوم كأنهن نجوم الشيب ليست تزول لكن تزيد

كما تعرض الشعراء لظلمة الليل ولطوله في كثير من المناسبات ، ولكن الفرزدق ذكر العلة في طول الليل حين قال :

يقولون طال الليل والليل لم يطل ولكن من يبكى من الشوق يسهر

وتابعه بشار في هذا المعنى فقال :

لم يطل ليلي ولكن لم اتم ونفى عن الكرى طيف الم
وأذا قلت لها جودي لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم
نفسى يا عبد عنى واعلمى اننى يا عبد من لحم ودم
ان فى بردى جـمـا ناحلا لو توکات عليه لانهدم

وهكذا اكثر الشعراء من الشكوى من طول الليل وتفننوا في ذلك ماوسعهم التفنن : فمنهم من استعدى محبوبه على وحشة الليل ، ومنهم من طال ليله حتى نسي النهار أو سمات النهار ، ومنهم من ظل ساهرا لان محبوبه ظعن عنه فاذا الكرى يفر عن عينيه فرارا ويزور عن جفنيه ازورارا . واذا السهد قد امتلكه امتلاكا فيه كثير من الشدة وغبه كثير من الظلم كذلك . وفي هذا يقول العباس بن الاحنف شاعر العفة الاسلامي :

نام من اهلى الى الارقا مستربحا سامنى قاقا
قد يبيت الناس كلهم وسهادى بيض الحـدا
انا لم أرزق مودتكم انما للعبد ما رزقا
كان لى قلب اعيش به فاصطفى فى الحب فاحترقا

شعراء الحرب

وكما ان الليل كان ملهما للعشاق من شعراء الحب كان الليل ملهما لشعراء الحرب كذلك . فهاهو ذا المعتصم يفتح عمورية ويصب عليها جام غضبه صبا ، وها هو ذا أبو تمام يشهد هذه المعارك الطاحنة وهذه الحرب الضروس والمآسى المروعة في الليل ، فيرسل نفثة من أعماق قلبه ، ويبعث زفرة في أغوار نفسه ويقول :

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحي
يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كان جلاليب الدجى رغب
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان في ضحي شجب
فالشمس طالعة من ذا وقد اقلت
والشمس واجبة من ذا ولم تجب

وقد وقف أبو العلاء المعري وقفة أمام الليل يخالف فيها هؤلاء الشعراء جميعا :

فأبو العلاء رجل مفقود البصر وليس الظلام عنده بفان ، أبو العلاء يرى الليل عروسا من الزنج عليها فلائد من جمان ، ويتخيل أن الهلال والثريا معتنقان ، والواقع أن أبا العلاء كان برغم فقده بصره شاعرا مرهف الحس رقيق الشعور متفتح المدارك بعيد التأمل .



أما الليل في الاندلس فقد ظفر بمنزلة عظيمة ومكانة سامية ، غير أن الوصف كان يكالاه في أغلب الأحوال ، فالسما بساط أزرق موشى بالزهر الأبيض ، والليل تجنى فيه اللذات دهاقا وتفتزع فيه السررات سراعا .

وهكذا شاعت في الأدب الاندلسي ظاهرة التزيين والتزويق في الصور والمعاني ، وبرزت النزعة الإبيقورية كما يسميها مؤرخو الفلسفة أو نزعة المتعة كما يحب أن يسميها مؤرخو الأدب .

الليل فى العصر الحديث

وفى العصر الحديث لم يغفل الشعراء الكتابة عن الليل ، وعند ما
تفى الشاعر محمود سامى البارودى الى جزيرة سرنديب اهاجت الغربة
شاعريته وارهفت احاسيسه ، واخذ ينظم الشعر فى وصف خلجات
قلبه ، ونبضات شعوره ، ووصف الليل الذى يخيم على الأدغال
والأحراج وصفا ممتعا جميلا ، غير أنه تمنى أن يعود الى أهله وبنيه ؛
فهو لا يستطيع أن يتحمل وحده العيش ، ورهبة الليل

أما أمير الشعراء أحمد شوقى فإنه تنقل بين بلدان شتى ، سافر
الى الآستانة ، وسافر الى الاندلس ، وجلس خلال دورها وقصورها ،
وتعرض للتعبير عن مشاعره فى الليل ، ولكنه استمد من الليل كثيرا من
حكمه المشهورة وأمثاله المعروفة كقوله :

كم ساهر خائف والدهر فى سنة
وراقد آمن والدهر فى ———
فلا تبينن مخالا ولا ضجرا
ان انتدابى لا تفنى عن القدر

وشعر شوقى حافل بليل الاستبداد وليل الظلم ، وما الى ذلك من
استعارات ومجازات استدعتها الظروف السياسية المحيطة فى هذه
الفترة .

وهذه المجازات والاستعارات تبلغ ذروتها عند شاعر النيل حافظ
ابراهيم الذى كان شاعرا شعبيا يعبر عن احساسى الشعب الوطنية
أصدق تعبير ، ولا تفوته مناسبة قومية دون أن ينظم فيها قصيدة بين فيها
كفاح الشعب المصرى فى سبيل الحرية والاستقلال ، ومن الابيات
الطريفة التى نظمها حافظ ابراهيم قوله :

ياساهر النجم هل للصبح من خبر
أنى أراك على شىء من الضجر
أظن ليلك قد طال المقام به
كالقوم فى مصر لا يتوى على سفر

ففى هذه الابيات يصور حافظ القلق الذى يعتري المصريين لعدم
ادراكهم للحرية فى ذلك الوقت ورغبتهم فى نهار الحرية المسفر المشرق
الطلق .

أما عبد الرحمن شكري فإنه كان متأثرا إلى حد بعيد بالشعراء الرومانتيكيين في إنجلترا مثل بيرس شللي ، ولورد بيرون ، وجون كيتس وكولريدج وغيرهم ، إذ عكف عبد الرحمن شكري على قراءة الأدب الإنجليزي عكوفاً تاماً ، فبان أثر هذا الأدب في إنتاجه الفني ، وقل مثل ذلك عن الأستاذ عباس محمود العقاد ، وقد نهل من المنهل الذي نهل منه شكري ولا سيما كتاب « الكنز الذهبي » الذي جمعه « بالجرب »

وعلى ذلك فالسمة البارزة في شعر شكري والعقاد عن الليل هي اعتماد شعريهما من المعين الرومانتيكي الصافي .

أما شاعر الجندول على محمود طه فله قصيدة عذبة في غرفة الشاعر بالليل وهي من اللون الغربي في الشعر ، صور فيها الشاعر ساهدا ساهرا ، تحت ضوء مصباح خافت وهو يفكر وبطيل التفكير ، ويتأمل ويبعد في التأمل ، وهي من أروع ما كتب على محمود طه ، وتشبه إلى حد بعيد قصائد الشاعر الفريد دي موسيه في الغرض نفسه

هذه هي بعض خطوات عن الليل في الأدب العربي

أما في الأدب الغربي فقد كان الليل ملهما لكثير من الشعراء والفلاسفة ، وصور نيتشه وشوبنهاور رهبته في كثير من حديثهما ، وكان دعامة لكثير من نظريتهما الفكرية وتأملاتهما الميتافيزيقية .

وقل مثل ذلك عن الأدب الألماني كله أو جلّه فهو أدب القوة وأدب العبقرية والخلود .

أما شعراء الرومانتيكية في أوروبا فقد أكبروا الليل في أشعارهم ووجدوا فيه مرتعا خصيبا لخيالهم ومجالا فيحا لأحلامهم ، وأطافا حبيبة لذكرياتهم ، مثل الشاعر شللي وكيتس وبيرون في إنجلترا ، ولامارتيه وفكتور هوغو والفريد دي فيني ، والفريد دي موسيه في فرنسا . فقال الشاعر شللي في إحدى قصائده :

امض سريعا أيها الليل فوق أمواج الغرب
وأخرج من الكهف الملبد بالفيوم في الشرق
فعندما يخبو نور النهار الطويل
تنسج أحلام الفرحة والحلال
التي تجعلك رهيبا عزيزا

جب أيها الليل فوق المدائن والبحر والبر
تلمس كل شيء بعصاك السحرية
فإنه تواق يبحث عنك
فعندما نهضت من نومي رأيت الفجر يتنفس
فأرسلت زفرة من أجلك أيها الليل .

وعندما انتشر الضوء في الفضاء والتمعت الأنداء
انسكب النور على الزهور والشجر
ثم رقد النهار متعبا مكدودا يستريح
يتروخ كضيف لقييل الظل
فأرسلت زفرة من أجلك أيها النهار .

الموت يحجم عندما ينقشع النهار سريعا
والنوم يحل عندما يولي الأديار
فممن التمس الصنيع وأرجو الجميل ؟
اسألك أيها الليل الحبيب
أن تدنو سريعا .. سريعا .
أما لورد بيرون فإنه استمد أوصاف حبيبته من الليل فقال في
قصيدته « تسير في الجمال » :

إنها تسير في جمال كأنها الليل المميز
يخطر دون سحائب ، لماع النجوم
وكل شيء أبيض ناصع وأسود دامس
يجتمع في أهداب عيونها السوداء
كأنما تنتمي إلى النور الناعم الوديع
الذي تضيء به السماء على الأيام الخالكة
وعندما تبدو في الظلال ينشق منها شعاع
ذو جمال تعجز عنه الأسماء
يتحرك في الفضاء في وجه الأطيوار
أو ينعكس في فتنة على محياها
حيث تتراءى في الأفكار عذبة معبرة
فما أجمل حيث تكون هاتيك الأفكار ! ..

وامتزج الليل عند الشاعر رابندرانات طاغور بنزعة التصوف
الخالصة ، فنراه عندما يتعرض للحديث عن الليل يدرك رهبته وجلاله
وجماله ، ويتطلع إلى خالقه كأنه طفل صغير تائه في عالم عظيم محفوف
بالأسرار والأستار ، فإذا هو يتلشى في هذا الوجود كما تتلشى القفطرة
من الماء في البحر الخضم .

ومن شعره قوله : « أيها الشاعر ، إن الليل قد أرخى سدوله
ورأسك قد اشتعل شيبا ، أفما رن في أذنك صوت يأتي إليك ليقتحم
عزلتك من الغيب السحيق ؟ بلى لقد هبط الليل واني لأرهف السمع لعل
أسمع صوتا يتحد إلى من القرية في هذه الساعة المتأخرة !

وانى اتلف لعل ارى قلوب الشباب تتلاقى ، أو اسمع الموسيقي
تصدح لتقطع وحشة هذا الصمت الرهيب وتعبير عن مواطف المحبين
المكبوتة .

فمن ذا يكون هناك لينشد بأعذب الألحان اذا ما جلست أنا على
ضفة الحياة أفكر فى الموت وما بعد الموت .



وهكذا كان الليل وحيا لشعراء العرب كما كان وحيا لشعراء الغرب
والشرق فسيحان من خلق الليل والنهار وأقسم بالليل اذا سجي وأبدع
الكواكب والنجوم . فاذا كل فى فلك يسبحون .

وما ان انتهيت من حديثى حتى وجدت الدموع تتساقط فى عيني
صاحبي بالليل .

البحر بين الشرق والغرب

منذ وجود البحار في هذا الكون ، وتقسيم الأرض إلى ماء ويابس ،
ولكل عنصر من هذين العنصرين جمال خاص ، وسحر معين يبهج العقول ،
ويأخذ بمجامع القلوب .

والفنان الحق هو الذي يستطيع أن يضع أنامله على مواطن الفتنه ،
ومنايات الجمال ، ويتخذ من محاسن الطبيعة ميدانا لفنه ، ووحيا لبناات
أفكاره ، والفنان الحق هو الذي يجد في هذه العناصر مالا تجده عين ،
ويسمع منها مالا تسمعه أذن ، ويجول بخلده مالا يجول في خلد غيره .

والبحر ملهم للأدباء والفنانين على تطاول الأزمان وكرر الأيام ، وتوالي
الدهور ، وقد تحدث الله تعالى في كتابه العزيز عن البحر في مواطن شتى
فقال في سورة يونس : « هو الذي يسيركم في البر والبحر (١) » .

وقال في سورة ابراهيم : « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر
بأمره وسخره لكم الانهار (٢) » .

وقال في سورة الرحمن : « وله الجوار المنشآت في البحر
كالاعلام » (٣) .

وقال في سورة الاسراء : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر
والبحر (٤) » .

واقسم بالبحر في سورة الطور فقال تعالى : « والبحر المسجور ،
ان عذاب ربك لواقع (٥) » .

وروى عن ابن عباس رضي الله عنه انه قال : « لما أراد الله عز وجل
أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ، ووصف من طولها وعرضها وسمكها
ثم نظر اليها بعين الهية ، فصارت ماء يترقرق لا يثبت في ضحضاح ، فما
برى من التموج والاضطراب ، انما هو ارتعاده من خشية الله تعالى ، ثم
خلق الريح فوضع الماء على متنه ، ثم خلق العرش ووضع على متن الماء
وفسر بذلك قوله تعالى : « وكان عرشه على الماء » .

ولم يعرف أغلب الشعراء الجاهليين البحر ، ولم يجر ذكره في
شعرهم اللهم الا الشعراء الذين طوفوا في البلاد ، وتنقلوا بين شتى

(١) آية ٢٢ ، (٢) آية ٣٢ (٣) آية ٢٤ (٤) آية ٧٠ (٥) آيتا ٧٠ ، ٧١ .

الأقطار والأمصار ، وركبوا متن البحار أو دنوا منها ، كالشاعر امرئ القيس أحد أمراء كندة ، الذي رحل الى القسطنطينية وعاش فيها فترة من الزمان ، وشبه الليل بموج البحر .

ولما فتحت بلاد الشام وشاهد العرب سفن الروم تطلعت نفوسهم الى مسامرة أعدائهم في ركوب البحار ، وطلب معاوية بن أبي سفيان من أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، أن يأذن له بغزو بلاد الروم عن طريق البحر ، غير أن عمر بن الخطاب توجس خيفة من هذا العمل ، ولم يشأ أن يتورط في هذه الحملة ، فسأله أن يصف البحر قبل أن يركبه فكتب اليه عمرو بن العاص كتابا أدبيا تاريخيا يصف فيه البحر وجاء فيه .

« يا أمير المؤمنين ، انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركذ أحزن . وان نار ازاع العقول يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود .. »

فلما وافى هذا الكتاب عمر بن الخطاب تبلبلت نفسه ، وعاج خاطره وكتب الى معاوية يقول : « لا والله الذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا . »

ولكن كراهية البحر لم تدم في نفوس المسلمين طويلا ، اذ لم يلبثوا بعد ذلك أن أنسوا اليه وركبوا متنه في عهد عثمان ومعاوية بن أبي سفيان ومن أتى بعدهما من الخلفاء ، وفتح العرب كثيرا من الجزر الكبرى في البحر الأبيض المتوسط ، وأصبحت صقلية ورودم ، وانتزعوها من يد الدولة البيزنطية ، وشرع الكتاب والشعراء يصفون البحر ، ويعبرون عن شعورهم حياله ، ويقفون على شطآنه وقفات طويلة يستلهمون موجه وبناجون عظمته .

وورد وصف للبحر في كتاب نفح الطيب للمقرئ جاء فيه .

« والبحر تحتنا كارض تميد بأهلها وتزلزل بوعرها وسهلها ، ونحن بعد دود على عود ، فقد ثبت بنا من القلق أمكتتنا ، وخرست من الفرق السننتنا ، والرش يكتنفنا من كل جانب ، ويسيل من أثوابنا سيل المذائب ، فشممنا ربح الموت وطننا التاف والغوت » .

وسرعان ما أصبح البحر موضوعا في أدبهم ، ووحيا لأمثالهم . ومجالا لتشبيهاتهم وكتاباتهم فقالوا : « أعمق من البحر » ، « وأندى من البحر » وقال ابن الرومي :

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلا وتعلق فوقه جيفه

وقال أبو نواس :

من قاس غيركمو بكم قاس الشاد الى البحور

وقال ابن رشيق :

البحر مر المذاق صعب لا جعلت حاجتي اليه

أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه
وقال ابن حمد يس :

لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب
طين أنا وهو ماء والطين في الماء ذائب

وقال السلمي :

وميدان تجول به خيول تقود الدارعين ولا تقاد
ركبت به الى اللذات طرقا له جسم وليس له فؤاد
جری فظننت أن الارض وجه ودجلة ناظر وهو السواد

ولما استقر الامر للعرب في الأندلس أواسط القرن الثاني الهجري
تقريبا من سنة ١٤١ هـ ظهر في الأندلس شعراء وأدباء كثيرون ، وأغرم
بعضهم بالبحر غراما شديدا فوصفوا جماله ، وفتنته ، وحكوا ليااليهم
وبهجتهم بين رحابه ، وعلى ضفافه ، حيث تدور الاقداح وتعزف الأوتار .
وتصطفق المجاديف ، ويحلو الفناء :

فقال السري يصف شرب ليلة في زورق :

ومعتدل يسعي الى بكاسه وقد كاد ضرو الصبح بالليل يفتك
وقد حجب الغيم السماء كأنما يزر عليها منه ثوب ممسك
ظلمنا نبت الوجد والكأس دائر ونهتسك أستار الهوى فتهتك
ومجلسنا في الماء يهوى ويرتقى وابرقنا في الكأس يبكي ويضحك

وقال ابن دراج الأندلسي المعروف بالقسطلي ، وكان يسكن الأندلس
كالمتنبي يسكن الشام على حد تعبير الحصري القيرواني :

إليك شحنا الفلك تهوى كأنها وقد ذعرت عن مغرب للشمس غربان
على لجج خضر اذا هبت الصبا ترامى بنا فيها ثبير وثهلان
وان سكنت عنا الرياح جرى بنا زفير المني ذكرى الأحبة حنان
يقلن وموج البحر والهيم والدجا تموج بنا فيها عيون وآذان
الا هل الى الدنيا معاد وهل لنا سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

ففي هذه الابيات نلمح خوف الشاعر من البحر ، ورهبته من موجه ،
وخشيته من ثورته ، ولعلنا نلتمس للشاعر العذر في ذلك ، فان السفن
البحرية لم تكن ترقى في بنائها وضخامتها ، وفخامتها وأمانها الى مستوى
السفن في العصر الحديث ، وكان ركوب البحر يتطلب شجاعة كافية ،
وثباتا في الجنان .

ويظهر أن ابن الرومي كان يشبه الشاعر القسطلي الأندلسي في هذا
الشعور ، اذ كان يخاف ركوب البحر خوفا شديدا ، ولما نذبه أبو العباس
ابن ثوابة الى الخروج اليه وركوب دجلة توجس خيفة ، وتملكه شعور
عجيب من الرهبة ، وسجل هذا الشعور في أبيات صادقة جاء فيها :

أذاقتني الأسفار ماكره الغنى الى وأغراض برفض المطالب
لقيت من البر التباريح بعنما لقيت من البحر أبيضاض النوائب
لما زلت في جوع وخوف ووحشة وفي سهر يستغرق الليل واصب

وقد علل ابن الرومي خوفه من البحر بعدم اجادته السباحة ، فلو
سقط في البحر فهو لابد هالك لأول وهلة بل انه يمر به في الكوز مر
المجانب ، ويخاف أن يجد السم ممزوجا بالماء الذي يشربه فيسلمه الى
الموت فما بالك بالركوب في البحر الحضم ؟

وأما بلاه البحر عندي فانه طواني على روح من الروح راقب
ولو تاب عقلي لم أدع ذكر بعضه ولكنه من هوله غير نائب
ولم لأولو القيت فيه وصخرة لوافيت منه القعر أول راسب
وأيسر اشفاقي من الماء اننى أمر به في الكوز مر المجانب

ولما جاء العصر الحديث ، وتقدمت المدنية خطوات واسعة الى الامام ،
وأصبح ركوب البحر أمرا سهلا ميسورا والغى تطور العمران المكان
والزمان الغابرين ، وطلقت السفينة تطوى البحار ، وتصل الى بلد لم
تكونوا بالغية الا بشق الأنفس ، أخذ الشعراء يكثرون من ذكر البحر في
شعرهم :

فلما نفي محمود سامي البارودي في جزيرة سرنديب أخذ يصف
وحدته ووحشته ووصف البحر وصفا مشيرا خلايا .

ولما رحل شوقي الى الاندلس مضى يصف رحلته ، ويصف البحر
ورعبته وكذلك فعل عندما سافر الى الاستانة ، وفي كل بقعة من البقاع
عبر في سبيلها بحرا ، وألقى فيها عصا التسيار ، ونظم حافظ ابراهيم
بعض شعره في البحر . ولما سافر الى ايطاليا عام ١٩٢٣ نظم هذه
القصيدة التي جاء فيها :

عاصف يرتقى وبحر يغير انا بالله منهما مستجير
فكان الأمواج وهى توالى محتقات ، أشجان نفس تشور
أزبدت ثم جرجرت ثم تارت ثم فارت كما تفور القصور
ثم أوفت مثل الجبال على الفلك وللفلك عزيمة لا تخور
فى ثنايا الأمواج والزبد المنهد وف لاحت أكفاننا والقبور
مر يوم وبعض يوم علينا والمنايا الى النفوس تشير
ثم طافت عناية الله بالفلك فزالت عن ثقل الشرور
علكت دفة النجاة يد الله فسبحان من اليه المصير

وهكذا أخذ حافظ ابراهيم يصف تلك المشاعر المختلفة التى تنتاب
قلب المسافر عندما يركب البحر ، ولا سيما عند ما يصطخب الموج ،
وتميل السفينة يمنة ويسرة فى يد الريح ، فيجثم القلق فى قلوب
المسافرين ، ويلوح الفرق على وجوههم ، وتتردد مصاييرهم بين الحياة
والموت ، وبين النجاة والهلاك ، ولم يلبث حافظ ابراهيم بعد ذلك أن
جنح الى فكرة فلسفية فقال :

أيها البحر لا يغرنك حولي واتساع ، وانت خلق كبير
 إنما أنت قطرة قد حوتها ذرة في فضاء ربي تدور
 إنما أنت قطرة في أنا ليس يدري مداه إلا القدير
 ووقف شاعر المهجر الكبير ، إيليا أبو ماضي ، أمام البحر وقفة
 الخيران وتساءل عن أصل الإنسان وهل الماء أصله ، كما يقول الفلاسفة
 الأغريق أو ماذا ؟ وسأل البحر هل يعلم كم من السنين مرت عليه ؟
 وسأل الشاطئ هل يدري أنه جاث لديه ؟ وسأل الأنهار هل هي منه إليه ؟
 ولكنه لما لم يظفر بجواب يبيد حيرته ، ويذهب قلقه وشكه ، تملكه
 الدهول كل التملك ، قال في تعجب :

ترسل السحب فتسقي أرضنا والشجرا
 قد أكلناك وقلنا قد أكلنا الثمرا
 وشربناك وقلنا قد شربنا المطرا
 أصواب ما زعمنا أم ضلال
 لست أدري

يرقص الموج وفي قلبك حرب لن تزولا
 تخلق الأسماك لكن تخلق الحوت الأكولا
 قد جمعت الموت في صدرك والعيش الجميلا
 ليت شعري أنت مهتد أم ضريح
 لست أدري

فيك مثلي أيها الجبار أصداف وزمل
 إنما أنت بلا ظل ولي في الأرض ظل
 إنما أنت بلا عقل ولي يا بحر عقل
 فلماذا يسأ ترى أمضي وتبقى
 لست أدري

اتني يا بحر شاطئاه شاطئنا
 الغد المجهول والأمس اللذان اكتنفا
 وكلانا صائر ، يا بحر ، في هذا وذا
 لا تسألني ما غد ؟ ما أمس ؟ اني
 لست أدري

وهكذا كان البحر عند إيليا أبي ماضي موضوعاً من موضوعات الفكر
 ، أعمال العقل والبحث في أصل الإنسان ومعرفة حقيقة الوجود ، ومناقشة
 آراء الفلاسفة في هذا الميدان ، وتطور من الوصف الساذج إلى الوصف
 الجميل ، ومن الخوف والرهبة والسكينة والأطمئنان إلى مجال آخر يعمل
 فيه الشاعر عقله ويعبر عن شعوره ووجدانه ويضفي على هذا الحضم
 الذي يجثم حبال بصره .

وجبران خليل جبران هو أحد أعلام الأدب الحديث . وقد ابتدع لنفسه طريقة في الكتابة اكتسب بها إعجاب قرائه ، واستطاع أن يصور بعبقريته النفاذة البحر ، وما في البحر تصويرا أخاذا ، فهاهو ذا يصور في حديث له حوار سمكة لأختها : قالت السمكة لأختها :

« فوق بحرنا هذا بحر آخر وفيه مخلوقات متنوعة ، تعيش وتسمج هنالك كما نعيش هنا وتسمج » فأجابتها أختها وقالت :

« تلك أوهام ، تلك أوهام ، ألا تعلمين أيتها العزيزة أن كل مخلوق يترك بحرنا قيد قيراط واحد ويبقى خارجا عنه يموت في الحال ؟ .. إذن فما حجتك على وجود أحياء أخرى في بحار أخرى ؟ .. »

كما استطاع جبران خليل جبران أن يدرك بحسه المرفف ، وشعوره الفياض أغنية « الثنينة » التي تحرس كهوف البحار السبعة فقال :

سـيأتى قريتى راكبـا على الأمواج
وسـيملا الأرض رعبا بهديره العجاج
وستندلع نيران رهيبـة فى أقاصى الفضاء
عند خسوف القمر سائر فى إليه

وعند كسوف الشمس سالد « جورج جوس » آخر فيلذبحنى .
ولجبران قصيدة شعرية أخرى غير أغنية « الثنينة » تمتلئ بالعواطف والعواصف كما يمتلئ البحر الحضم المسجور :

فى سـكون الليل لما تنثنى يصرخ الغاب : أنا الغـرم الذى غير أن البحر يبقى ساكنا قائلا فى نفسه : الغـرم لى	نقطة الانسان من خلف الحجاب أنبتة الشمس من قلب التراب
ويقول الصخر : ان الدهر قد غير أن البحر يبقى صامتا قائلا فى نفسه : الرمز لى	شاذنى رمزا له يوم الحسب
ويقول الريح : ما اغربنى غير أن البحر يبقى ساكنا قائلا فى نفسه : الريح لى	فاصلا بين سديم وسما
ويقول النهر ما اغدبتنى غير أن البحر يبقى صامتا قائلا فى ذاته : النهر لى	مشربا يروى من الأرض الظما
ويقول الطود : انى قائم غير أن البحر يبقى عادنا قائلا فى نفسه : الطود لى	ما أقام النجم فى صدر الفلك

ويقول الفكر : اننى ملك
غير ان البحر يبقى هاجعا
قائلا فى نومه : الكل لى

هذا هو موقف جبران خليل جبران حيال البحر ، وهو موقف مترع
بالفلسفة مملوء بالحكمة ، محوط بالعمق ، وجبران ينتقل فى وصفه من
صورة الى صورة ، ويرى الصراع الذى يدور بين الكائنات ولا تشعمر
به الا النفوس الشاعرة ، ويصور البحر فى شعره بكل ما فى أعماقه ، من
الغرائب والعجائب ، والمدافق والأسرار ، وما على سطحه من الأمواج
المزبدة الغضوب ، المتسارعة ، المتهادية ، والأبخرة المتصاعدة المتبددة
المنساقطة : ثم ينظر متأملا فيما وراء البحر فيرى الفضاء غير المتناهى بكل
ما فيه من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس والأقمار .

ولم يقتصر وصف البحر على الأدب العربى فحسب ، بل شاع فى
كل آداب العالم ، واستمد منه الكتاب والشعراء قصصهم وقصائدهم ،
وفى الأدب المصرى القديم أوصاف جميلة للبحر ، جعله الشعراء مرتعا
لحبيهم ، ومجالا لقضاء أنسهم ، وانفاق لياليتهم ، وما الحياة فى نظر
المصريين القدماء الا بحر خضم رحيب رهيب ، وليس لأحد أن يظلم ،
وسوف يحاسب كل على عمله ، وسيبعث الانسان حين وصوله الى الشاطئ
الآخر أو الى الحياة الأخرى ، وكل نفس بما كسبت رعين ، واستمد شعراء
الفراعنة شعرهم من ماء النيل فقال شاعرهم :

« لخير لى أن اركب النيل وأندفع فى تياره ، وأحج الى بيت الله فى
مغفيس ، وأضرع اليه أن يوفقنى الى رؤية أختى ... فإذا قدمت خفق
قلبي وطلقتها بذراعى ، وشعرت بالسعادة فى أعماق نفسى ، وإذا دنت
وفتحت ذراعيها لى شعرت كأن أركب روائح العطور تغمرنى ... »

وحفل الأدب اليونانى القديم منذ آلاف السنين بكثير من الأساطير
عن البحر ووصف سيموننديس الامورجى النساء فى تقليبهن بالبحر فى
تقليبه فقال :

وأخرى خلقت ذات طبعين
فيوما تراها مشرقة ضاحكة
ان رآها فى دارها غريب لم يدخر ثناء
قائلا ليس على وجه الأرض مثلها ظرفا وسناء
وربما تعبس فلا تقوى على الدنو منها والتطلع اليها !

ونظم ثيوقريطس كثيرا من شعره فى وصف البحر وفى الصيادين
وهم يرمون شباكهم فى البحر ، ويخرجون من اكواخهم فى الصباح الباكر
من أجل هذا الغرض ، ونظم غير ثيوقريطس من شعراء الاغريق القصائد
فى وصف البحر ، وغرائبه ، وحاطوه بكثير من أدب الميثولوجيا الخلاب .
ولا أحب أن أختم هذا البحث دون أن أنوه بمنزلة البحر فى الأدب

الانجليزى : فانجلترا جزيرة كبيرة فى البحر ، واهلها قوم يركبون
البحار ، ويعتمدون فى اقتصادهم على ما تاتى اليهم من خيرات تجليها من
الخارج ، ولذلك وجدنا اغلب شعرائهم يتاثرون بالبحر فى شعرهم ،
فوجدت قصص « روبنسون كروزو » ورحلات جوليفر وغيرهما ، والشاعر
الرومانى بيرس شلى يركب البحر ، ويطوف بشتى البلاد ، ويصف جمال
البحر ، وسحره ، ولا يزال حبه للبحر يغريه بالجلولان حتى مات غريقا فى
إيطاليا عام ١٨٢٢ وهو فى الثلاثين من عمره ، والشاعر الليريكى
« وتنسون » يعجب بالبحر إعجابا شديدا ويسوق اليه احدى رواثه :

واصخب أيها البحر على الصخور الشهباء الباردة
فليت للسانى قدرة على انطلق بالافكار التى تجيش فى نفسى
جميل أنت للغلام الذى يلتمس الصيد أو يلهو مع شقيقه
والغلام الملاح الذى يشدو فى زورقه على الخليج
وللسفن الضخمة التى تشق الماء الى مراسيها تحت التل

والشاعر الرومانتيكى الحالم « لورد بيرون » الذى اذكى الحركة
الرومانتيكية فى الأدب فالف « مانفرو » و « الكافرو » و « عروس أبيدوس »
و « القرصان » و « تشايلد هارولد » وغيرها من الروائع - لم يقف جامد
الحس أمام البحر ، بل ناجاه بقوله :

انى لاستمتع بالغابات الكثيفة الألفاف المنسدة المسالك
وانى لانعم على شاطئه خلا من الخلائق
وهناك أجد سامرا يؤنسنى حيث لا يعكر على الحياة انسان
هنالك الى جوار البحر الخضم الذى يزأر بالحن من الموسيقى
ليس هذا انتقاها لحبى للانسان ، ولكنه ازدياد فى حبى للطبيعة
وانى لاحبك يا بحر اذ كانت سعادتى
فى ميعة الصبا تحملنى فوق صدرك
فأطوف كانى من حبابك الطافى على الشبح

وهكذا يمضى « لورد بيرون » فى قطعتة الخالدة مخاطبا البحر هذا
الخطاب الجميل مستعرضا صورا من الطفولة البريئة والعبث المرح
البهيج ، فوق الماء حتى اذا ما تغير البحر ، واشتد الموج ، وارتفع الأذى ،
غدا مصدر رعب ، ومبعث ذعر ، الا أنه رعب رهيب وذعر حبيب فى نظر
بيرون لا يخلو من مواطن للجمال ، للسحر الشهى الحلال .

ويستعرض بيرون فى قصيدته الخالدة ، مانثا حول البحر من
مدنيات عريقة ، وأمجاد عظيمة ، وما نشب حول البحر من عراك شديد ،

وقتل مستمر عنيف ، ويعرج على « الارمادا » ويسرد غنائم الطرف الاخر
وغيرها من المعارك الحربية الحامية الوطيس .

هذه هي نظرات الأدباء والشعراء الى البحر على اختلاف بيناتهم
وهي نظرات تختلف معانيها من شاعر الى آخر ، وتتفاوت بين درجات
الشعور في الخوف والرعب ، أو الهدوء والاطمئنان ، والاقبال أو الاعراض ،
والحب أو الكراهية وذكريات الأنس ، والشراب ، أو ذكريات الموت والهلاك
وصور المدنية أو وهم الأساطير ، وهي نظرات متعددة المعاني ، ومتماثل
مختلفة المصادر ، وطعوم متفاوتة الأذواق .

خليل مطران والفريد دي موسيه

كان خليل مطران على صلة قوية بالثقافة الأوروبية ولا سيما الأدب الفرنسي . وقد ترجم كثيرا من مسرحيات شكسبير مثل عطيل وماكبث وتاجر البندقية وقيل انه ترجمها عن النسخة الفرنسية لعدم تمكنه من اللغة الانجليزية . كما ترجم لـيـالـي الفريد دي موسيه ورواية هرناني Hernani لفيكتور هوجو وترجم لكورني مسرحيات السيد Le Cid وسينا Cinna وبوليبيكت Polyeucte وترجم لراسين رواية برنيس Bérénice .

وقد كان شاعرنا الكبير مولعا أشد الولع بالأدب الرومانتيكي ولا سيما شعر الفريد دي موسيه وفيكتور هوجو وقد نظم كثيرا من القصائد المستوحاة من أدب هذين الشاعرين ، ونظم قصيدة أطلق عليها (فيكتور هوجو) سجل فيها إعجابه بهذا الشاعر الذي ترنم بأحلام البشرية وآلامها في أسلوب رقيق ومعنى مبتكر فريد ، كما أعجبه سيرة الشاعر الرومانتيكي الحالم الفريد دي موسيه وقصة حبه مع الكاتبة الذائعة الصيت جورج صاند وقرا ما كان بينهما من مساجلات أدبية - مثل قصته المشهورة (اعتراف فتى من فتيان العصر) confession d'un enfant du Siècle التي مثل فيها جورج صاند في شخصيتين مختلفتين تمام الاختلاف : أولاها شخصية العشيق الخائنة المتقلبة ، والاخرى شخصية الصديقة الطاهرة الذليل الامينة على العهد .

كما قرأ قصة جورج صاند التي ردت بها على اعترافاته ، وأطلقت عليها « هي وهو » Elle et lui ثم دخل بول دي موسيه شقيق الفريد شخصا ثالثا في هذا الخصام فكتب قصة ثالثة بعنوان « هو وهي » .

لا شك أن «مطران» قرأ هذه المساجلات جميعا كما قرأ ليلة مايو وليلة أكتوبر وليلة ديسمبر وخطابا الى لامارتين وإلى أخى بمناسبة عودته من إيطاليا وكل هذه قصائد من أجمل الشعر الفرنسي نظمها موسيه في حبه كما كتب أقصوصة الشحورور الأبيض نثرا :

لاشك أن مطران تأثر بهذا كله حتى قال في إحدى قصائده عن «الفريد دي موسيه مصورا حياته المثلثة وحبه العنيف :

وقضى نحيبه محبا شقيا جعلته على المدى ميکيا كان انشاده نواحا شجيا وكان الأنين فيه الرويا يباقيا عنه على السطور خفيا	عاش هذا الفتى محبا شقيا وبكى دمع عينه في سطور منشد للغرام لم يشد الا شاعر كان عمره بيت تشبيب ان في نظمه لحسا لطيفا
---	---

خفيف

الفريد دى موسيه يمثل المذهب الرومانتيكى فى الشعر الفرنسى
كما أن « خليل مطران » يمثل المذهب الرومانتيكى فى الشعر العربى .
والرومانتيكيون ما فتنوا يهزون قلوبهم التى بين جوانحهم لأنها كما يقول
الفريد دى موسيه هى مصدر العبقريّة .

ومادة الفن عند الرومانتيكيين العاطفة والخيال على مشاهد الطبيعة
ومعالم الشعوب وعادات الماضى وينظرون الى الطبيعة على أنها كائن حي
ينبض بالحياة ، فما أروع أزاهير الاقحوان وسط حقول القمح ! وما
أجمل شعاع الشمس يسطع فى الماء ! ولشد ما تأخذنا الغبطة اذ نحلم
ونحن مستلقون على ظهورنا فى مركب صغير ينساب مع الموج هادئا نحو
الشاطئ . كما يقول أميل فاجين فى دراسته الأدبية .

نجم المساء لموسيه

وقد كان دى موسيه من هذا الطراز من الشعراء . نطير الى نجم
المساء وأنعم النظر وتأمل وأغرق فى التأمل ثم نظم قصيدة من أروع
قصائده أطلق عليها « نجم المساء » وجاء فيها :

يا نجم المساء الباهت ويا رسول البعد الشاسع . يا من يخرج
جبهته لامعة من بين أستار الغروب ، من قصرك العالى فى هذه السماء
المفروشة بالنجوم ماذا تبصر أنت فى هذا السهل ؟

ان العاصفة تنأى : والهواء يهم بالهدوء ، والغابة التى ترتجف تسقط
دموعها فوق أوراق النباتات ، والفراشة المذعبة تقطع المسافات وتعبّر
الحقول المعطرة بخفتها . . . عم تبحث أنت فوق الأرض الناعسة !

ويمضى الفريد دى موسيه فى تأملاته الرائعة وخیالاته الخالصة وصوره
الجميلة مجسما النجم يتحدث اليه كأنه صاحبه وصديقه وسميره ،
وأنيسه . ويحاول أن يقف على كل خطوة من خطواته وكل حركة من
حركاته فى صفحة السماء الزرقاء . . . فيقول :

آه ! انى الآن قد رأيتك من فوق الجبال تطأطأ . أتهرب وأنت
تبسم ؟ وأبتسامتك المرتعشة تقترب من الاختفاء أبدا النجم المنحدر
فوق الهضبة الخضراء . . . انك تغمر بدموعك القضية الحزينة معطف
الليل وأنت تنظر من بعيد الى ذلك الراعى السائر على حين أن قطيعه
الطويل يتبعه خطوة اثر خطوة . . . أيها النجم ، الى أين أنت ذاهب فى
هذا الليل الفسيح ؟ هل تبحث عند الشاطئ على سر بين الغاب ؟ الى أين
أنت ذاهب أيها الجميل فى هذه الساعة الهادئة ؟ أتود السقوط مثل
الجوهر فى لجة الأمواه العميقة ؟

وقد كتب خليل مطران قصيدة فى الليل والكواكب أطلق عليها
(مشاكاة بينى وبين النجم) وقد سجل فيها آلامه المبرحة التى يكابدها
فى سبيل الحب وسأل النجم أن يعذره فى هذا الهوى وقد جاء فى هذه
القصيدة :

أرى مثل سهدى فى الكوكب
يهيم هيامى من وجده
إذا سرت بحرا أراه به
وان سرت برا يجارى خطاى
رفيق السرى فيه جمر يذيب
أسر هواك الى صاحبى
أما كل ذى كلف متعب
وبى مثل ما بك من شاعل

أحل به مثل ما حل بى ؟
ويهرب من مهده مهربى
أنيسى على جانب المركب
ففى الشرق آنا وفى المغرب
وان سال كالدمع الصيب
يؤاخيك فى همك المنصب
شريك لئلى الكلف المتعب
ولى مثل مالك من مارب

وهكذا كان خليل مطران يناجى النجم كما كان دى موسىه يناجيه .
موسيه تصور النجم حائرا فى السماء كأنها يبحث عن حبيب غائب .
ومطران تصور النجم محبا حائرا مغرقا فى حيرته ينطلق جهة اليمين وجهة اليسار ، ولا يقر له قرار كحاله .

والمعروف فى الشعر الرومانتيكى انه يمتاز برنة الأسى والاسف
أو مايسميه الفرنسيون « مرض القرن » ويسميه الألمان (فلتشموتز) أى
الضيق بالحياة ويسميه الانجليز الملائكوليا Melancholy

وقد كتب دى موسىه قصيدة من أروع قصائده تسمى « حزن »
Tristesse تصور هذا المذهب اصدق تصوير ، والذي يدقق البحث
فى ديوان خليل مطران يجد هذه النزعة ظاهرة فى أكثر من قصيدة
كقوله فى مطلع قصيدة (العزلة فى الصحراء خير من العيشة فى المدينة)

ولوا المدينة وجهكم ودعوني
عودوا الى البلد الأمين وغادروا
تلك الحضارة لا أحب جلالها
ماذا دهانى فى اختبار أهلها

أنا فى هواى وعزلى وجنوني
بلدا لبعيد الناس غير أمين
وأرى محاسنها شباك فتون
من كذب آمالى وصديق عيوني

هذه لمحات بين الفريد دى موسىه و خليل مطران وانها لمحات متعددة
ممتعة نكتفى بهذا القدر منها .

القمر في الأدبين العربي والغربي

أطلق العرب على القمر أسماء كثيرة ، فهو تارة يسمى بالواضح وتارة يسمى بالباهر وتارة يسمى بالزمهرير ، كقوله تعالى (لا يرون فيها شمسا ولا زمهيرا) .

ومنذ فجر الشعر العربي تناول الشعراء في شعرهم القمر بكثير من الأوصاف وكثير من التشابيه والتصاویر ، وقد أذكت البيئة الصحراوية شاعرية الشعراء ، فصحراء تمتد امتداد البصر حيث يلتقي خط الرمال الصغراء مع خط السماء الزرقاء ، وقمر ساطع يتألق في السماء ، ويسكب اكواب النور على الأرض في وحشة وسكون وروعة وفتون . وقد كان القمر أنيس الساري والمدلج الحائر الذي طال به السفر وأدركه الكثير من وعناء الطريق .

وقد ضرب العرب الأمثال بالقمر ، فقال قائلهم : أضيع من قمر الشتاء ، وإذا حاولت أن تعرف لماذا كان قمر الشتاء ضائعا أدركت أن قمر الشتاء لا يجلس الناس فيه لكثرة الغيوم والمطر وقال قائلهم أيضا : ان يبع عليك قومك لا يبع عليك القمر .

وإذا حاولت أن تعرف السر في ذلك أدركت أن القمر يرقب الناس من عليائه في خيرهم وشهرهم ، ولكنه لا يستطيع أن يعين الشرير على شره كما لا يعين الخير على خيره ، وقال قائلهم كذلك : أضوا من القمر واتم من البدر ، وأكبر الظن أنك لست في حاجة إلى محاولة معرفة سر هذا المثل لأن وضوحه يغني عن كل بيان .

وقد كانت أوصاف الشعراء الجاهليين للقمر مستمدة من البيئة الجاهلية ، فهو أنيس المدلج الساري ، وهو سامر السامرين ، والركب المحب في الصحراء ، ولم تتعد وتنطور أوصاف الشعراء الجاهليين للقمر مثل هذا التعقد والتنطور الذي نجده في الأدب الاندلسي مثلا كقول الشاعر :

وكسان الهلال نون بلين غرقت في صحيفة سوداء
وكقول آخر :

وقد الهلال كسطر طوق على لبات زرقاء اللباس
وكقول عبد الله بن علي الكاتب :

كشف البدر وجهه لتمام فوجوه النجوم مستترات

وكان البدر للشمس عروس وكان النجوم منتقيات

وهكذا تعددت صور الشعراء للقمر والذي نلاحظه أن نظرة الشاعر إلى القمر تختلف بين فرد وآخر : فبينما نجد شاعرا يغم برؤية الهلال ويفتن في تصويره كابن المعتز الذي يراه كزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر ، نجد عبد الله الكاتب يغم برؤية البدر الكامل ، فيعبر في بيتين من الشعر عن منظره الحلاب وسحره الأخاذ في نفسه .

وقد تفنن ابن المعتز في وصف القمر كل التفنن وأجبه حبا جما
مثله في هذا الحب كالشاعر الانجليزي جون كينتس John Keats
الذي اعتبره النقاد في أوربا عاشقا للقمر لكثرة ما نظم فيه من شعر ولكنني في الواقع أقول هذا القول في كثير من التحفظ ، فلا ابن المعتز منهج خاص في طراز الشعر ، ولكينتس منهج خاص في أسلوب الشعر ولم يلتقيا ولا يمكن أن يلتقيا .

ومن المعاني الغريبة التي صاغها يحيى بن هذيل في وصف القمر هذا المعنى :

والثريا دنت من البدر حتى خلقتها دارعا يدير نخبا
أما في باب الغزل فقد تفنن الشعراء العرب في وصف محبوباتهم بالقمر وسحره ، بل إن بعضهم لم يرقه هذا الوصف ولم يسترح إلى هذا التصوير ، كإبي علي تميم بن المعز صاحب مصر :

شبهتها بالبدر فاستضحكت وسفحت قولي وقالت متى
والبدر لا يرنو بعين كما ولا يميظ المرط عن ناهد
من قاس بالبدر صفاتي فلا

وكقول أبي إسحاق الصابي :

مانس لا أنس ليلة الأحد والبدر ضيفي وأمره بيدي
قبلت منه فمما حجاجته تجمع بين المدام والشهد
كان مجرى سواكه برد وريقه ذوب ذلك البرد

وعندي أن أبيات أبي إسحاق الصابي هذه من أروع ما كتب من الغزل ، لالبراعة الشاعر في الاستعارة ولا لروعة الشاعر في النظم ، ولكن لأنه صور لنا تصويرا بديعا بهجته في ليلة الأحد مثلما يصور الشعراء المحدثون هذه البهجة على ضفاف السين أو على ضفاف التيمز أو في بلاد العم سام .

أبيات الصابي هذه عالمية رائعة ، لولا أن بعض الفاظها ترد إلى الشعر العربي والبيئة العربية ردا سريعا كلفظ السواك الذي يعتز به العربي .

وشبه ابن خفاجة الأندلسي القمر بتشابيه كثيرة مستملحة وكان في بعض الأحيان يهد لذلك تمهيدا أو يحيط الصورة بهالة من الأجواء الخاصة مثله في ذلك كمثل المصور الذي يعرف موطن الظلال ومواضع النور ، فوصف ابن خفاجة السرى في طلعة الليل الخالك وما يواجه ذلك السرى من رهبة في النفوس وحلع في القلوب وما يلاقيه السارى في الصحراء من حيوان مفترس وما يأنس إليه من قمر يسكب عليه نوره . اسمعه يقول :

ومفازة لا نجم في ظلماتها يسرى ولا فلك بها دوار
قد لفنى فيها الظلام وطاف بي ذنب يلم مع النجى زوار
والليل يقصر خطوه ولربما طالت ليالى الركب وهى قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق فيه ومن خط الهلال عذار
ومن الأوزان الرقيقة والمعانى الطريفة فى الشعر الأندلسي قول
ابن زيدون :

متى أبشك ما بي يـأـراحتى وعـذابى
ما البدر شفق سناء على رقيق السحاب
الا كوجهك لـ أضواء تحت النقاب

وإذا كان شعراء الأندلس قد برعوا في وصف القمر وتفننوا في عرض صوره ولوحاته كل التفنن ، فإن بعض شعراء المشرق قد استخلصوا من القمر الحكمة واستمدوا منه الموعظة البالغة والرأى السديد كقول الشاعر :

المـرء مـثـل هـلال حـين تبصره يبدو ضعيفا ضئيلا ثم يتسق
يزيد حتى إذا ما تم أعقبه كـر الجـديدين نقصا ثم ينمحق
وكقول ابى تمام الطائى :

لهفى على تلك الشواهد فيهما لو أخرجت حتى تكون شمائل
ان الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

كان القمر في الادب العربي اذن ولا يزال مصدرا من مصادر الجمال ومبعثا من مباحث الروعة والفننة فى الادب . فالشعراء اما أن يستوحوا منه شاعريتهم فيصفوه وصفا جميلا ، واما أن يشبهوا به عرائس أحلامهم وملهفات قريضهم ويتلاعبوا بالمعانى تلاعبا ، ويتضاربوا بالافكار تضاربا ، واما أن يستوحوا منه الحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن بعض الشعراء لم يكفه هذا كله ، بل لجأ الى شيء يناقض هذا كله ، فهجا البدر هجاء مرا ، وقد ذكروا أن أعرابيا رأى رجلا يرقب الهلال ، فقال له :

ما ترقب فيه وفيه عيوب لو كانت فى الحمار لرد عليها ؟ فقال :
ماهى ؟ فقال : انه يهدم العمر ، ويقرب الأجل ، ويحل الدين ، ويقرض
الكتاب ، ويشحب اللون ، ويفسد اللحم ، ويفضح الطارق ، ويدل على

السبارق ، ومن عيوبه ان الانسان لو نام في ضوءه حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل ، ويهيج عليه الزكام والصداع .

وقد ضمن الشاعر ابن الرومي قصيدة من قصائده عجا للقصير فقال :

لو أراد الأديب أن يهجو البد زماماً بأخطأة الشـئـعـاء
قال يا بدر أنت تغدر بالسـا دى وتزرى بزورة الحسـنـاء
كلف فى شحوب وجه يحاكى تكنا فوق وجنة برصـاء
يعتريك المحاق ثم يخلبك شبيه القلامة الحجنـاء
ويليك النقصان فى آخر الشهر فيمحوك من أديم السـمـاء

لم يسلم القمر من الهجاء فى الادب ، ولكن لعل هذا الهجاء تظمن اليه نفوس كثيرة وترجع اليه أبحاث كثيرة أيضا غير أنى مع هذا لاظمن اليه ولا آنس به ، انما اظمن وآنس الى قول الشاعر حين يقول :

وبدر دجى يمشى به غصن رطب دنا نوره لكن تنـالـوه صعب
إذا ما بدا أغمرى به كل ناظر كان قلوب الناس فى حبه قلب

فأيها خير : المدح أم الهجاء ، الحب أم البغض ، المودة أم الكراهية ، جزوغ القمر أم أفول القمر ، انسكاب الضوء أم احتباس الضوء ، حسنات يخطرن فيملأن القلب حبا وولها ، ناضرات الوجوه ساحرات العيون ، أم قبيحات يملأن القلب غماويؤسا وبأسا أم فناء مريع ليس فيه هذا ولاذاك ؟ من يدري !

أما الرافعى فى العصر الحديث فقد كان له خيال طلق نحو القمر ، ووصفه أروع وصف واجلة حين قال : « القمر زاه رفاف من الحسن كأنه اغتسل وخرج من البحر أو كأنه ليس قمرا بل هو فجر طلع فى أوائل الليل بخصرته السماء فى مكانه ليشر الليل . فجر لا يوقظ العيون من أحلامها ، ولكنه يوقظ الأرواح لأحلامها ... »

كما تصور على محمود طه القمر عاشقا والشاعر يغار من حبه للغلاة الرقيقة نفسها .

وفى الأدب الأوروبى ظفر القمر بأهمية كبيرة ولا سيما عند شعراء الرومانتيكية فى انجلترا وفرنسا ، فلما رتب فى تأملاته التى أصدرها عام ١٨٢٠ وفى ايقاعاته التى أصدرها عام ١٨٣٠ يتغنى بضوء القمر وليالى الحب المتألقة وكذلك الحال بالنسبة الى فيكتور هوجو ، فان قصائده التى تضمنها ديوانه الضخم منذ عام ١٨٢٢ الى عام ١٨٢٦ تزخر بحب القمر والتغنى بجماله .

وقد نشر هوجو أوراق الحريف عام ١٨٣١ وأناشيد الغسق عام ١٨٣٥ والأصوات الداخلية عام ١٨٣٧ والأشعة والظلمات عام ١٨٤٠ وقد مزج فيها حبه بالطبيعة ومنها القمر المتألق فى كبد السماء .

فكانت الطبيعة مرتبطة كل الارتباط بقصة حبه ، وكانت تعبيراته
تفصح عن هذا الحب المتأجج بين جوانحه .

وكان الرومانتيكيون لا يصفون الطبيعة بأسلوب موضوعي ولا يشبهون
القمر بالغادة الحسنة أو بالوجه الصبوح على عادة الشعراء العرب وكما
فعل الكلاسيكيون إنما كانوا يرون القمر ومجال الطبيعة انعكاساً لما
يعتري نفوسهم من حالات ، ولذلك كانوا لا يقدمون لنا منهم أو أدبهم
إلا من خلال ذواتهم ، فالطبيعة ثائرة مع ثورتهم وهادئة مع هدوتهم وهي
عازية في كتابتهم وناضرة في انشراحهم . وكذلك القمر تتراعى على وجهه
أمارات الفرح والحزن وتضطرم فيه أحاسيس الشجن أو النشوة .

والرومانتيكيون كانوا يرون في ظواهر الطبيعة المتعددة رموزاً لحياة
الإنسان ، ولكن أعظم ما اجتذبهم في هذه الطبيعة الجمال الخلاب الخالد
بتجده الأبدى وراوا جمال الطبيعة جزءاً من الكمال الكلي الذي يميز
عالم المثل .

وعلى هذا النحو تأملوا القمر وتغفوا بالليالي العذاب تحت أضوائه
الساحرة حتى كانت أشعارهم مجموعة من الأحلام وموكبا من الرؤى التي
تلم بجفون النائمين .

وقد كانت قصائد دي موسيه « الليالي » من أروع القصائد التي تغنى
فيها الشاعر بحب القمر وانعكست مشاعره عليه وهو يتألق في عرشه
النوراني البديع .

وقد كان القمر في الأدب الانجليزي وحياً لكثير من الشعراء نذكر
منهم الشاعر كيتس الذي نظم قصيدة من أروع قصائده بعنوان « كل ماهو
جميل » وقد وصف فيها الجمال بأنه كنز لا يفنى ومصدر لسعادة دائمة .
وكل يوم يمر علينا وننعم فيه بالحياة في ظل خميلة جميلة وأحلام هائلة .
وصحة وسلام نصنع منه رباطاً من الزهر يربطنا إلى الأرض برغم اليأس
والحزن .

ومضى كيتس يصور مجال الجمال في الشمس والقمر والأشجار فهي
تنشر ظلالها على الأرض جميلة رائعة على حين تكون الأقاصيص الحلوة التي
سمعناها ينبوعاً عذبا من شراب خالد ، وكذلك القمر والشعر وكل ماهو
جميل يبقى معنا حتى يصبح نورا يضيء النفس مهما كانت الظلمة أو قلة
الضوء من حولنا ، فهو معنا لا يفترق عنا إلى ساعة الموت .

أما الشاعر شللي فإنه اعتقد أننا كالسحب التي تحجب القمر في
منتصف الليل ، فهي تسرع وتلمع وتومض في حركة مستمرة وتضيء
الظلمة من حولها ، ولكن سرعان ما يحيط بها الليل وتختفى إلى الأبد .

وفي قصيدته إلى قبره تراه يشبه صوتها الجميل الذي تبعث منها
بالكوكب القضي الذي يذوي سراج الوهاج كلما وضح من الفجر الضياء .
كما أن الأرض كلها والهواء تدوي بصوتها مثل القمر حين يعتري الليل
فلا تحجبها سحابة واحدة وتتدفق أشعته فتشرع بها جفاف السماء .

وكان القمر في الادب الغربي وسيلة الى الرغبة في المعرفة واستطلاع
المجهول واستكناه الغيب ، وقد ظهر هذا واضحا جليا عند لورد بيرون
الرومانتيكي القاطم الى حب المعرفة ، كما ظهر عند الاديب الشاعر
الالماني جوته الذي تخلق روحه دائما في اجواء خياله ، متطلعا الى الظفر
بأشهر متاع الدنيا وبأجمل نجوم السماء . ويريد أن ينزع حجب أسرار
الطبيعة ولكن لاشئ يملأ رغبته في هذا العالم .

واذا تطمع « فاوست » الى القمر اثار في نفسه مشاعر شتى وخواطر
كثيرة ، وتمنى أن يفتق حجب الغيب للتعرف على المجهول من الامر
والمغيب من الاحداث فيقول :

أيها الكوكب ذا الضوء الفضي ، أيها القمر الصامت ! طالما سهرت
الليل على مقربة من هذه المنظمة ، وطالما تجليت لي وقت ذاك ، أيها
الصديق الحزين ، فوق اكوام الكتب والاوراق ، آه لو أستطيع أن أتسلق
على ضوئك الوديع شامخ الجبال . وان اضرب في الكهوف مع الارواح وان
أخلق فوق المروج تحت فيض نورك الباهت ناسيا كل مافى العالم من
اناس .

وهكذا كان القمر وحيا لفاوست في الادب الالماني ، وبابا يفتح عن
عالم بعيد كله غموض وابهام وكله تساؤل واستفهام !

الموت

في الأدبين العربي والغربي

لما يمت الأدب العربي ، وهيئات له أن يموت ، بل انه يتقدم شيئاً فشيئاً نحو الحياة والحياة النشيطة الموقرة ، انما أريد أن أبحث في هذا الفصل ، كيف تناول الشعراء الموت ، وكيف وقفوا حيال هذه الظاهرة الطبيعية التي لابد أن تدرك كل حي .

ليس من شك في أن شعراء العرب قد استمدوا جل أفكارهم من البيانات المختلفة السائدة في جزيرتهم وفي الأقاليم المتاخمة لها ، وأن من يتصفح الشعر الجاهلي يجد لبعض الشعراء خواطر في الحياة وخطرات في الموت ، ولكنها لا تتبع نظرية من النظريات ، ولا تسير وفق فلسفة من الفلسفات ، بيد أنها برغم هذا كله تضم كثيراً من الحكمة وفيها كثير من الصواب كقول عدى بن زيد من شعراء الجاهلية :

ان اهل الديار من قوم نوح	ثم عاد من بعدهم وتماد
بينما هم على الأسرة والانماط	أفضت الى التراب الخدود
ثم لم ينقض الحديث ولكن	بعد ذا - الوعد كله والوعيد
وأطبأء بعدهم لحقوهم	ضل عنهم صدقهم واللود
وصحيح اضحى يعود مريضاً	وهو أدنى للموت ممن يعود

ومن أمثلة العصر الجاهلي كذلك ما قاله عبدة الصغار عن أمية بن أبي الصلت الشاعر الجاهلي الذي قال عنه الرسول الكريم : آمن شعره وكفر قلبه . فقد ذكر أن أمية بن أبي الصلت أغمى عليه طويلاً عند وفاته ، ثم أفاق ورفع رأسه الى سقف البيت وقال : ليكما ليكما ، هانذا لديكما ، لا عسرتي تحميني ، ولا مالي يفديني ، ثم أغمى عليه طويلاً وقال :

كل عيش وان تطاول دهره	صائر مرة الى أن يسزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي	في رهوس الجبال أرعى الوعولا

ولما جاء الدين الاسلامي تناول كتابه العزيز الموت بين ثناياه ،

فقال عز وجل : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » (١) وقال تعالى : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (٢) وقال أيضاً : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (٣) .

(١) سورة النساء (٧٧) (٢) سورة الرحمن (٢٦ ، ٢٧) (٣) سورة الملك (٢)

وقد جاء في التوراة كثير من الآيات التي تدعو إلى الرعب وذم الدنيا واستحقار الحياة

وقد تناول الشعراء الإسلاميون الموت في شعرهم وذموا الدنيا ، وطلبوا التهجد والتعبد والورع والتقوى وتصوف نفر من المسلمين ، ونظروا إلى الحياة نظرة استخفاف واستهجان كما ظهر نفر من الشعراء الزهاد كابى العتاهية . ولعل هذا النفر من القوم تمثل بقول عبد الله بن مسعود (الدنيا كلها غموم ، فما كان منها سرورا فهو ربح) وقد تناول شاعر عربى الحياة والموت في بيتين فقال :

نراخ الذكر الموت ساعة ذكره وتعرض الدنيا قتلها ونلعب
ونحن بنى الدنيا خلقنا لغيرها وما كنت منه فهو منى محب

وقيل أن محمد بن كعب دخل على عمر بن عبد العزيز فحذق النظر إليه فقال له عمر : ما تنظر يا محمد ؟ قال : أنظر إلى ما أبيض من شعرك ونحل من جسمك وتغير من لونك . فقال : أما والله لو رأيته في القبر ، وقد سألت حذقتى على وجنتى وسأل منخرأى صديدا ودودا لكنت أشد نكرا .

وعند ما تناول أبو العلاء المعرى الموت في شعره كانت له نظرة خاصة فيه ، فهو يعتقد أن الحياة لون من السخف الذى لا طائل تحته ، ويعتقد أن كل ذى روح ينبغي أن يعيش ، فحرم على نفسه أكل كل ذى روح . وقد ضم ديوانه « لزوم ما لا يلزم » كثيرا من آرائه في الحياة ، فما الدنيا في نظره إلا ميثمة وما الناس حوالها إلا كلاب نوابح ، غير أن الخاسر من يأكل منها كثيرا ، والكاسب من لا يأكل منها شيئا ، والدنيا دار لا ينبغي للعقلاء أن يبكوا على غيابها ، فما الظافرون بعزها ويسارها إلا قريبو الحال من غيابها ، فقال أبو العلاء :

ان حزنا في ساعة الموت اضعا ف سرور في ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنقاد
انما ينقلون من دار اعمى ل الى دار شقوة او رشاد
خجعة الموت رقدة يستريح ال جسم فيها والعيش مثل السهاد

وإذا مات الإنسان لم يحفل بجسمه أبو العلاء ولم يرض تكريمه ، بل يرى أن يوارى في التراب أو يفعل به أى شيء ، فإنه لا يحسن ولا يتألم ، وقد ضمن هذا المعنى في قوله :

تكرم أو ضال الفتى بعد موته وعن إذا طال الزمان هبنا

وقد ذكر الدكتور طه حسين في كتابه تجديد ذكرى أبى العلاء هذه الملاحظة كما أضاف إليها أن أبى العلاء استحسّن غير مرة تحريق الهند موتاهم فقال :

والنار أطيب من كافور ميثنا غبا واذهب للشكراء والريح
وهكذا زخر الأدب العربى بشعر الموت وكثر الرثاء في الشعر ، وقد

قيل : ان الرثاء أجود شعر ان عرب لانه اصدق عاطفة ولانهم يقولونه
ونفوسهم مفجوعة .

وقد ذكر ابن رشيق في كتاب (العمدة) ص ١١ انه ليس هنالك
فرق بين الرثاء والمدح الا ان يخلط بالرثاء شيء يدل على ان المقصود به
الميت ، مثل كان او عدمتنا به كبت وكبت او مايشاكل هذا ليعلم انه
ميت .

وسبيل الرثاء ان يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلف
والاسف والاستعظام ان كان الميت ملكا او رئيسا كبيرا كما قال النابغة
في حصن بن حذيفة :

يقولون حصن تم تآبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح
ولم تألف الموتى القبور ولم تنزل نجوم السماء والاديم صحيح !

وابو تمام من المجيدين في الرثاء ومثله عبد السلام بن رغبان
المعروف بديك الجن ، وهو أشد في هذا من حبيب وله فيه طريق
انفرد به .

ومن عادة القدماء ان يضربوا الامثال في المراثي بالملوك الاعزة والامم
السالفة والوعول الممتنعة في قتل الجبال والاسود الخادرة في الفياض
وبحمر الوحش المنصرفة بين القفار والفسور والعقبان والحيات لباسها
وطول اعمارها ، وذلك في اشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر .

اما المحدثون فهم الى غير هذه الطريقة اميل ، وربما اتوا بالجديد
الى جانب اخذهم بالتقليد ، ومن افضل الرثاء في نظر ابن رشيق قول
حسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

فيا قبر معن كنت اول حفرة من الارض خففت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده لقد كان منه البر والبحر مترعا
فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مترعا

هذا وقد مزج كثير من الشعراء الحب بالموت على النحو الذي
يفعله شعراء الفرنجة حيث تزخر بعض دواوينهم بهذا الموضوع كمن
مستقل قائم بذاته ، ومن هذا الضرب في ادب « البلاد » الانجليزى
قصيدة الشاعر يوليوس ميكل المسماة « قاعة كمنر » التى يصور فيها
علاقة ايمى روزيبات بالشريف لستر وكيف انه آثر الملكة اليزابيث عليها
بدافع من الطموح فى المجد والرغبة فى السيادة وكيف تمثل الموت حياله
بعد ذلك .

وكان معن تناول الحب والموت فى الادب العربى الشاعر الغزلى
جميل بثينة الذى قال فى احدى قصائده :

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى بيثنة في أدنى حياتي ولا حشوى
وجاور إذا ما مت بيني وبينها فيا حبذا موتى إذا جاورت قبرى
هدمتك من حب أما منك راحة وما بك عنى من توان ولا نسر

كما تناول جميل بيثنة الحب والموت في أبيات أخرى :

من حبها أتمنى أن يلاقيني من نحو بلدتها ناع فينعهاها
كيما أقول فراق لا لقاء له وتضمير النفس ياسا ثم تسلاها
ولو تموت لراعنتى وقلت ألا يا يؤس للموت ليت الموت أبقاها

وقال ابن رشيق : ومن جيد ما رثى به النساء وأشجاء وأشده
تأثيرا في القلب واثارة للحزن قول محمد بن عبد الملك الزيات في أم وندة :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تبندران
رأى كل أم وابنها غير أمه بيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا في الفراش تحته بلابل قلب دائم الخفقان

هذا وقد ذكر صاحب العقد الفريد أنه كان لمعالى الطائي جارية
يقال لها (وصف) وكانت أديبة شاعرة باعها المعالي في مصر بأربعة آلاف
دينار ، ودخل عليها فقالت له : بعتنى يا معلى ؟ قال نعم ، قالت :
والله لو ملكت منك مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيا وما فيها ، فرد
الدنانير واستقال صاحبه ، ثم أصيب بها بعد ثمانية أيام ، فرتاها أنجع
رئاء وبكاها أشد بكاء :

يا موت كيف سلبتنى « وصفا » قدمتها وتركتنى خلفا
هلا ذهبت بنا معا فقد ظفرت يداك فسمتنى خلفا

وهكذا تناول الشعراء الموت في الأدب العربى ، وكان ذكرهم للموت
مستعدا من الدين الإسلامى حيث جاء في الحديث المرفوع (الموت راحة)
كما قال بعض السلف : ما من مؤمن إلا والموت خير له من الحياة ، لأنه
أن كان محسنا فالله يقول : « ما عند الله خير للأبرار » وأن كان سيئا
فإنه تعالى يقول : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم »
أنما نملى لهم ليزدادوا ألما »

غير أن هناك شعراء قلائل عرّفوا بمذهب خاص في الموت كابى
العلاء المعرى

ويعد شعر الرثاء في الأدب العربى من أهم الأبواب التى ذكرها
المصنفون والنقاد كابى تمام في ديوان الحماسة ، وقد مزج بعض الشعراء
الحب بالموت على النحو الذى يلجأ اليه شعراء الفرنجة ، فكان هذا اللون
من أحب ألوان الشعر الى النفوس وأوقع ألوان الشعر في القلوب .

أما الموت في الأدب الغربى فكان مثارا لفلسفة المتفلسفين وحيرة
الشعراء ، وقد صور الشاعر الانجليزى وليم ترنر تحلل الروح البشرية

على صخر الحياة الحديثة المفقر ، يسقط فوق الحسن ، فيبلى كما يبلى الجو
يفعل الماء . فقال في قصيدة بعنوان « كما يتاكل الصخر » :

كالصخر تتاكل روح الانسان

تتاكل وتتفتت مع الزمن

الحسن يسقط على سطح بال

جرس بعد جرس

كقطرات الندى تنعم

أو قطرات المطر ترسم

أو الريح تهب وتصفى

في كل طريق أو منحرج

ناعمة كالأحجار قلعة

بالية بفعل الماء

أو بلاها الليل وأبلاها النهار

وحيدة مهجورة

كالصخر تتاكل روح الانسان

تتاكل وتتفتت مع الزمن

دون أن يسمع لناكلها صوت

أعلى من صوت المطر

يتساقط على النهر

جرس بعد جرس

تذبل وتنطوي كما

يذبل الزهر

أما الشاعر توماس شيرن البيوت فقد كان له حبال الموت موقوف
عجيب ، وكان يعتقد أن الحياة الجديدة قد جرت على الدنيا الشقاء
كما أن الآلة الجديدة لم تخلف للناس إلا البلاء ، وقد ثار في وجه
الآلة ، وفي وجه تيار المدنية الجبار حتى أنه وصل إلى حد التصوف
في الإيمان بالروح والتفوق من الآلة

وكان البيوت يحن إلى يوم صلاحه وتحطيم بيت الصلصال الذي
يؤويه ، وكان يقول : « بين التصور والخلق يسقط الفل بين القلب ،
والقلب يسقط الفل ما أطول الحياة » كما كان يقول : « قلت لروحي
اهدئي يا روح ، فالأمل الذي تأملين أمل الباطل ، وقلت لروحي اهدئي
يا روح فالحب الذي تحملين حب للباطل ، لم يبق إلا الإيمان يا روعي ،
ولكن الأمل والحب والإيمان كلها في الانتظار » .

وتعد قصيدة : ت. س. البيوت ، « الرجال الجوف » من أروع

قصائده وتشييع فيها الحرة ، وينطق بين سطورها الألم ، وتنفسيها
سحابة قائمة من الأحزان ، وغائمة داكنة من الأشجان .

وقال فيها : « نحن الرجال الجوف بالقش حشينا » وبالقش
حشيت رعوسنا يتوكا بعضنا على البعض الآخر ، فوا أسفاه كلما
همسنا خرجت أسواتنا الجافة هادئة خالية من كل معنى كأنها صوت
الريح على الحشائش اليابسة أو دبيب أقدام الجرذان وهي تمشي على
الزجاج المكسور في مخابئ الخمر ببيوتنا .

أما أولئك الذين انتقلوا الى مملكة الموت الأخرى بلا تردد
فلا يذكرنا ، فان ذكرونا لم يذكرنا أننا ارواح هاجعة ضائعة بل
ذكرنا أننا الرجال الجوف .

نحن أشكال بلا قوالب - نحن ظلال بلا ألوان - نحن قوى
مشلولة - نحن اشارات بلا حركة .

تلك العيون التي لا أجبر على مواجهتها في أحلامي لا تظهر في
مملكة الموت ، مملكة الأحلام ، فالعيون هناك شعاع من الشمس ،
يشرق على عمود محطم .

وهناك شجرة تتأرجع وأصوات تسمع - في غناء الريح -
بعيدة رهبة أشد بعدا ورهبة من نجم يحبو .

أما الشاعر الأمريكي هنري وارزورث لونجفلو ١٧٨٠ - ١٨٨٢ م
فانه كان صاحب نزعة دينية واضحة في شعره ، وكان أبرز حادثة في
حياته كلها موت زوجته الثانية محروقة بعد أن مات زوجها الأولى
أبان رحلته الثانية الى أوروبا ، وقد تجلى في شعره الإيمان بأدق معاني
هذه الكلمة ، وكانت له فلسفة خاصة في الموت تتراءى بين سطور
أبياته :

ليس هناك موت وما بعد موتا ان هو الا انتقال
هذه الحياة المحدودة الانفاس
ان هي الا ضاحية من حياة الخلود
التي اطلقنا على مدخلها اسم « الموت »

وقد قال الشاعر الأمريكي ادجار آلن بو : « لا ريب أن موت
امرأة جميلة خير موضوع شعري في العالم » لأنه كان يعتقد أن الجمال
والموت تقيضان ، وأن الشعور لا بد أن يكون مليئا بالخبرة متسرعا
بالشجر والشجن حتى يصل الى شفاف القلوب وهو يشفق الى
الموت لأنه باب الى عالم الكمال والجمال ، وفي قصيدة رائعة من
قصائده بعنوان « الى واحدة في الفردوس » يتحدث عن الحبيبة التي
عدت عليها المنون وكثر لها الموت عن أنيابه :

« اما انا واحسرتاه ! واحسرتاه !

فقد خبا مني ضوء الحياة

ابدا ابدا لن

لن تورق الشجرة التي حطمتها الصاعقة .

ولن يحوم النسر المبيض الجناح

ومثل هذا القول يربط البحر

الوقور الى رمال الشاطئ

كل ايامي غيبوبة اثر غيبوبة

وكل احلامي في الليل تسير

الى حيث تلمح عينك السوداء

وحيث تلمح خطواتك

في كل رقصة البيرة

وعند كل ساقية خالدة !

وقد كانت هذه النزعة التشاؤمية مظهرا من مظاهر الادب
الرومانتيكي في اوربا ، وبرزت في شعر الفريد دي موسيه والفريد
دي فيني وفكتور هوجو في فرنسا كما تجلت في شعر بيرون وكيتس
وشالي في انجلترا .

فكتب لامارتين في قصيدة « الشاعر يموت » يقول :

تحطمت كأس ايامي ومازالت مترعة

وهدى حياتي تهرب في تنهدات طويلة مع كل نهمة

لا الدمع يستطيع أن يوقفها ولا الندم

وجناح الموت يقرع الناقوس الذي يبكي

ويعلن بضربات متقطعة ساعتى الأخيرة

هل يجب النحيب أو يجب الفناء ؟

أما كيتس ففي قصيدة « الى البلبل » تتسلل الرغبة الى الموت
وهو ينصت الى صوت البلبل وهو ينطلق في الفضاء العريض ويتمنى
أن يغنى في اصداؤه النشوى الرخيمة فيقول :

في الظلام انصت وكثيرا ماكنت

كنت نصف هائم بالموج المريح

ادعوه بأسماء لطيفة في اشعار تأملية

كى ياخذ الى الهواء نفسى الهادى

واكثر من اى وقت مضى يبدو لى ان من الممتع ان اموت

واننى في منتصف الليل بلا الم

على حين تصب انت روحك صبا من الخارج

تمثل هذا الجدل النشوان

وستظل تغرد بلا جدوى وقد فقدت اذناى السمع
وغدنا قبرا لانشودتك الجنائزية المرتفعة .

وهكذا تصور جون كيتس الموت فى الصوت الحلو الرخيم الذى
ينساب فى مسمعه رفيقا رفيقا لانه كان يشعر بالحيرة والالام ويحس
بالشجو والشجن ، فانعكست هذه المشاعر الساخطة على الدنيا ،
«الساخرة من الدنيا وزينتها وزخرفها ، على هذا الصوت الجميل
المتطلق .

وهكذا كان شعور الرومانتيكيين جميعا - يرجعون الى ذواتهم
ويعكسون - عواطفهم واحاسيسهم على صور الطبيعة المختلفة .

وفى قصيدة شللى « عند ما ينكر المصباح نلّس هذه الظاهرة
نفسها ظاهرة انعكاس الشاعر على صور الطبيعة ومجاليتها .

بل ان اوراق الورد عند ما تذوى وتتصوح وتلفظ الورد انفاسها
«الاخيرة تجمع فراثسا للحبيب فى نظر شللى ، وكذلك افكار الحبيبة
يبعد ذهابها يتخذ الحب منها مهذا وفراثسا .

لغة زهور بين الشرق والغرب

إن أجمل هدية يمكن أن تهدي إلى الحبيب فتتلج قلبه وتشرح صدره ، وتجعل حياته باسمه ضاحكة - باقة الزهر ، وباقة الزهر تجمع ألوانا مختلفة من الزهور : ففيها الورد والياسمين ، وفيها البنفسج والياس ، وفيها الزنبق والأقحوان ، وفيها النوار والريحان ، وفيها الفل والترجس ، وغير ذلك من الزهور التي تشرح الصدر وتفرح القلب ، وتبهج النفس .

وقد فطن الأدباء منذ العصور الأدبية الأولى إلى لغة الزهور فقالوا : إن البنفسج معناه « أفديك بنفسى » وأن الورد الأحمر معناه الحب ، وأن الزنبق الأبيض معناه الصفاء ، وأن الأقحوان الأصفر معناه الفيرة وما إلى ذلك من معان ابتدعها خيال الشعراء ، وتعلق بها المحبون على مر الأيام .

والأزهار نفحة من نفحات الإله عز وجل الذي أبدع خلقه ، وأحكم صنعه وكل زهرة من الأزهار تحمل معنى رقيقا ، وهدفا رفيعا ، وآية ناطقة على قدرته وجماله ، فإله جميل يحب الجمال .

وفي هذا يقول الشاعر خليل مطران الذي أغرم غراما شديدا بالزهر حتى يمكن أن نعتبره شاعر الزهر فضلا عن أنه شاعر القطرين بل الأقطار العربية :

يا رب اعظم بما وضعنا
في الكون من آيك العظام
أدق شيء مما صنعنا
كجملة الخلق بالتمام
نشرت نثرا فجاء نظما
بدعوة جلية البيان
وكل بيت به استنما
قصيدة تخب الجنان
لكن في صنعك الجليل
أحب شيء لنا الزهر

خلقته بهجة العقول
ومرتع النحل والفكر

تكاد من خلقه الجميل
تجتمع النفس في البصر

وبعض الناس يحب أن يهدي إلى أحبابه باقة من الورد ، والورد
دليل على الحب والخجل لأنه يجمع طابع الحب المشتعل والغرام المتقد
حيثما يحمل حياء العذاري الذي يفرج بحمرته وجنانهن . والورد
أمير بين الزهور (على حد تعبير الخليل) :

طوائف هذه الأزاهر وكل حزب له أمير
ملكها الورد لم يكابر منظر فيه أو نظير
نقلد التاج من جواهر وقام للحكم على السرير

أما الفل فآية على نقاء النفس وصفاء الطوية ، وكذلك الزنبق
الابيض الذي بكلل هامات الرياض والربى ، ويخلو لكثير من الفتيات
أن يصنعن من الفل عقدا نضيدا ، يحلين به صدورهن أو تاجا نظيما يزين
به رؤوسهن ، وما أجمل هذه الأبيات التي نظمها الشاعر في وصف
حناء زانت رأسها بطاقة من الفل الابيض الناصع :

زانت الرأس بفل هو بالراس تحلى
مارات قبلك عيني وردة تحمل فلا

والترجس إنما هو ابتسامة الفجر ، بعد هبوط الظلام ، وتحقيق
الرجاء بعد انقطاع الأمل وهو أشبه شيء بالروح المقبل من الملا الأعلى
في ثوب الملائكة الأطهار لا في ثوب البشر الذين يعيشون على الأرض :

إنما الترجس ابتسامة فجر
الطفت نسجها يد الرحمن

قام في كلة البياض فكانت
ثوب روح لا ثوب جسم فاني

زنبق ناصع البياض تقى
ترتوى من بياضه العينان

وجفون من نرجس داخلتها
صفرة الداء في محاجر عاني

وورد كأنها ملكات
برزت في غلالل الأرجوان

وافانين من شقيق ومن فل «م»
ومن مضعف ومن ريحان

والترجس له قلب اصفر اللون كالذهب النضار ، وحوله غلالل
مشرقة ناصعة البياض ، ومن هنا كان وحياً والهاماً للشعراء ، فقلبه
أشبه ما يكون بالذهب ، وغلالله أشبه ما تكون بالأنامل أو الأصابع
البيضاء ، وفي ذلك يقول الشاعر :

كأنما نرجسنا وقد تبدى من كذب
أنامل من فضة يحملن كاساً من ذهب
وما أحلى الترجس وقد بلله الندى فبدا كأنه يسكب الدموع مع
أن وجهه مشرق وثغره باسم تتلألا عليه الابتسامة ، ويشرق منه النور
فقال ابن الرومي :

ونرجس كالثفور مبتسم
له دموع المحدث الشاكي
إبكاه قطر الندى وأضحكه
فهو من القطر ضاحك باكى !
وأغلب الشعراء يشبهون العيون الجميلة الواسعة بزهر الترجس
لما يشع منها من بريق ساحر وسحر أخاذ :

وأحسن ما في الوجوه العيون
وأشبه شيء بها الترجس
أما شقائق النعمان فهي أشبه بالورود الحمراء في لونها وسحرها
وجاذبيتها ، وهي تبدو وسط المروج الخضراء تبهر العين وتسحر القلب ،
ولا سيما عند ما تميل في يد الريح ذات اليمين وذات الشمال ، وقد
وصفها شاعر فقال : (القاضي عياض) :

انظر الى الزرع وخاماته
تحكى وقد مالت أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة
شقائق النعمان فيها جراح

أما البنفسج فقد شبهه بعض الشعراء بزرقة اليواقيت أو بالكحل
في الحاظ الملاح المراض الصحاح ، الفاترات القاتنات ، المحييات القاتلات
أو كالمحب المهجور ينطوى على قلب مسجور على حد تعبير أبي العلاء
السندي في رسالته عن البنفسج .

ومن الطيف الأوصاف التي أطلقها الشعراء على زهر البنفسج أنه
يبدو كأنه القرص في حدود العذارى وفي هذا يقول الشاعر ابن الرومي
أو الحسن الشاطبي :

أشرب على زهر البنف سج قبل تأنيب الحسود
فكأنما أوراقه آثار قرص في الخدود

كما قال شاعر آخر : (ابو هلال العسكري) :
وبحافاتها البنفسج يحكى الرقرص في خدود العذارى
أما الياسمين فيبدو في تجمعه وبياضه كأنه اكليل العروس ،
يحمل معنى السعادة والهناء والخير والرخاء ، غير أنه في نظر بعض
الشعراء كالأنامل البيضاء والعجيب أنها أنامل من غير أكف :

وروضة نورها برف مثل عروس اذا تزف
كانما الياسمين فيها أنامل ما لها أكف
أما السوسن فيحمل عند الشعراء طابع الزهو والاعتداد ، وهو
عندهم أشبه بأذناب الطواويس حيناً أو بملاعق من ذهب حيناً آخر
أو نحو ذلك غير أنه يحمل في جميع الأحوال بشير الربيع الطلق الضاحك :

ان كان وجه الربيع مبتسماً
فالسوسن أعجبتني ثنياه
يا حسنه ضاحكا له عبق
كطيب ريح الحبيب رياه
وقال شاعر آخر :

انظر الى السوسن في منبته
فانه نبت عجيب المنظر
كانه ملاعق من ذهب
قد خط فيها نقط من عنبر

وهذه هي بعض أنواع الزهور في نظر أصحاب الشعر وأرباب
الخيال فتبارك الله خالق الأشجار والأزهار ومبدع الليل والنهار .
وما أجمل هذه الباقة حينما تحملها الى هؤلاء الذين ألم بهم الداء
فتكون بشير براء وشفاء ، فأنما الأزهار لا تعيش الا للخير ولا تحيا الا من
اجل التضحية والفداء :

انما الزهرة خلق عجيب
فطرة سمحاء سمو الفطرا
خلقت للخير خلقا صافيا
جاوز الضيم وفاق الفيرا
شأنها تضحية النفس ولا
شيء غير النفع تبغى وطرا

وهذه الأزهار تكون في مجموعها طاقة ناضرة ، وطاقت الزهر هدايا
المحبين الى أحبائهم حول الأسرة البيضاء ، وفوق كل طاقة بطاقة تحمل
اسم مرسلها وهي تعبر عن شعوره واحساسه ولكنها في الوقت نفسه
رمز لا أكثر ولا أقل لما في نفسه من طاقة حب واعزاز ، وفي هذا المعنى
يقول الشاعر :

لو أن ما نتمنى يكون مثل بطاقة !
أهديت جنة ورد وما رشت بطاقة !
لكنني من دماي نظمت هذى البطاقة !

أما في القرب فإن الزهور كذلك دليل على الحب ، وآية على الهيام
ووسيلة إلى التهادي بين المحبين ، وكانت الأزهار على اختلاف أنواعها
وتباين ألوانها تحمل مشاعر خاصة للشعراء ولا سيما الشعراء الوالهيين
المتدلهين !

ولقد تولدت في الأدب القديم قصص كثيرة تدور حول هذه الأزهار
منها أسطورة الصلبي والترجس Echo and Narcissus
وخلصتها أن « أكو » عروس الجيسال كانت بأهرة الجمال ، وكانت
تسرف في الحديث عن نفسها أسرافاً مما أدى إلى أن الآلهة دبانا
حرمتها النطق اللهم إلا الرجوع الأخير من الكلمات وشاء القدر أن تقع
« أكو » في غرام شاب جميل يدعى نارسيس وهو الترجس ، وهمت
بمفازلته إلا أنها عجزت عن ذلك فأوت إلى الصخور حزينة أسيفة .

وتشاء الظلروف أن تنتقم من نارسيس ، فرأى يوماً صورته
معكوسة على الماء فأحبها بعدما رفض أن يحب أكو في وضعها المزدري ،
ولكن لا سبيل إلى ضم الحبيب فاعتزل في حزنه حتى مات ، فأرادت
العرائس أن توارى جسده في قبر من القبور يليق به ، ولكنها لم تجد من
جسده إلا زهرة تحمل اسمه وهي زهرة الترجس ، ولعلها رمز إلى
زهرة الترجس التي تنمو على حافة المياه وضفاف الغدران .

كما ظهرت في الأدب الفرنسي في القرون الوسطى قصة الوردة من
القرن الثالث عشر وكتب الجزء الثاني من القصة جان دي مونيه بعد
ذلك بنصف قرن تقريباً ، ثم أتى بعد ذلك جوفري تشوسر في القرن
الرابع عشر ، فترجم قصة الوردة من أصلها الفرنسي إلى الإنجليزية .

وتدور هذه القصة حول مقاومة طافت بجفن وسنان فرأى في بشر
بلورية منظر الروع الزاخر بالحسن ، ووجد في قاع البئر شجرة ورد
وأرقة الأغصان تتوجها وردة كبيرة متفتحة الأكمام رشق بسحرها
بخمسة من سهام الحب في وقت واحد .

ولم تكن الأساطير هي كل ما يميز الأدب الغربي حول الأزهار
والورود ، إنما كانت أداة من أدوات الخيال والجمال في العصر الرومانتيكي
وكانت البساتين مرتعا لخيال الرومانتيكيين .

وكان الشاعر وليم وردزورث شاعر الطبيعة المرموق في الأدب
الإنجليزي قد التقى بالشاعر كولريدج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) واشتركا
في ديوان القصائد الغنائية Syreca Ballads وبعد هذا الديوان
من أعظم الوثائق في الأدب الرومانتيكي والتغنى بالحب والجمال والأزهار
والرياحين .

وقد جعل الرومانتيكيون الأزهار تحب وتمشق ، وتحن وتنال ،

بل أن بعض الشعراء مثل هاينريش في الأدب الألماني جعل شجرة الصنوبر تحلم والزهور تعشق وصور شجرة الصنوبر وهي تغف وحيدة تنام ملتفة في كساء أبيض من جليد ولج . وتحلم بشجرة نخيل بعيدة في بلاد الشرق .

وديوانه « أناشيد الليل » الذي ظهر عام ١٨٠٠ ملئ بالصورة الشعرية الجميلة حول الأزهار العاشقة والورود المتدللة بالحب والجمال .

أما بيرون فقد أطلق خياله في ذلك كل منطلق حتى أنه كان يقول : « اننى لا أعيش في ذاتي ، ولكنني أصبحت قطعة من كل ما يحيط بي ، حتى أن الجبال العالية تبدو في نظري كأنها عاطفة » .

ويمثلي ديوانه « ساعات الكسل » بصور طريقة حول نفسه التي تنفتح للحب كما تنفتح الوردة عن اكمامها تستقبل الربيع ، وحول الأزهار الدائبة الداوية المتناثرة على الأرض ، وحول الغابات المتجردة من أوراقها التي ناهت فيها طفولته . وكان بيرون يقول : « لكني يصبح المرء شاعرا يجب أن يكون محبا أو شقيا وقد كنت الاثنين حين كتبت « ساعات الكسل » .

وبهذه الروح مضى بيرون بصور الزهور المتصوحة ويعكس مشاعره على جمالها وهو يجوس خلال الروابي المعشوشبة .

وقد استمد الرومانتيكيون خيالاتهم من ذواتهم ومن تلك الصور الشعرية الأخاذة التي لاحت في شعر شكسبير الذي كان وحيا وملاذا للرومانتيكيين الأوائل ، ومن شعر غيره من الشعراء الذين عبروا عن خلجات نفوسهم ونبضات أحاسيسهم كالشاعر المعروف روبرت هرك الذي قال في الترجس :

أيها الترجس اننا لنبكي اذ نراك

تمضي الى الغناء وشيكا

هانتذا تمضي والشمس التي بكرت في شروقها

لم تبلغ بعد في السماء أوجها

قف ! قف !

حتى نرى النهار المسرع في خطاه

قد انقضى

قف حتى تغنى انشودة المساء

.. فاذا ما ادبنا الصلاة معا

فسنمضي معك الى حيث تريد

ويطرب الشاعر تشارلز سوينبرن ١٩٣٧ - ١٩٠٩

Charles Swinburne من الورود

ويكتب «بالاد» بعنوان : Ballad of Dream land

« منفلومة أرض الأحلام » جاء فيها :

أخفيت قلبي في عش من ورد
أخفته هنالك من أشعة الشمس
أرقدته على فراش أندي من القطن المندوف
تحت الورود أخفيت قلبي
لماذا لا يأخذه النعاس ؟ لماذا ينتفض وهو يقظان ؟
وليس على شجرة الورد ورقة تتحرك
ما الذي جعل الكرى يرف بجناحيه بعيدا عنه ؟
لعلها انشودة طائر خفي !

فشارلز سوينبر يجد مثواه في عش الورد ، حتى يدوق طعم
الكرى ، بيد أنه يظل ساهدا ساهما يفكر وقد اتخذ مقره في عالم الأحلام .
أما الشاعر الأمريكي روبرت فاوست فإنه اتخذ من منظر رآه
على زهرة من الزهور وسيلة إلى الفلسفة والنظرة في الحياة فقال في
قصيدة «خطة» :

رأيت عنكبوا أبيض سجيئا ذا رصعات
على زهرة بيضاء يحمل فراشه
كقطعة بيضاء من الساتان
مزيجا من أشخاص الموت والأحمال
اختلطوا من أجل الابتداء عند الصباح كما ينبغي
كالعناصر الخليفة في قدر ساحرة العين
عنكبوا كندفة الثلج وزهرة كالزبد
وأجنحة ميتة مشرعة كطيارة من ورق
لم كانت الزهرة تلك بيضاء ؟
وكانت كعبدى بها على جوانب الطريق زرقاء برشة
وما الذي أتى بالعنكب السبيء إلى ذاك العلو ،
ثم اقتاد الفراشة البيضاء هناك ليلا ؟
خطة من الظلام مروعة لا غير !

وتصور هذه القصيدة النزعة الشاؤمية أصدق تصوير غير
أنها صورة من التفكير المذهب المكروب الذي يعتبر الحياة خطة من الظلام
مروعة ، وحجبا من الطلاس وضروبا من الألغاز .

كما تثير التساؤل من طرف خفي حول تصرف المقادير وكيف
وأي متى ؟

وكتب فيكتور هوغو قصيدة بعنوان « القبر والوردة » صور فيها
حوارا بين القبر والوردة جاء فيه :

قال القبر للوردة :

ماذا صنعت يا زهرة العشاق

بقطر به الفجر روالك ؟

فقلت الوردة للقبر :

وانت ماذا صنعت بالاولئل الذين هبطوا

جوفك الذى لا ينى عن التقام الاجساد ؟

وقالت الوردة :

ايها القبر البهيم

من ذلك القطر اصنع

شهدا شهيا وعشيرا

فقال القبر :

« يا وردة شائكة

كل روح هنا قدم

سيرته من ملائكة السماء !

وهكذا كان ذكر الازهار والورود في الأدب الغربى لونا من الوان
الجمال البديع ، والحسن الرفيع كما كان لونا من الوان الفلسفة الجادة
والتأمل في الحياة والاحياء ، وفي البقاء والفناء ، وفي الدور والخلود ،
ولم يكن أثر الازهار متوقفا على التشابيه الرقيقة والتصاوير الجميلة
والخيالات المنطلقة والتأملات السابحة .

ولم يكن الجمال في نظر اغلب الشعراء الغربيين شيئا جزئيا
ملموسا محسوسا ، انما كان جمالا كليا شاملا كاملا ، وكان صورة
متناسقة متسقة توحى بالمشاعر وتلهم الأفكار ، وتبعث التأمل ، وتحمل
المشاعر المعكوسة والاحاسيس الانسانية في هديرها وسكونها وفي حركاتها
وخطواتها في يد الريح ذات اليمين وذات الشمال .

حديث في القصة

بين الشرق والغرب

نشأت القصة منذ فجر التاريخ ، وذاعت وشاعت على الألسنة منذ أن كون الإنسان المجتمع ، ولقد امتزجت القصة عند الإغريق بالميولوجي والخرافات والاساطير ، كهذه القصص الخرافية التي نجدها عند هزبود ، وقد استمد هوميروس قصصه من الحرب التي نشبت بين الإغريق والطرواديين وحلفائهم ، وهي تلك الحرب التي دامت عشر سنين ، كما استمد الأوديسة مما جرى لأحد أبطال الإغريق وهو أوديسيوس بعد سقوط طروادة .

وقد وضع هوميروس بهذا أساس الشعر القصصي في الأدب الأوربي ، فنشأت الملاحم التي ألفت على غرارها ، مثل الياذة فرجيل ، وكوميديا دانتي ، وفردوس ملتون ، وملحمة أرلندو الغاضب لأريستو ، وغيرها من الملاحم .

وقد تفرع من هذا الشعر القصصي لون آخر من الأدب وهو فن القصص ، وقد تقدم على مر الأزمنة حتى أصبح فنا قائما بذاته في الآداب الأوربية .

ولم يعرف التاريخ قصة أقدم من القصة المصرية ، وذلك لأن المجتمع المصري كان أول مجتمع عرفه التاريخ ، فهناك قصة السحرة الثلاثة التي ترجع إلى ألفي سنة قبل الميلاد .

وقد عرفت مصر في عهد الدولة الوسطى في تاريخ مصر القديم قصة سنوحى ، وقصة البحار الفريق ، وتنسب كل منهما إلى الأسرة الثابتة . أما في عهد الأسرة التاسعة عشرة فقد عادت القصة المصرية إلى الازدهار ، وشغف أدباء هذا العصر بكتابة القصص الفرامية والخيالية . وقد بلغ إعجاب المصريين بالقصص حدا كبيرا ، إلى درجة أنهم وضعوها إلى جوار الميت في قبره لتسلية أبعاد الوحشة عنه ، وعرف المصريون القدماء كذلك قصص الأسفار والملاحين الذين تاهوا في البحار ، أو الهداة الذين ضلوا في القفار .

وربما عرف الأدب الجاهلي كثيرا من القصص ، ولكن الذي لا شك فيه ولا محيص عنه هو أن الأدب الجاهلي لم يصل إلينا كله وإنما وصل إلينا بعضه ، بل إن قدر ما وصل إلينا من النثر الجاهلي لا يعادل قدر ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي مع ما فقد من التراث الجاهلي .

وحرب عبس وذبيان ، وحرب المهلهل بن ربيعة وسيف ذي يزن ، واجراء النيل من جبال القمر كل ذلك اوحى بتأليف كثير من القصص .

وما أن جاء القرن العاشر للميلاد حتى وجدنا قصص ألف ليلة وليلة قد شغلت الناس فترة طويلة من الزمان ، نجد فيها قصة قمر الزمان ، وابن الملك شهرمان ، والسندباد البحري ، وعجيب وغريب ، وفيروزشاه . وقد ترجم كتاب كليلة ودمنة الى اللغة العربية ، وكان اصله الاول هنديا ، فاضاف ذلك العمل الى القصص العربي ثروة كبيرة . ولكن بعض ادباء العرب كانوا يعتبرون كتاب « ألف ليلة وليلة » (كتابا غشا باردا) كما روى ذلك المسعودي في مروج الذهب وابن النديم في الفهرست ، ولكن السواد الاعظم منهم ينظرون اليه ككتاب قيم مفيد وراث ادبي كبير ، وقد تمنى الكاتب الفرنسي ستندال أن ينساها ليقرأها مرة أخرى ويلتذ بقراءتها .

ولقد وجد قصاص في المساجد يقصون على الناس اخبار الامم السابقة ، ويعظونهم ويرشدونهم الى الطريق السوي المستقيم ، كعبد الله ابن سلام ، والحسن البصري ، ووهب بن منبه ، وتميم الداري ، بل لقد اضاف بعض المفسرين في تفسير القرآن عنصر الاسرائيليات وهو الذي قام به بعض اليهود الذين اسلموا ، ككعب الاحبار ، ووهب بن منبه ، كما يقول المستشرق الالماني (جولد تسهر) وقد ذكر ابن الاثير أن ابن ورقاء في حوادث سنة ٧٧ سار في اصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ، ولما لم ير القصاص التفت وقال : ابن القصاص فلم يجبه احد ، فقال : ابن من يروي شعر عنثرة ؟ فلم يجبه احد .

وقد شاعت الوان اخرى من القصص في الادب العربي ، كمقامات الحريري والهمداني ، ولكن هذه المقامات كانت تعنى في الغالب باظهار البراعة في الاسلوب ، والسجع في التعبير ، وتلجأ الى التزويق اللفظي والتنميق اللغوي .

ولقد نهضت القصة في الادب العربي في العصر الحديث وتخلصت من هذه المظاهر وتنوعت وتعددت ، فالتفت القصة التاريخية ، والتفت القصة الواقعية والقصة الخيالية ، والتفت المرحية . وقد لقيت القصة المصرية على يد الدكتور طه حسين وتوفيق الحكيم خيرا كثيرا وتقدما كبيرا . واوشكت أن تطفئ علم الشعر طغيانا عظيما ، وحلّت حذو القصة الأوروبية في مناهجها وطرائقها وطرق عرضها ، ولا عجب في هذا ، فالقصة في الادب الأوروبية الحديثة اهم انواع النشر الانشائي وأكثرها ذبوعا ، وقد شاعت على أيدي سكوت وذاكري وديكنز وهاردي في الادب الانجليزي ، وبلزاك وأميل زولا وأمانتول قرانس وموبسان في الادب الفرنسي .

وقد تعددت انواع القصة ، فهناك الاقصصة ويسمونها الفرنسيون anecdote وهناك القصة القصيرة ويسمونها الفرنسيون Conte والرواية ويسمونها الفرنسيون Nouvelle

وقد قال سارتر في إحدى مقدمات كتبه : « اننا يمكن ان نقول - بعض التحفظ - ان القصص الجميلة تصبح مشابهة تماما للظواهر الطبيعية ، فنسى انها من تأليف مؤلف ونعتبرها كصخرة من الصخور او شجرة من الاشجار ولهذا السبب فانها تعيش » .

ونحن اذا ما استمعنا تعبير سارتر وجدنا كثيرا من القصص والروايات الخالدة بين ظهرائنا خلود هذه الصخرة الشماء التي لا تدركها يد البلى ، او هذه الدوحة الفارحة التي لم تصل اليها يد الفناء . واني لأذكر ان مستر د. س. سافج Savage قد كتب منذ عهد قريب كتابا عن القصة الحديثة عنوانه : « دراسات ست في القصة العصرية » وقد تحدث فيه عن القصة عند ارنست همنج ، وفورستر ، وفرجينيا وولفي ، ومارجريت ابقاتر ، والدس هكسلي ، وجيمس جويس ، ولكن سافج قبل ان يبدأ حديثه عن هؤلاء القصاصين تسأل : ما الفكرة ؟ واستطرد قائلا : ما القصة ؟ بل ما الفن ؟

وهكذا كان سافج مثله كمثله الذي يقف على المرح قبل ان يرفع الستار ليقول دعونا ننسى هل تعجب هذه المرحية او لا تعجب ؟ ودعونا نعرف أولا لماذا جئتم الى هنا ؟ !

والواقع ان سافج Savage قد اضطر الى ذلك اضطرارا ، فهو يعتقد ان للفن تأثيرا شديدا واعتمادا كبيرا على الحياة وعلى التجربة الانسانية ، فالعمل الأدبي يحمل بين ثناياه تصحيحا وتوازنا بين الشخصيات الدائبة والموضوعية وبين الكلى والجزئي ، والدائبة تلتقي دائما مع الموضوعية ، فنجم عن ذلك عنصر جديد هو عنصر الصدق التام في الاداء .

ويضيف مستر سافج الى هذا قوله : ان القصاص يقدم الحياة كفن من الفنون كما ان الفنان يقدم الفن كفكرة من الفكرة راسما معانيها الخفية ، متبعا اياها حتى الظهور .

اما فورستر Forster فيقول عن « سافج » انه من الطائفة الثانية من الكتاب والطائفة الاولى عنده هم هؤلاء الكتاب الذين يستمدون مؤلفاتهم من واقع الحياة ، اما الطائفة « الثانية » عنده فهم هؤلاء الذين يتخذون قصصهم من سراع داخل في النفوس .

وصافج Savage يعتبر « فرجينيا وولف » قصاصة من نوع غريب ، فهي لا تقسم الحياة الا كتقسيم دقائق الساعة فقصة « مسز دالوي » مثلا قصة رمزية رائعة تصور تاريخ بيت على شاطئ البحر ، واحلام طفل في سبيل الوصول الى المنار الذي يتالق نوره في وسط البحر ، وتاريخ حياة رجل يصل الى هذه الحقيقة عندما يترك مرحلة الطفولة والشباب فاذا هي حقيقة سقيمة عقيمة .

اما جيمس جويس James Joyce ففي روايته بوليس قد برع في تحليل الاحساسات المكبوتة والرغبات المكبوتة وقصة بوليس عبارة عن تاريخ يوم من ايام مستر بلوم والناس الذين يتنزهون في

المدينة في ذلك اليوم ، وقد عدتها مسز « فرجينيا وولف » فضيحة هائلة وجريمة منكرة ، وذلك لأنها تنتهى بليلة فاجرة .

وقد ظهرت الرواية التاريخية عند موريس هيوليت Hewlett في كتابه عشاق الغابة كما ظهرت عند ستانلى ويمن Stanley weyman في قصته (بيت الذئب) ، وقد حاول ستانلى هذا منافسة الكسندر ديماى الكبير ، فكتب تاريخ فرنسا في شكل روايات .

وقد ظهرت القصة النفسية على ايدى كتاب كثيرين ، اهمهم د. هـ . لورنس D.H. Laurence الذى تعلم على يد سيجموند فرويد وموريس بارنج Baring صاحب القصص النفسية الكثيرة .

اما القصة الاجتماعية ، فقد ظهرت عند اسرائيل زانجويل Zangwill الذى وصف حياة اليهود في كثير من قصصه ، وجولزورنى Galsworthy ، والكاتبة الامريكية هاريت ستو Harriet Stowe التى وصفت حياة الرقيق في كثير من قصصها ، كقصة (كوخ عم توم) .

وليس من شك في ان القصة - سواء كانت تاريخية ام نفسية ام اجتماعية - تحتاج الى فن في تأليفها ، والى قواعد في تنظيمها ، فينبغى ان تكون للقصة وحدة متينة يحاول الكاتب دائما ان يبرزها في اطار واضح مبين ، وينبغى له ان يخضع اسلوبه لموضوعه لا موضوعه لاسلوبه ، كما ينبغى له ان يحسن رسم الشخصيات ، ويحلل مشاعرها ، ويحكم اقوالها وافعالها ، فلا يصدر عمله الا عن صدق ، ولا يبني كلامه الا على معنى ولا يرسم شخصياته الا عن فكرة ، كما ان الكاتب انقصى ينبغى ان يعنى بأسلوب قصته ولفتها والا ينقلب الى واعظ يعظ الناس بل يتخذ من الوسائل في عرضه ومعالجته ما يجعل الأذان مصغية اليه ، والاسماع مشوقة الى شخصياته . وأن يفرق بين القصة والاقصصة وبين الحكاية والرواية .

وتتردد القصة بين القصر والطول على حد تعبير شارلتون ، فالقصر لأنها تصور افعالا مقصودة ، وقد تقف منها وقفة طويلة محلة مفصلة ، وليس فيها قصر الرواية المسرحية مثلا في التصوير ، فالكاتب المسرحي يكتفى بالإشارة ، فاذا صور وليمة مثلا كوليمة شكسبير في ماكبت ، أو حفلة عشاء أو سمر كما فعل البيوت في حفلة كوكيتل في مستهل الرواية اكتفى بالمنظر دون مقدماته وباعشه . اما الكاتب المسرحي فانه يمهّد لهذه الحفلات بأسلوبه ولا ينزع الافعال لجسمها تجسّما على المسرح كما يفعل الكاتب المسرحي .

ويقسم بعض نقاد الادب القصة قسمين : القسم الاول الخيالى كقصص رحلات جوليفر وروبنسن كروزو وغيرها ، والقسم الواقعى . ومن اقصص الواقعية قصة بلزاك « جلد الاحزان La peau de chagrin » وهى قصة رجل يملك جلد احزان وقد جمع قوة سحرية عجيبة تمكنه من تحقيق رغائبه ، ولكن الجلد اخذ يتقلص الى

ان استنفد الرجل جميع رغباته فاستنفد حياته ، ورواية كندية
لفولثير اقصوصة فلسفية تسخر من التفاؤل والمتفائلين ومن الفيلسوف
الالماني ليبنتز الذي يقول : اننى على خير حال فى خير عالم ممكن ، وهى
قصة رجل طيب ساذج يدور مع استاذة بنجيليوس ، فيلاقى مايلاقى
من محن وقرصنة وعذاب .

وقد صور جوستاف فلوبير فى قصته « سلامب » الحرب التى
كانت بين قرطاجنة ورومة . ويعد اميل زولا زعيم الروائيين الطبيعيين
فى فرنسا ، وقد ظهر المذهب الواقعى فى منتصف القرن التاسع عشر فى
لوحات ميليه وكوربيه وروايات فلوبير والقونىس دوديه .

اما المذهب الطبيعى فزعيمه موباسان وزولا اللذان كانا يريان
تطبيق مبادئ العلم ومناهجه التى بسطها كلود برنار فى كتابه الشهير
« مقدمة لعلم الطب التجريبي على الأدب والقصة » .

لغتنا أمنا الكبرى

ووسيلتنا الى نهضة الشرق

ان اللغة العربية هي امنا الكبرى في شتى الاقطار والامصار ، ويجب ان نصولها ونرعاه ونحرم عليها لا ان نجعلها عرضة لتيارات مختلفة توهم من قوتها وتفت في عضدها ، لانها لغة القرآن الكريم الذي لا ياتي به الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولانها لغة التراث الادبي الرصين الذي انحدر اليها منذ أبعد الحقب وعابر الأزمان .

فهناك ظاهرة واضحة تسيطر على الادب في هذه الفترة ، وهي انسياق الكتاب نحو الاسلوب العامي واينارهم لهجة المحلية في حوار القصص والمسرحية بحجة الدفاع عن لغة الشعب ، والواقع ان هذا ليس من الحق في شيء فليس الادب الشعبي هو المكتوب بلغة العامة انما الادب الشعبي هو الذي يستلهمه الفنان من روح الشعب ومن مختلف بيئاته فيعبر به عن مشاعر هذه الامواج المتدفقة من الناس في خضم الحياة ، وان هذا الادب الشعبي ليمثل الجانب الاكبر من الادب الحي الحالد في كل امة من الامم وفي كل عصر من العصور .

ومما لاشك فيه ان استخدام اللغات العامية يضعف من العرى والوشائج بين البلاد العربية لاننا عندئذ سنكون حيال سبيل متلاطم من الالفاظ والعبارات والاساليب المحلية التي هي كالعملات الخاصة لا تصرف الا في مواطنها ولا تستطيع ان تحيا في غيرها من الامم والبلاد .

فمن الالفاظ التي تستخدم في اساليبنا العربية كلمة يصفق فهي تستعمل في اللهجة المصرية على نحو « ساف » وهي كلمة متحولة اجتمع فيها القلب والابدال ، وفي سورية يقولون (يسفا) بقلب القاف همزة ، وفي العراق يقولون « يصفق » بنطق القاف كافا فارسية ومثل ذلك في كلمة « اول » التي تلفظ بفتح الواو في العراق على حين تقال في اللهجة المصرية اول بكسر الواو ، وكذلك الحال في كلمة اضرب فتلفظ في بعض البلاد العربية بكسر الراء ، اما في اللهجة المصرية فيقولون « اضرب » بفتح الراء مع قلب الضاد دالا .

وغير خاف ان الاختلاف في النطق فضلا عن الاختلاف في التركيب في كثير من الالفاظ والاساليب يقودنا الى الغموض ، ويحيل العبارة العربية الى لون من الطلاسم مما يبعث التفكك بين الامم العربية ويشير الاضطراب بين شعوبها .

ان لغتنا العربية لغة ممتازة فيجب أن نحرم عليها ونصونها
ونرمي تاريخها الحافل المجيد حتى نقوم بتوثيق الروابط بين البلاد
العربية : ومما يروى في هذا الصدد أن القائد الألماني بسمارك قال ذات
يوم « ان اهم حقيقة يجب أن نسجلها في القرن التاسع عشر هي قيام
الوحدة اللغوية بين بريطانيا وأمريكا » وقد سار بسمارك على هذا النهج
في توحيد الولايات الألمانية .

كما خطب تشرشل في أمريكا ذات يوم وقال في جموع الأمريكيين
في واشنطن « يجب أن نعمل في القرن العشرين على تحقيق ما قاله بسمارك
في القرن التاسع عشر » .

وان من يرجع الى تاريخ اللغة العربية يجد أن لغتنا هي أم اللغات ،
وقد اشتقت منها لغات كثيرة الفاظا عدة . وقد تمكن الاب العلامة
أنستاس ماري الكرمل الى الوصول الى كثير من الحقائق عن هذه اللغة
بعد كثير من أعمال الرواية والبحث والتنقيب فكلمة Habere
وبالفرنسية Avoir وبالانجليزية to have من اصل عربى هو حوى .

ويقول الاب أنستاس الكرمل : « أما كيف اهتديت الى أصلها
العبراني فكان نتيجة عمل هذا وهو أني حذف من آخر Habele
الحرفين الأخيرين «الدالين على كاسعة Suffix تكسح بها أواخر
أفعالهم فيبقى منها Habe ولما كانت الواو العربية في القديم تصور
بالباء ولم يكن لهم هاء بل يصرف منها الهاء أي H برز لنا فعل «حوى»
وهو معنى الفعل اللاتيني ، ومن هذا الأصل اخذت الانجليزية To have
والفرنسية Avoir وغيرهما من الكلم التي تعد بالعشرات بل
بالمئات وهذا الفعل كما تعلم أساس مركبات أفعال كثيرة في اللسنة
العربية الأوربية .

والفعل الثاني يكثر في الستهمة Esse وبالفرنسية Etre
وباليونانية الدورية والابولية Essi أي (أنت موجود) فانظر كيف
تنتقل اللفظة من حالة الى حالة ومن لغة الى لغة والأصل واحد وهو
العربي « أيس » فاذا لفظتها بحركتها كانت لاتينية أو كالاتينية أي Esse
نعم ان كلمة أيس لا وجود لها في لغتنا الحالية لكنها كانت في سابق
العهد ، وقد انتبه لها علماءنا اللغويون الاقدمون قال في تاج العروس :
« ليس .. أصلها لايس طرحت الهمزة والنتت اللام « بالياء » وهو قول
الحليل والفراء والدليل على ذلك قولهم أي العرب : اتثنى به من حيث أيس
وليس أي من حيث هو ولا هو وكذلك قولهم : جىء به من أيس وليس
أي من حيث هو ولا هو وكذلك قولهم جىء به من أيس وليس أو معناه
من حيث وجد أو أيس أي موجود ولا أيس أي لا موجودا فخفوا .

وفاكية «الموز» عرفها العرب في الأندلس فأطلقوا عليها اسم البنان
أي الاصبغ ، فأطلق عليها هذا الاسم في كل اللغات الأوربية Banane

وقد اخذت بعض اللغات الشرقية من العربية جملة من الالفاظ
بيد انها لم تستطع النطق بالحروف العربية التي ليست في لهجاتها ،

فالفرس لم ينطقوا بهذه الحروف « ث. ح. ص. ض. ظ. ع. ق » وكذلك المتعلمون باللغة الاردية ، والترك نطقوا من هذه الحروف بالقاف لانها في لغتهم وتركوا الحروف الاخرى وحذفوا في بعض الاحيان ، اداة التعريف من الكلمات العربية الا في كلمات قليلة وجعلوا هاء التانيث تاء : زحمت وعصمت وفطرت ، وانحرفت بعض الالفاظ العربية عن معناها في اللغة العربية كما قيل في الفارسية صحبت بمعنى محادثة وزحمت بمعنى مشقة وقيل في التركية معصوم بمعنى برىء ومحجوب بمعنى خجل .

ولكن اللغة العربية في اثناء ذلك كله كانت الاساس الاول في اصول هذه الالفاظ والتي انجب عنها الابناء .

والاستفاد من هذه الشواهد ان اللغة العربية اثرت في كثير من اللغات . فلها ظل ممتد اصيل ومجد اصيل يجب ان نحرص عليه ونصونه في اميننا وقلوبنا .

ومن ميزات اللغة العربية التي تمتاز بها على غيرها من اللغات عنايتها بالاعراب ، اذ تتغير اواخر كلماتها بتغير العوامل الداخلة عليها بالرفع والنصب والجر والسكون ، ولا يشاركها في هذه الميزة الا اللغة الالمانية والحبشية ، وكل هذه اللغات امتازت شعوبها بمدنية عظيمة منذ فجر التاريخ . وليس من شك في ان الاعراب يساعد على تفهم المعنى والتخير بين الاساليب .

كما تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير بالفاظها وتراكيبها ، ولكل معنى لفظ خاص وهناك الفاظ لتأدية فروع المعاني او جزئياتها . فلكل ساعة من ساعات النهار اسم خاص : فالساعة الاولى الدور ثم الزووع ثم الضحى ثم الفزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم العصر ثم الاصيل ثم الصبوب ثم الحدود ثم الغروب ، ويقال فيها ايضا البكور ثم الشروق فالاشراق فالراد ، فالضحى ، فالمتوع ، فالهاجرة ، فالاصيل ، فالعصر ، فالطفل والحدود فالغروب .

وكذلك في اللغة العربية تفرعات للافعال كتفرع فعل النظر الى رمق ولمح ، وحذج ، وتوضح ، ورنأ ، واستكف ، واستشف .

ويحكى في معرض ثراء اللغة العربية ان الاصمعي حضر يوما مجلس الفضل بن الربيع وجرى الحديث حول الفرس ، فتذاكر الجلوس كتاب ابي عبيدة في الخيل ، فاراد الوزير ان يعلم ما عند الاصمعي في ذلك فقال له قم يا اصمعي وامسك كل عضو من اعضاء هذا الفرس وسعه فاذا سميتها فخذ « فقام وامسك بناصية الفرس وجعل يسميه عضوا عضوا وينشد ما قالت العرب فيه الى ان فرغ منه فاعطاه اياه .

كما تمتاز لغتنا العربية بالاعجاز والايجاز ، ولكل قوم اعجاز في لغتهم ، فيدلون بلفظ قليل على معنى كثير . ولكن العرب اقدر على ذلك من سواهم لان لغتهم تساعدهم عليه كما تمتاز اللغة العربية بالنفوق في المترادفات والاضداد ففي لغتهم ١٢٤ اسما ، وللنور ٢١ اسما ، وللظلام ٥٢ اسما ، وللمشمس ١٢٩ اسما ، وللحباب ٥٠

أسماء ، وللماء ١٧٠ أسماء ، وفيها مئات من الألفاظ يدل كل منها على معنيين متضادين مثل قولهم « قعد » للقيام والجلوس « ونضج » للعفش والرى . ونحو ذلك .

كما أن بها كثيرا من الألفاظ يدل اللفظ الواحد منها على معان كثيرة فضلا عن أن كثرة المترادفات في اللغة وتعدد المعاني للفظ الواحد جعلتها واسعة التعبير وسهلت على أصحابها السجع الذي عرفته العربية منذ أغوار العصر الجاهلي في سجع الكهان وحطب الخطباء

وكذلك تمتاز اللغة العربية بحلاوة الإيقاع ، وجمال النظم بين الألفاظ . ورسالة الجرس ، وهذه الظاهرة تتجلى بوضوح في أشعار الحماسة ، وأشعار الفزل ، إذ تمتاز بعض أشعار الحماسة بانتقاء الألفاظ المججلة والمدوية التي تهب كأنها العاصف الهوجاء كما تمتاز بعض أشعار الفزل بالرفقة والتناغم الموسيقي الجميل . ومثال الأول بعض شعر أبي تمام والمنتبى ومثال الآخر بعض شعر البحتري وبشار .

هذه هي بفتنا مناط آمالنا ولسان حالنا تلقى على عاتقنا مسؤوليات كبيرة وتبعات جساما ، وليس من الإنصاف في شيء أن ندعى ما يجده من اختلاف في اللهجات صراعا بين الأصول والعروج إنما هو في حقيقة الأمر انحراف وشدوذ نستطيع إصلاحه ونصح جماعه إذا ما أمنا بقضيتنا وأخلصنا في مسعا ، وحرصنا على التمسك بهذه اللغة .

واننا لا نبالغ إذا قلنا أن الكويتي ربما لا يفهم المصري في بعض عباراته كما أن المغربي ربما لا يفهم اللبناني أو السوري ونحو ذلك بل ربما أن الصعيدي المصري لا يفهم لهجة الفلاح في الدلتا في الوجه البحري من الأقليم المصري وهلم جرا .

ولكننا نستطيع برغم كل هذا أن نمحو هذه الفوارق إذا ما آمن أناس بقيمة هذه اللغة وشعروا بوجودها في حياتهم الخاصة والعامة فيما ينشر لهم من كتب أو صحف وفيما يداع عليهم من تمثيلات وبرامج إذاعية في الإذاعة والتليفزيون وفيما يدور بينهم من نقاش في الندوات والمحاضرات والاجتماعات على اختلاف صورها وتعدد الواها . وحينئذ نخلق وعيا عاما نحو اللغة العربية ووجوب التمسك بها .

كما يجب من جانبنا مضاعفة الاهتمام بالعربية في دور التعليم وتهذيب كتب النحو واللغة لأن ذلك ينمي ملكة الطالب في اللغة ويفقيه ما أمكن عن التراكييب العامية ويمنع اللهجة الأعجمية أن تستحكم في خاطره ، وتقوى على لسانه ، وتمهد له طريق الإنشاء ، فلا يشعر كأنه يكتب بلغة غير لفته ولقوم غير قومه ، كما يجب إصلاح طريقة الإنشاء بترك الوحشي من الألفاظ والغريب من التراكييب والمعقد من الأساليب واختيار المفردات والجمل التي يمكن العامي فهمها مع فصاحتها .

ولا بد من أن يبذل المسئولون في المجامع اللغوية جهودهم من أجل مساهمة اللغة العربية لتطورات العلم الحديث ، حتى لا تعيش في عزلة عن المجتمع دون أن تدون خصائصه ولا يسجل في صحائفها أسماء

الانقلابات الاجتماعية الخطيرة المحيطة بها والتطورات العلمية الجديدة التي تلتف حولنا من كل جانب كالتفتت الذرة والاشعة الكونية وذرات المادة والكهرباء والضوء ونحو ذلك ، اذ ان هذه الجهود سوف تضيق الى عمر اللغة العربية اعمارا جديدة ولا تمكن المتطرفين من خنق هذه اللغة ومن خنق لغته فقد خنق نفسه وكنم انفاسه وقد حواسه !

وما اصدق ما قاله بلا كمار العالم الاجتماعى الشهير : « لقد ادت اللغة دائما وظيفه مهمة في التنظيم الاجتماعى ، فقد تولدت بها من حيث انها اداة التقايم ، الجماعات الصغرى واعتزت ، وكذلك اتحدت جماعات اخرى ، وتتجاذب الشعوب ذات اللغات المتشابهة ، اما الشعوب ذات اللغات المتباينة ففيها ميل الى التنافر ، والصعوبة في اقرار النظام الاجتماعى بين الجماعات المختلفة ذات اللغات المتنوعة والافكار المتنافرة والمشاعر المتباينة صعوبة كبيرة جدا حتى انها تلاحظ اليوم في المدن الامريكية ومافيها من اهلين غير متجانسين .

ومع ان اللغة في مثل هذه الاحوال تدعو الى الانقسام كانت في الاصل مدعاة الى الوئام ، واللغة هي وليدة السعى للانصاح عما يخالف النفس من الافكار ، وكل من ينقب منا عن المجتمع البشرى يجد في فعل اللغة وفي رد فعلها سببا من الاسباب الداعية الى حدوثه ونتيجة من النتائج المتولدة عنه » .

وهكذا كانت اللغة دعامة قوية من دعائم المجتمع الصالح على انها رمز المجتمع والى نورها الهادى المتالى تعشو الاقوام الهائمة فى الظلام .

فلنجعل لغتنا العربية نبراسنا الهادى ونعمل على رد عادية المعتدين على لغتنا فانها مهددة بالهجوم كما هددت اشرف بقاعنا ، فان الحرم الذى لا تحميه القوة بابه مفتوح للفارة الشعواء ولنصرن الله من ينصره .

الأدب العربي أدب عالمي

تحت هذا العنوان نشرت جريدة الأهرام أنه قد ظهر في بريطانيا أخيراً كتاب جديد بعنوان « الشعر العربي الحديث » وهو مجموعة من الأشعار العربية المترجمة إلى الإنجليزية وضعها الدكتور أربري أستاذ اللغة العربية بجامعة كامبردج ومدرسة لندن للدراسات الشرقية والأفريقية .

واحِب بهذه المناسبة أن أذكر أن الأدب العربي فيه من اللذات القديمة والحديثة ما لو ترجمت إلى الآداب الأجنبية لكانت أدبا عالميا راقيا بأدق معاني هذه الكلمة وسأحاول في هذا الفصل أن أشير إلى طرف من هذه اللذات التي سبق أن أشاد بها كثير من المستشرقين كمرجليوث وكارليل وكوزان دي برسفال وبردكلمان وتلينو وجولده زيهير وماسينيون وغيرهم وأذكر أن المستشرق الإنجليزي نيكلسون قد استهوته هذه الفكرة استهواء شديدا في كتابه « تاريخ الآداب العربية » The literary history of the Arabs كما أن المستشرق ف.ي. جونسون F. E. Johnson قد ترجم المعلقات السبع إلى الإنجليزية في كتاب أطلق عليه القصائد السبع The Seven poems وعدها من عبون الأدب العالمي .

وليس من شك في أن دكتور جونسون قد أصاب الحقيقة في ذلك، فهناك بعض الخطرات الفلسفية والتأملات الروحية في الشعر الجاهلي عند زهير وطرفة تعد من روائع الأدب العالمي حتى اليوم .

وقد عد الأستاذ تليو بعض الآثار الأدبية العربية العالية وكانت منها رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، بل أن الدكتور جورج دلافيد أستاذ الأدب العربي بجامعة بنسلفانيا ذكر أن « أبا العلاء وهو شاعر أعشى مثل ملتون وهوميروس يرى فيه العقل العربي نعمة ما بلغته المدنية الإسلامية في ذروتها من النضج العقلي العظيم والنبوغ الهائل . وقد تكون رسالته من مصادر دانتى في الكوميديا الإلهية ، ولكنه يقف ولا شك في صف واحد مع أسامي ما أنجته البلدان والاديان جميعا، فهو رجل عربي في نشأته ، ولكنه رجل عالمي لأنه النموذج للنهضة الجديدة للحضارة العربية » .

ويمكن أن نعتبر بعض شعر المتنبي عالما بأدق معاني هذه الكلمة ، فهو يلجأ إلى التجربة الشعورية العامة Universal experience ويسوق كثيرا من الحكم في الحياة والأحياء ، وهذا النوع من التجارب الشعورية يعد أرقى أنواع التجارب الإنسانية في الشعر عند كثير من النقاد الأوروبيين كستار ، ولانسل ابروكرومبي في كتابه : الشعر موحيا ومعناه Poetry, its music and meaning

وإذا ما صح ما قاله ولیم وردزورث من أن الطبيعة تجسيم الروح القدس فإننا نجد عند أبي تمام كثيرا من الصور المجسمة والمعاني الحرة التي يطلق عليها الأوربيون التشخيص Personification

وإذا كان للطبيعة شعر يتشمل في حركة الموج ورجرجة الموج وأريج الزهر على حد تعبير الناقد الإنجليزي ولیم هازليت فقد صور ابن الرومي كثيرا من صور الطبيعة التي تعد من أدوع الصور العالية .

وإذا كان الشعر تصويرا للحياة والواقع كما يقول كلاي Clay في كتابه الناقد الإنجليزي فإننا نجد في الشعر العربي أشعارا تصور الواقع وتصور الحياة لا تعباً بالتحقيق اللفظي والتزويق اللفظي ، بل تحوى المعاني السامية التي لا تخدم بالتعقير في الالفاظ التي تشبه الأشخاص المتعبدن على تعبير والتر راليه Walter Raleigh

ونحن إذا ما انتقلنا من ميدان الأدب البحث إلى التاريخ وهو فرع من فروعنا وجدنا بعض الكتب العالمية كتاريخ ابن هشام وابن الأثير والطبري والجبرتي ، أو إلى الجغرافيا وجدنا مترجمات عالمية من مختصر ابن خردادبة وقدامة وجزء من الخوارزمي والمقدسي والبستاني ، وقد نشر بعض هذه الكتب دي جويه ونلليو ومزيك . وقد نشر البيروني فصلا من طرق التحقيق الجغرافي في نسخة في مكتبة « جامع محمد الفاتح » باستنبول رقم ٢٢٨٦ وتعد من التحقيقات العالمية .

وإذا انتقلنا إلى الفلسفة اعتبرنا الفارابي وابن سينا والكندي والنظام من مشاهير الفلاسفة في العالم الذين اتخذ بعضهم أسماء أجنبية في المراجع الأوربية .

وقد قال اسكندر فون هومبلد : ان العرب قد نشروا مع دينهم لغتهم المثقلة بتراث خالد من الشعر لم تبيل جدته ولم تتزعزع أصوله وقال هـ . ج ويلز H. G. Wells : ان العلوم والآداب الحقيقية لم تدخل أوروبا إلا عن طريق العرب وقال ليبري Libri سان العرب نهضة الآداب في أوروبا مدة طويلة .

ونحن إذا ما انتقلنا إلى أدبنا الحديث وجدنا بعض الآثار الأدبية للدكتور طه حسين ومحمود تيمور والاستاذين الصاوي وتوفيق الحكيم قد ترجمت إلى الآداب الأجنبية واعتبرت آدابا عالمية بأدق معاني هذه الكلمة ، وقد صرح نفيل باربر في مجلة « الثقافة الإسلامية Islamic Culture بهذا الرأي من قبل ، وأكبر الظن ان كثيرا من النقاد العرب والغربيين يشاركوننا في هذا الرأي إلى حد بعيد .

المذهب الرومانسي

في الشعر العربي

كلمة الرومانسية من الكلمات التي انت لنا مع الفكر الغربي ، ولقد طغى المذهب الرومانسي على الأدب في فرنسا وانجلترا فترة طويلة من الزمان وصيغ الآداب الأوربية بصيغة خاصة ، ويمكن أن نجد خصائص هذا المذهب في الأدب العربي وأن لم يتخذ اسم المذهب الرومانسي .

والواقع أن كلمة الرومانسية قد اشتقت من اصل لاتيني ، ولم توجد على حالها المعروفة إلا منذ القرن التاسع عشر ، وقد تباير معناها عند فرلين وتوماس سبرات وتنسون وجيته وستندال ولويس برتران ، فيقول بعضهم :

أن الرومانسية بعد عن الواقع وتحليق في أجواء الخيال وانقياد للمشاعر الخفاقة والاحاسيس الوثابة وتنقل بين الأقطار وحب للأسفار وترنم بالأشعار .

ويقول بعضهم : أن الرومانسية هي الأدب المكتوب باللغة الدارجة أو الكلام الذي يطلق العنان للخيال أو الطراز القوطي للشعر ، وقد جاء في قاموس السفورد أن الرومانسية تطلق على ثلاثة أشياء الفكرة الخيالية والميل إلى الخيال والتزام المذهب الرومانسي في الشعر ويطلق عليه الفرنسيون « مرض القرن » والانجليز « الملائكولي » .

ونحن إذا ما تصفحنا تاريخ الشعر العربي صادفنا كثيرا من الشعراء ذوي النزعة الرومانسية بمعنى العكوف على النفس والتعبير عن العواطف الذاتية بأسراف وإخلاص ، وعندى أن قيس ليلى وقيس لبنى وجميل بثينة كانوا يكونون مدرسة رومانتيكية ، ولكنها كانت أباحية لا تلتزم المشق في السماء ولا بين الخيال ، وإنما تلتزمه من الحوادث اليومية والمحادثات الشخصية التي ربما لا يسمح المجال بذكرها .

وإن شعراء الأندلس كابن زيدون وابن خفاجة وابن سهل كانوا يكونون مدرسة رومانتيكية ثالثة في الرجوع إلى الطبيعة والعودة إليها والتغنى بها والترنم بمجاليها ورياضها وأنهاها .

وهذه المدارس الرومانتيكية في الأدب العربي تناظر المدرسة الرومانتيكية الفرنسية التي كان من أعلامها الفرد دي موسيه ولامارتين وفكتور هيجو والانجليزية التي كان من أعلامها بيرون وشلي ووردس ورث وسندي وكولبروج بل كان من أعلامها الأوائل شكسبير الذي وضع أسس الرومانتيكية في مقطوعاته أو سونيته .
Sonnets

بل ان فكرة الملائكة او الحزن التي كانت مسيطرة على شعر بعض الشعراء الانجليز كبيرون وشللي والفرنسيين كموسيه وهيجو قد ظهرت عند جميل بثينة في بعض اشعاره حتى يمكن ان نقبس من شعره بعض مقطوعات نضعها تحت عنوان يتخذة كثير من النقاد الغربيين في اواية الشعر وهو « الحب والموت » love and death وان من يقرأ قصيدة موسيه حزن Tristesse او لامارتين « لم روحى حزينة ؟ » .
Pourquoi mon ame est triste

يلمح فيها النزعة الحزينة التي كانت تتمثل في كثير من شعر قيس ابن الملوح وقيس بن ذريح وعباس بن الاحنف .

ولقد استعملها عمر بن ابي ربيعة في شعره القصصى الطريف وصور ما حدث بينه وبين صواجه على حين ان هذه السمة قد تبلورت عند بيرون في صورة اخرى : فلاحم بيرون فضلا عن قصائده وتراتيمه مستقاة من حياته ، وافكاره ماكانت تستطيع ان تستقر في عقله على حد تعبيره هو ، وكذلك عمر بن ابي ربيعة لا تستطيع افكاره ان تستقر في عقله فيعبر عمر بطريق مباشر ويعبر بيرون بطريق غير مباشر كعروس ابيدوس وقصيدة الكافر والقرصان وزليخة وسليم تلك الملحمة التي تصور علاقته باوجستا .

اما المدرسة الرومانتيكية الثالثة في الشعر العربي فهي المدرسة الاندلسية التي نلمس فيها ناحية النزوع الى الطبيعة والتفنى بجمالها والمعيشة داخل الكل على حد تعبير الفيلسوف الالماني جيته ومن زعماء هذه المدرسة ابن زيدون وابن خفاجة الذي كان كثير التأمل في المشاهدات وكانت نظراته تقود عقله وترسم له انواع الخيال وضروب البنان ، ويمكن ان نجد في كل من الادب الفرنسي كقصيدة موسيه « نجم المساء » ، l'étoile du Soir والادب الانجليزى كقصيدة شللي في الليل مايناظرهما في الادب الاندلسي على حين ان الادب العربي اقدر في الغوص الى الاعماق الانسانية .

كنوز بين المعرفة

فى آداب الشعوب الآسيوية والأفريقية

« العالم حولى يقره السرور ويفعمه الخبور ، والمصائر تفنى فى
نشوة وبهجة ومراح وهى تنطلق فى الجو عبر الفضاء لا يقف فى سبيلها
حائل ، ولا يعترض طريقها عائق ، ولكننى سيئة الحظ عائرة البخت
بائسة المصير اننى رهينة محبس فى قفص من ذهب خائفة واجفة وسط
أكداس الأرز يحرقنى الظلم وينهكنى الصدى فى بحر الفصل .. عمياء
لا تدرك سبيلها فى رائحة النهار وجاوة الضجى ... أطلقوا سراحى ، فكوا
أسارى ... أريد أن أظير مع الطيور ... »

شاعرة من الملايو

أتبع لى أن احضر حفلة افتتاح مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية
الأفريقية ، وأتبع لى أن أستمع الى خطاب الوفود المشتركة فى هذا المؤتمر
وعلى رأسها خطبة السيد أنور السادات رئيس المؤتمر ورئيس الوفد
المصرى ، قد سمعته يعلن على الملأ أن سياسة مصر يمثلها خطاب الرئيس
جمال عبد الناصر فى بورسعيد حين دعا الى السلام وأن هذا المؤتمر
تكريم لروح باندونج وتذكير لمقراها ودفعة أخرى الى الامام ، وأن شعوب
آسيا وأفريقية التى كانت أرضا مباحة أو غابة تعيش فيها الوحوش
الكاظمة قد أصبحت قوة حرة عالية الجبين لها دور حاسم فى مستقبل
الأسرة كلها ، وتعنى أن يستخلص من هذا المؤتمر الشعبى أقصى ما يمكن
من النتائج الإيجابية فى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية
والثقافية على السواء .

« آداب عظيمة »

وبهذه المناسبة أحب أن أقول : أن لهذه الشعوب الآسيوية
الأفريقية آدابا عظيمة وأن هذه الآداب فى حاجة الى الدرس والبحث
وفى حاجة الى الترجمة والنقل والتلخيص والتهديب ، فانا لا أعلم شيئا
أدعى الى التقريب بين الشعوب مثل الآداب ، وأنا لا أومن بشيء يستطيع
أن يأسر النفوس ويهذب القلوب ويصفى الأرواح كما تفعل الآداب ، ونحن
إذا كنا جادين فى هذا المسعى مضحين من أجل الوصول الى هذه المطالب
وهذا ما ليس فيه شك أو مرأى ، فلا بد من أن نحيط علما بهذه
الآداب ونقيم التبادل الثقافى بيننا وبين هذه الشعوب على نطاق واسع
لا يقف فى سبيل ذلك عائق أو حائل بأية حال وحينئذ يتحقق التقارب
الذهنى بين العقول الذى هو أحد دعائم التقارب السياسى .

ولا يخفى على أحد أن عددا كبيرا من الشعوب الآسيوية والأفريقية

اشتركت في هذا المؤتمر حتى ان عددها بلغ خمسا واربعين دولة ، ولا يخفى على احد كذلك ان لكل شعب من الشعوب التي اشتركت في هذا المؤتمر تاريخا حافلا طويلا وآدابا حية باقية على الزمن وعلومها وبحوثها ، وارى من واجبتنا ان نزيح عنها الستار وننفذ عنها الغبار لنجلوها للعيان حتى يفهم بعضنا بعضا وبحيط بعضنا بتاريخ البعض الآخر ويلم بكفاحه ووجوه نشاطه الفكرى .

« الأدب الياباني »

ولا ضرب مثلا بشعب اليابان وهو من الشعوب الآسيوية التي اشتركت في هذا المؤتمر فأقول : ان هنالك كثيرا من المؤرخين اليابانيين الذين فصلوا التاريخ الياباني بصورة عجيبة معجبة مثل المؤرخ « متسوكوني » الذي كتب التاريخ الاكبر لليابان عام ٨٥١ ، فصور نظام العهد الاقطاعي ومظالم الفلاحين ضد اليابانيين ، وقل مثل ذلك عن المؤرخ « اراى هاكوسيكى » الذي كان له دور كبير في تصوير الاحداث التاريخية الكبرى التي المت بشعب اليابان ، كما ان باليابان المسرحيات ، ولا ننسى « شيكاماتو » الذي يقرنه بعض النقاد الغربيين بالكاتب المسرحى ولیم شكسبير في غزارة موضوعاته واساليب مسرحياته .

واليابانيون يهتمون كذلك بالشعر ولهم في ذلك دواوين شتى في شعر الحب والطبيعة والحرب والكفاح وقد جمع الامبراطور « دايجو » مجموعة كبيرة من الاشعار حتى يحفظها من أيدي الغناء بلغ عددها الفا ومائة قصيدة نظمت خلال القرن ونصف القرن الماضيين وأطلق عليها « كوكنشو » ومعناها قصائد قديمة وحديثة وساعد في هذا العمل الضخم العظيم الشاعر « تسورا يوكى » الذي قدم هذا الديوان بمقدمة ضافية عن الاشعار التي تضمه فهي اشعار تتناول نغمات الحب ومجالى الطبيعة وتترأى فيها المشاعر النابضة والاحاسيس الجياشة والقلوب عندما تخفق ، والانفاس عندما تتصاعد ، والاناشيد عندما تمتاز بأدب عالية رفيعة منذ فجر التاريخ ، ونحن في ميسس الحاجة الى معرفة القليل ان لم يكن الكثير عنها :

ففى ميدان القصة نجد قصة « هونج لوهن » او حلم الفرقه الحمراء وهي في اربعة وعشرين مجلدا ، ورواية « المعالك الثلاث » وهي في ١٢٠٠ صفحة وكتبها الكاتب الصينى اللامع « لوجوان جونج » وصور فيها الحروب والدسائس التي احاطت ببعض الاسرات الحاكمة في الصين وغير ذلك من الاقاصيص القصيرة والمسرحيات

ومن اردوع كتب التاريخ كتاب السجل التاريخى الذى جمعه « زوفاتشين » ويتناول بالتاريخ حقبة طويلة من الزمن تزيد على ثلاثة آلاف عام ، وهناك دواوين مختلفة لكثير من اعلام الشعر الصينى مثل الشاعر « لى تاى يو » والشاعر « روفو » ويقول « ويل ديورانت » نقلا عن « ارنز ويلي » من عادة الذين يكتبون فى الادب الصينى ان يذكروا « تتناجى » وهي اشعار تمثل فضلا عن ذلك جمال الزهر

وأغاريد الطير وترانيم العندليب وقطرات التبرد عندما تتساقط على
ثغور الأزاهر في الرياض وقطع الثلج عندما تغطي هامات الجبال
كالقطن المندوف وهي أشعار تصور كذلك مراحل الكفاح ومدارج
الجهاد وتصبح فيها الحربة وتثور الدماء من أجل الدفاع عن الوطن
وسلامة أراضيه .

وذخر الأدب الياباني كذلك بالوان مختلفة متباينة من القصة
والأفصولة ، وأذكر أن الكاتبة اليابانية المعروفة « موراساكي » كتبت
قصة طويلة من أدوع القصص في أربعة وخمسين جزءا أطلقت عليها قصة
« جوجي » وهي من الآثار الأدبية الكبرى التي يعتز بها اليابانيون اعتزازا
عظيما .

والصين وهي دولة مشتركة في هذا ، ومن الانجليز من يقولون :
« ان لي تاي يو » أشهر شعراء الصين ، أما الصينيون أنفسهم فيقولون :
« ان » دوفو » هو حامل لواء الشعر الصيني .

وربما كان الأدب الهندي أقرب الآداب الآسيوية المعروفة لدى
العرب وترجم الكثير منها في العصر العباسي ، كما نقل ابن المقفع الكتاب
الهندي المشهور « كليلة ودمنة » الذي أظن أنه لا يزال يدرس في مدارسنا
ويحفظ في مكتباتها حتى اليوم .

وفي الأدب الهندي كثير من القصائد والملاحم ، والقصص
والمرحيات مثل ملحمة « المهابارता » التي اعتبرها النقاد أعظم آية من
آيات الجمال التي أنتجتها آسيا وقال عنها « اليوت » : أنها قصيدة
أعظم من الإلياذة وقد كتبها مائة شاعر وترنم بها ألف متشد ، ولست
أدهو إلى ترجمة هذه القصيدة ، إنما أقول : أننا لا بد أن نلم بهذا التراث
الهندي الكبير بعض الأنام ، لأن الرجل العادي في الهند يحفظ الكثير
من أبيات هذه الملحمة .

والأدب الهندي على العموم حافل بالروحانية العميقة ونحن
بدراستنا هذا الأدب نفوس في أعماق الروح ، ونقترب من سرها ونحس
برهبتها ونجلو الكثير من أسرار الطبيعة ، ونعيش في حضنها كما يعيش
الأطفال الأبرياء في حضن أمهم الرءوم وفي ذلك يقول الشاعر الإنجليزي
« بيرنز » في معرض الحديث عن الشاعر الهندي « طاغور » : نحن نحارب
ونجمع مالا ونملا رهوسنا بالسياسات وكل ماهو كليب في فعله على حين
أن مستر طاغور مثل المدينة الهندية نفسها قانع باكتشاف النفس
ومستسلم لذاتيتها .

« أدب الساحل الآسيوي »

وقل مثل ذلك عن أدب بورما وكمبوديا ، وساحل الذهب
واندونيسيا ، وليبيريا ، وتايلاند ، وفيتنام ، والحيشة وغيرها من الدول
الآسيوية والأفريقية ، فلا بد من اتخاذ خطوات عملية لتنمية التعاون
الثقافي

والتعريف بأداب هذه الشعوب وتعليم لغاتها وتجديد العلاقات الثقافية القديمة وتنمية صلات جديدة في نطاق العالم الحديث وبدل كل مرتخص وغال في سبيل الوصول الى هذا الغرض ، ولا بأس من عمل ماخصات لأداب هذه الشعوب وترجمة ما يمكن ترجمته من النصوص وتقديم التسهيلات الفعالة للتزاور بين هذه الشعوب وتزويد الطلبة والراغبين في عمل الابحاث بكل الوسائل المعينة على البحث والدراسة، وحينئذ يتحقق المجال الثقافي الذي دعا اليه مؤتمر باندونج وأيده بعد ذلك مؤتمر القاهرة الشعبي ، وأبرزه السيد أنور السادات في خطبة الافتتاح بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة .

« كنوز من المعرفة »

ان في آداب الشعوب الآسيوية الأفريقية كنوزا زاخرة من المعرفة التي تجلو صدا النفس ، وتصلق صفحات العقل سواء في الشعر أو النثر ، وتحضرني الآن قصيدة رائعة من الشعر من أدب الملايو واضعها نموذجاً لأدب هذه الشعوب الذي يهدف الى الحرية ويدعو الى السلام من انشاد شاعرة من الملايو :

« العالم حولي يغمره السرور ويفعمه الجور ، والعصافير تغني في تشوة وبهجة ومراح ، وهي تنطلق في الجو عبر الغضاء ، ولا يقف في سبيلها حائل ولا يعترض طريقها عائق ، ولكنني سيئة الحظ عائرة البخت بالسة المصير ، انني رهينة محبس في قفص من ذهب خائفة واجفة في وسط اكداس الارز .. ظمأى يحرقني الظما وينهكني الصدى في بحر العسل عيما لا تدرك سبيلها في رائحة النهار وجلوة الضحى ، شقية بالسة يائسة بين صرح النهار وقصور الرقاهية والبهاء مغلولة اليدين بقبود حديدية ومصفدة بقبود قوية ... اطلقوا سراحي ... وفكوا اسارى بين هذه الأسوار ... أريد أن اطي مع الطيور ... واحلق مع العصافير وهي حرة تذهب الى شاطئ السعادة ... »

أحلام البحيرة

بين الشرق والغرب

إنها أحلام البحيرة أو أشعار شعراء البحيرة إن شئت ٠٠٠ ولست أعنى بشعراء البحيرة هؤلاء الشعراء المعروفين في تاريخ الأدب الانجليزي بشعراء البحيرة مثل كمبر لاند وكورد زورث الذي فتق آفاق المذهب الرومانسي لمن أتى بعده كلورد بيرون وجون كيتس وبيرس شيلي وسير والتر سكوت وسوزي ذلك الشاعر الثائر الذي تأثر بالشرق وحضارة الشرق ، فجاءت بعض قصائده هائلة في سحره متأثرة بآثاره ، بل إنه قد تأثر بألف ليلة وليلة تأثرا قويا ظهر في كثير من قصائده التي هي أشبه شيء بالخرافات والأساطير ، أو كلوردج ذلك الشاعر القلق الحائر وصاحب القصيدة المعروفة في الادب الانجليزي « كوبلكن » والذي قال عنه بعض النقاد : إن قصائده أحلام . وأنه حين يكتب يحلم فهو يجوس بك بين دروب ملتوية مسحورة وقصور سحرية معمورة ، ويحوم بك فوق غابات ملتفة ليقابل بكائنات رهيبة مخيفة .

لست أريد أن أكتب عن هؤلاء الشعراء الثلاثة المعروفين في الادب الانجليزي بشعراء البحيرة الذين كانوا كثيرا ما يقفون أمام البحيرة يملنون أعينهم بضوء الشمس البازغة حينما يمتع الصباح بضوء الشفق الذهبي وحينما يوشك الليل أن يهبط على الدنيا يصوغون من ضوء الشمس ورفيف الماء وهدير الموج الحانا عذبا وترانيم شجية إنما أعنى بشعراء البحيرة ثلاثة شعراء آخرين من بحيرات مختلفة ومن أجناس مختلفة : أحدهم انجليزي وهو ورد زورث ، والآخر فرنسي وهو لامارتين ، والثالث عربي وهو البحترى .

ولم تكن بحيرة البحترى سوى بركة المتوكل ، وقد كانت بركة جميلة مترفة تغني بها الشعراء ، وترنمت حولها القيان وصدحت بين أرجائها النغمات .

وقد بدأ البحترى قصيدته بالميل على الديار والوقوف على الآثار كما كان يفعل الشعراء الجاهليون ، ولجأ الى هذه الطريقة الكلاسيكية أو هذا المذهب الكلاسيكي في مستهل قصيدته فقال :

ميلوا الى الدار من ليلي نحيبها	نعم ونسألها عن بعض أهلها
يارقة جاذبتها الريح بهجتها	تببت تنشرها طورا وتطورها
لازلت في حلل للغيث ضافية	ينيرها البرق أحيانا ويسديها

حتى إذا ما انتهى البحترى من هذه المقدمة الكلاسيكية - إن صح

هذا التعبير - لجأ الى الذكري وترامت خياله صور من الماضي وتمثل أمامه طيف الحبيب ، وسبح خياله الذي قيل عنه في الشعر العربي خيال البحتري :

قد اطارق الفادة البيضاء مقتدرا على الشباب فتصبينني واصببها
في ليلة ما ينال الصبح آخرها علقت بالراح أسقاها واسقيها
عاطيتها غضة الأطراف مرهفة شربت من يدها خمرا ومن فيها

فلما انتهى البحتري في أبيات مختصرة من ذكر الحبيب لجأ الى وصف البحيرة ، بل انه ربما مدحها كأنها شخص من الأشخاص ولجأ الى تفضيلها على غيرها :

ما بال دجلة كالغري تنافسها في الحسن طورا واطوارا تباهيها

ويعد وصف البحتري للبحيرة من أرقى شعر الوصف في الادب العربي ، فهو وصف فيه روعة وجبال ولكن قلما تهمس فيه الروح !

فلو تمر بها بلقيس عن عرض قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها
تنصب قيهها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الغضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
إذا عدتها الصبا أبدت لها حبا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها وريق الغيث أحيانا يبكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

ويستمر البحتري في وصفه ذلك الوصف الذي اشتهر به في روعة وجبال وخيال ، فكان كما قال ابن رشيق في كتاب العمدة عنه وعن أبي تمام : انهما كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها :

فأما حبيب فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الاسماع بين التصنيع المحكم .

أما البحتري فكان أملح صنعة وأحسن مذهبا في الكلام ويسلك منه دماعة وسهولة مع احكام الصنعة وقرب المأخذ لا تظهر عليه كلفة او مشقة .

أما ورد زورث فقد نظم كثيرا من القصائد والاغنيات «والبلاد» في اقليم البحيرة .

وقد بدأ احدي قصائده قائلا :

لقد أذنت الشمس بالمغيب

وأوى طير الماء الى الاوكار

ونشرت الريح الهوجاء الشباك

وهجعت أنفاس النسيم

وظلت كل موجة تكافح الاخرى

وبقيت الموجة الآتية من الأعماق .

يالها من أسطورة تحكى

سرعان ما يدركها الرقاد

وينحسر الماء من جراء المد والجزر

ويثور مرة ويهدأ مرة أخرى

ويجتمع النور والظل في صبح جميل

رائع يوقظ الحيال ويبعث على الأحلام

ولكن شعر وردزورث في إقليم البحيرة ليس حيا كالبحترى ،
انما هو شاعر مثقف درس بعضا من الفلسفة وعرف شيئا عن الطبيعة
وما بعد الطبيعة ، فقد كان في - ايان دراسته - في جامعة كامبريدج ، ولكن
تفكيره في الشعر كان يصرفه عن الدروس صرعا كما يقول كثير من النقاد ،
فترى في قصيدته بعض الملاحظات الروحية والتأملات الفلسفية مثلما
يخاطب الطبيعة في براءة فيقول :

ما البراءة ! أينها الرحمة المقنوسة !

وهكذا يأخذ وردزورث في مخاطبة الطبيعة وانتفى بالخير
والرحمة التي تندفق من القلوب الناعمة الى أن يقول :

كل سكون يتعلل في هذا الكون

وكل تبدل يتبدى على وجه السماء

فالعناية تتمثل ولكن لا تبدى رياء هو السرور

وخيرا ما هو السلام

فاما ترضى حكم العقل وعونه في إباء

واما تعطى كل شيء فيه خمر وفناء !

وهكذا يتضح الفرق بين طبيعة الشاعرين البحرى وورد زورث :
فقصيدة البحرى وشي جميل فيه موسيقى وفيه الحان حلوة الجرس رقيقة
المعنى وفيها محسنات بدعية رقيقة ، اما قصيدة ورد زورث فلا تحرم
هذه المميزات ، ولكنها أولا وقبل كل شيء تأملات روحية وذكريات حلوة
تترى على ذهنه ليست مديحا او ما يشبه المديح ، وليست روح
وردزورث هذه تظهر في هذه القصيدة فحسب ، انما تظهر في اغلب
شعره ولا سيما في ديوانه « قصائد غنائية » .

أما لامارتين فقد نظم قصيدته في بحيرة بورجيه حينما ذهب الى
بحيرة اكس سنة ١٨١٧ ، وأن من يقرأ هذه القطعة الرائعة من ادب
لامارتين يتمثل قوله في الشعر « انى أغنى يا أصدقائى كما يتغنى المرء
ويغرد الطير ويصفر الهواء ويهدأ الماء » . « أؤكد قدر لنا دائما الاندفاع
صوب شطآن جديدة في هذا الليل الخالد دون أن نملك الرجوع في خضم
السين المتلاطم الأمواج الى يوم نلقى لديه المراس .. »

وياخذ لامارتين يخاطب البحيرة في أسلوب جميل يسيل رقة
وعذوبة وتتضح سلاسته وسهولته وبدوب لوعة وشوقا :

« أنظري أنتها البحيرة فالعام أوشك أن يفنى وأنا وحدي بجانب
أمواجك الغزيرة أجثم على حائه الصخرة التي كنت ترينها جالسة عليها ! »

ويمضي لامارتين في قصيدته مصورا ليلة قضاها مع صاحبه جوليا
فوق صفحتها الرقراقة وأمواجهها الدفاقة وأشجارها الطاعنة في غنان
السما وأطيافها المترنمة بين الأجواء ، وياخذ لامارتين يخاطب الزمن في
لهجة كبيرة ونبرات حسيرة : « أيها الزمن السارق ويايتها الساعات
العذاب . ففى جريائك وامنعى سريائك ودعينا نتمتع بدائنا العاجلة
وأجمل أيام حياتنا ... »

ويسرف لامارتين في نظراته وتأملاته الميتافيزيقية ، فيأخذ في مخاطبة
الأبد والعدم والماضي بعد مخاطبة الزمن الحائد الجاحد فيقول :

« حدثني أيها الأبد ! أيها العدم ! أيها الماضي ! »

ماذا تصنع بهاتيك الأيام التي تطويها !

أما تعطينا أوقاتنا الجميلة التي قيل عليها العفاء ... !

ثم ينتهي لامارتين في قصيدته بتسجيل محبته الباقية على ممر
الزمان لجوليا ، فتشهد الطبيعة ويشهد النسيم على حبهما وهكذا كان
لامارتين يريد أن يشعر فغنى كما كان يقول القسطنطين ، وصدق تعريفه
للشعر بأنه غناء الباطن ، فقد جاءت هذه القصيدة صورة جليلة واضحة
عن نفسيته ووشتها بأبهى اطار ، ولكنها لم تكن مزدحمة بالصور الحية
والمحسنات اللغوية التي نجدها عند البحري . إنما كانت روحا تحلق في
الأجواء تغنى كما يتغنى المرء ويغرد الطير ويصفر الهواء ويهدر الماء !

فلسفة الألوان في الغرب

أنكر كثير من الفلاسفة المعرفة عن طريق الحواس زاعمين أن الحواس خادعة متغيرة ، فلا يمكن أن تكون مقياسا للأشياء ، فانت تصور أن وراء السراب ماء وليس هنالك ماء وأنت ترى العصا المعتدلة منكسرة في حوض الماء وليس هنالك انكسار وأنت تخرج من الحجرة الدافئة فتشعر ببرودة أزيد مما هي في الواقع وليست هنالك برودة ، وعولوا في حكمهم في أكثر الأشياء على العقل ، فجعلوه الأساس الأول في المعرفة .

ومن الحواس التي ينعم بها الإنسان حاسة النظر ، ومهما يكن قول الفلاسفة في هذه الحاسة أو إيمانهم بها أو كفرهم بحكمها فإنها موجودة ونحن نرى الأشياء والأحياء كما تتراعى لنا .

ويقول كثير من الفلاسفة : أن الألوان التي تراها العين لها تأثير فسيولوجي وسيكولوجي خاص الأهم إلا إذا كان المرء مصابا بالعمى اللوني ، فهذا يخرج باضطرابه عن نطاق حديثنا فإنه يرى اللون الأحمر مثلا أسود بطبيعة عينه وعلم جرا .

ومن القواعد المتفق عليها أن الضوء ليس بسيطا بل هو مركب وأننا يمكن أن نحلله بمنشور زجاجي خاص فتتراعى لنا أطيافه السبعة .

ومن القواعد المتفق عليها كذلك أن لكل لون من هذه الألوان ميزة خاصة لا تقتصر على الإنسان، بل تمتد إلى الحيوان والنبات، ولعلنا نعرف مبلغ عياج « الديك الرومي » من اللون الأحمر إذا ما رأى طربوشا أو شيئا من هذا القبيل ، وذلك لأن اللون الأحمر لون صارخ يبعث على الانتباه والنشاط وربما كان من الأسباب التي تدعو الأطباء إلى نصيح المرضى ولا سيما المرضى بالجدرى والحصبة بارتداء الملابس ذات اللون الأحمر فهو أحد ألوان الطيف ولا ينفذ في الأقمشة الحمراء ، وبسبب عدم نفوذه يضعف ميكروب هذا المرض الذي يزداد بتأثير هذا اللون إذا نفذ من الأودية ذات الألوان الأخرى .

وقد ثبت لدى الدكتور بيتو أن اللون الأحمر يساعد على التئام الجروح ولعل هذا هو السبب في إثارة لمحلول الفكسين في التغيير على الجروح أو في كون بعض المظهرات ذات لون أحمر كالديتول والميكروكروم

ويقول الدكتور سارومان أحد أطباء النمسا : أنه يمكن تلوين الطيور بأن يضاف إلى طعامها شيء من الإيثيلين وأنه جرب ذلك في الحمام فتلون بعضها بالأحمر الزاهي والبعض الآخر بالأزرق السماوي ولون أطيار الكنار بألوان قوس قزح الجميلة .

ويقول الفيلسوف الألماني شينجلر : ان الأزرق والأخضر لونا السماء الصافية والبحر الخضم والسهل المريع فهما لوانان جويان في جوهرهما باردان يسلبان الأشياء أجسامها ويشيران الشعور بالسامة والتباعد واللاتهائية .

أما الأزرق فهو لون المنظور على صلة وثيقة بالظل والظلام وأما اللون الأحمر والأصفر فهما لونا المادة وما هو قريب وما هو شعبي يجارى ، فالأزرق إذن لون العمق والبعد ، والأحمر لون السطحية والقرب ...

الأزرق .. عدم ساحر .. كما يقول الفيلسوف الألماني جيته والأحمر جسم نفاذ .

ويرى كثير من العلماء أن اللونين الأزرق والبنفسجي مهددان للأعصاب ومن هنا أتت فائدة الأشعة البنفسجية التي يصفها كثير من الأطباء للمرضى ولا سيما الأطفال المرضى بالكساح .

هذا وقد أثبت العلماء أن المعرضين للنور القوي من أشعة الشمس التي تحتوى على ألوان متعددة من الضوء يكون لونهم أسمر والمعرضين للنور الضعيف يكون لونهم أبيض وشعورهم شقراء وعيونهم زرقاء كما هو الحال في الجنس النوردي على العكس من الجنس القوقازى أو الزنجى .

ويرجع العلماء السبب في اختلاف اللون الى أن فئ بشرة الجلد طبقة من الموصلات الصغيرة في باطنها مادة ملونة يختلف لونها في الأبيض والأحمر والأسود وهذا اللون يشتد ويضعف باشتداد وضعف أشعة الشمس .

وبعد اللون الأبيض آية الطهر والنقاء أما الأسود فدليل الحزن والقتامة وان كان بعض الشعوب يستعملون اللون الأبيض عند الاحزان، أما اللون الأخضر فرمز الربيع الأخضر والدوح المورف والشجر المورق، وعند بعض الناس رمز الشيطان المارد والاجواء التي تستحضر فيها الأرواح ، وبعد اللون الأصفر عند العشاق رمزا للغيرة لان له خاصية معينة في إثارة لون معين من المشاعر .

وقد كان الصينيون اذا رغبوا في التنكيل بأحد سجنوه في غرفة طلي كل جدرانها وأثاثها بلون واحد لان ذلك ينعو الى ضيق النفس ، وقد ذكر ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى في كتابه الفخرى في الآداب السلطانية ان رجلا راف بحال أحد الخلفاء المسجونين على هذه الصورة عند الأتراك فلبس سروالين أحمرين ودخل خلية بهما على الخليفة وسلمهما له ، لكي ينظر الى لونهما من حين الى حين ، فيخفف ذلك آلامه من النظر الى الغرفة الصفراء التي كان يقيم فيها .

ومن الطريف أن المدارس الأمريكية تعتمد الى بعض تجارب لتثبيت ميزة أحد الألوان على الآخر لتطلى به غرف مدارسها كما هو الحال في ليغربول بانجاسترا ، ومن الطريف كذلك أن أحد العلماء النفسانيين الأمريكيين أجرى استفتاء في أسباب الحب فخرج بأن ألوان أزياء النساء تؤدي دورا خطيرا في هذا المضمار ... !

عالم غربي

يضع الوسائل الى السعادة

أندريه موروا

من الكتب الخائذة التي ألفها الكاتب الفرنسي الذائع الصيت أندريه موروا André Maurois كتاب العواطف والطبائع Sentiments et Coutumes وقد صور موروا السعادة في هذا الكتاب تصويراً خلاصاً وجذاباً ، وخلق منها فناً من الفنون له سحره وأغراؤه وله رواده وعشاقه ، ويمكن الإنسان أن يحسنه وأن يتقنه بكثير من التجربة وكثير من المران .

وقد قيل : ان السعادة أن تظفر بشيء حبيب الى نفسك قريب الى قلبك دون أن تتحول عنه أو يتحول عنك ، ولكن هذا التعريف لا يطابق الواقع ولا يجاري الحياة ، فاللحن العذب لا يلبث أن ينتهي ، والأغنية الحلوة لا تلبث أن تسكت ، والشخص الحبيب لا يلبث أن يغيب فكل شيء يخبئه لك الغد ، فماذا تحمل لك الايام في جمعيتها ؟

ان الايام دول فاترك الأوهام والاحزان واغنم ساعة الصفو فانما الغيب عند علام الغيوب .

ويذكر أندريه موروا كذلك ان السعادة لا يمكن ان تجنى بغير العمل والتفكير الذي لا يسوق الى عمل ينطوي على ضرر ، ومن يفكر لا يعمل ومن لا يعمل يزرع الفساد ، فالبستاني في الحديقة يعمل في صبر ونشاط ويعني بزرعه ويحوله برعايته ثم يفخر بشجرة محصول تعبته وكده . واحساس البستاني هذا هو الاحساس الذي يشعر به كل فنان مجيد وكل مبتكر أو أديب .

ويعتقد موروا أن الحب من أسباب السعادة سواء بدأ بين كائنين من البشر أو انتهى الى حب الانسانية ، والسعادة لا يمكن ان تمنح انما تتبادل ، وكلما بادلك صاحبك الحب وشاركك في عواطفك كانت سعادتك جائزة بين يديك ، ولهذا كان الزواج في بعض الاحيان لونا من ألوان السعادة الصادقة ، ومن هنا فطن كثير من الكتاب القصصيين مثل ستندال الى هذه الحقيقة ، فجعلوا لذة الحب تطفئ على شقاء الحب وتزيل أتراحه واشجانه ولو كان الموت قاب قوسين أو أدنى ! كما حدث بين (فابريس) بطل قصة ستندال وبين (كليلت) التي كانت تزوره في سجنه زيارات خاطفة .

فنحن اذن يجب ان ننعم النظر في مدلول السعادة ونعلم ان السعادة ليست هي اللحن ، وليست هي الأغنية وليست هي الشخص الحبيب انما

هي حالة نفسية تطبع الحوادث بطابعها الخاص وتلبسها في اعيننا رداء زاهيا براقا . فاذا تمنينا الدوام لشيء فانما نتمنى الدوام للحالة النفسية لا للحوادث .

ويرى أندريه موروا André Maurois أن الفقر والمرض من أشد العقبات في سبيل السعادة غير أن هنالك أناسا لا يستطيعون أن يحكموا على الأشياء حكما صحيحا مصيبا ويرون أنفسهم فقراء وهم ليسوا فقراء ويرون أنفسهم مرضى وهم ليسوا مرضى، هؤلاء هم ضحايا الوهم، وكثير من الناس يصرون على انقال أنفسهم بالهموم وملء قلوبهم بالاحزان، وينكرون عليها صفاءها بتخيل تكبات بعيدة مثلهم في ذلك مثل الرجل المفكر الحزين الذي انزوى في ركن بعيد من أركان حديقة غناء وجلس ساهم الفكر مبلبل الفؤاد، فلما سعى إليه موروا يسأله عن سر اكتئابه علم أنه يتوقع تكبات مالية بعد مضي عامين فقال له موروا :

أتدري يا سيدي أن التفاؤل خير باب إلى السعادة وكلما كان الإنسان أكثر تفاؤلا كان أكثر سعادة وكانت الحياة في عينيه ذات لون وردي بديع ، على العكس من الشخص المتشائم الذي يشعر بالبرد القارس إذا هب النسيم أو جرت الريح وتبدو الحياة في عينيه أضيق من سم الحياض والنسيان في بعض الأحيان من أقرب الأبواب إلى السعادة في رأي موروا ، فعلى المرء أن يتعلم الصفح عن الذنوب ونسيان الأخطاء إذا أراد أن يكون سعيدا ، والإنسان بطبعه يميل إلى النسيان وأنه أشد ميلا إلى نسيان ما يثير في نفسه اللوعة والشجن ، على أن كثيرا من الناس يميلون استغلال هذا الميل الطبيعي إلى النسيان ، ومن هنا يتسع المجال لذكرياتهم المؤلمة وخيالاتهم المريرة فيحرمون السعادة ويتجرعون كأس الشقاء .

وعناصر السعادة قليلة وأسبابها كامنة في داخل النفس وهي أرسخ ما تكون إذا قامت على حب الخير ونقاء السريرة .

فلتتمسك بأعصاب السعادة أن ظفرنا بها ، ولنحرص عليها حرصا شديدا ، ولنحاول أن نتبادلها ، ونضع نصب أعيننا دائما تلك الأسباب التي كانت سببا فيها كالتعقل والرحمة والاعتدال ، لأن الانتصار يولد الغرور والطفيلان في بعض الأحيان فاذا بالسعادة تنقلب إلى شقاء .

ومن ألوان السعادة أن نعرف إلى أي حد كان يمكن أن نكون تعسين .

كاتب غربي وزوجة ملهمة

احتفلت فرنسا بل احتفل الادب في العالم اجمع بالكاتب أندريه جيد ، وقد كان فتى كاسف البال حاد القسما ، كانت عيناه تنفثان بيروق حاد غريب .

وكانت شفتاه مرمريتين تنبضان بالرغبة وترقان بالنشوة كما لاحظت أوسكار وايلد عندما رآه لأول مرة .

وكان شعره ينسدل خلف أذنيه ، ولكنه كان خجلا حيا الى حد بعيد ، ولعله يذكر ذلك اليوم الذي بلغ فيه الطفل أندريه جيد الحادية عشرة من عمره ، وحدث أن ابن عمه الطفل الصغير (أميل) فاضت أنفاسه أمام عينيه ، فحاولت أمه أن تخفي الخبر عنه ، ولكنه سمع حس الكلام عن الحادث الاليم فجرفه حزن عنيف وانفجر باكيا في حرة تفتت الاكباد وتذيب القلوب .

ولعل الطفل أندريه جيد يذكر ايضا ذلك اليوم الذي جلس فيه الى أمه وحيدا في حجرة المائدة ... وما لبث أن ارتقى بين أحضانها ينتحب حتى بال ثوبها بدمعه الهتون وهو يقول لست كالأخرين ..

لقد كان الفتى الصغير يدرك الموت في الحادثة الاولى فبكى وانتحب .. اما في الحادثة الاخرى فقد عرف مصير الأحياء ونهاية البشر ففرق في بحر من الدموع ...

كان الفتى أندريه جيد يحب الموسيقى ويسره إيقاعها ، وكان يجلس الى (البيانو) يعزف روائع فاجنر وشوبان أو بيتوفن وتتصاعد الألحان الحبيبة من بين أنامله كأطياف حلوة جميلة تتلاحق في الأجواء وتتسابق الى العشاشي .

وكان الانجيل رفيق الفتى جيد ومن بلاغة وروعة أسلوبه تعلم خلاوة اللفظ ورقة الموسيقى وعذوبة الإيقاع .

لم تكن أيام أندريه جيد في مدرسته بهيجة هائلة ، بل كانت يائسة نحسة وكانت تنتابه بين الحين والحين بعض المشاق في الدراسة الا انه كان يتغلب عليها في النهاية وينكب على العمل حتى قال عنه عمه ذات مرة (أن جيد سيكون دائما محبا للعمل .)

وكان أندريه جيد يكره تلك الامتحانات المدرسية التي تسير على نهج سقيم وطريقة مرذولة ولكنه كان يحفظ كثيرا من الشعر ويطلع على تراث الاقدمين .

ولشد ما كان يؤلم أندريه جيد أن يظل دائما رهين محبته ، فكان يجوب وينتقل ويتمثل بقول بسكال : (ان الاحتباس في الغرفة سر يؤس

الإنسانية) . ولشد ما كان الفتى يهوى أطيوار (الكناريات) غير أن حبه وولمه لم يأت إلا على أثر حادثة ارتفعت منها نفسه وفزع منها قلبه : فذات صباح في مستهل عام جديد كان على أندريه أن يذهب ليقبل مربيته أنا ففعل ورجع فرحاً مسروراً تملأ الغبطة أعطافه من نفسه ومن السماء ومن لاشيء وأخذ يبني الآمال الكبار وهو في طريقه إلى البيت في الطريق الذي اعتاد أن يسير فيه وهو طريق سانت بلاسيد وعلى حين غرة ، وكان الوقت قرب الظهيرة والنهار متبلج والشمس شديدة الوقدة ، شعر بشيء يسقط نحوه في شدة كقطعة متوهجة من الشمس واخترق ذلك الشيء ... الظل القريب منه .. ولطمه بجناحيه واستقر فوق قبعته ورفع الفتى الصغير عينيه الساحيتين فوجد طائر الكناريا مستقراً فوق رأسه يرتجف مثل قلبه الذي يملأ صدره قترأت الغبطة على محياه وسكت عنه الغضب ، وأدرك أن الطير الصغير كان ضعيف البصر ، فهوى فوق رأسه مصادفة .

أخذ الفتى الرقيق يتعلم في المدرسة ، ولكن المرض لم يمهله بل كان يشابه بين الحين والحين وفي ذلك يقول في مذكراته : « وفي اليوم الذي سمح لي فيه بالنهوض شعرت بأعياء ، فتحاملت على نفسي للوقوف بعد أن مكثت ثلاثة أسابيع في الفراش ليت شعري ماذا كان يحدث لو أن المرض اشتد على أكثر مما اشتد ... ؟ أواه أنني أشعر براسي بهبط فوق جسمي وأشعر بجسمي يكاد يهوى على الأرض ، أن الخيال يشعرنى براحة وسعادة تسكنان من قلقي وتهديان من روعى .

وأخذ أندريه العليل يعود الأطباء حتى استطاع أن يشد أزره ويرجع مرة ثانية إلى المدرسة حيث ينتظره أصدقائه وأحبائه على مضض .

وشب الفتى وترعرع ودخل في عنفوان العمر وزهرة الشباب ، وهنا حدث حادث هام غير مجرى حياته كما تغير الثورات الكبرى تاريخ الشعوب على حد تعبيرة ، ذلك أنه حدث حادث هام جعله كالأعمى الذي خلق أعمى إلا أنه أصبح بصيراً ... أصبح بصيراً يستمتع بمنظر الطبيعة الخلاب ووجه السماء الغضبية الزرقاء التي تستهوى الأفئدة والأبصار .

لقد عرف الفتى ابنة عمه (مارلين) أو أمانويل كما كان أندريه جيد يطلق عليها واقتربت دارهما بعد اعتماد واتصل بها بعد ما كان بين الأسرتين صمت لا يفرى بشيء ، ونشأت بين أندريه وأمانويل صداقة مكيئة لم تلبث أن تحولت مع الأيام إلى حب جارف ، حب لا يعرف انضعف ولا الفتور ، حب متقد يسرى في الجسم مسرى الدماء في العروق والروح في البدن والآنفاس في الصدور ، وذات أصيل ذهب أندريه جيد إلى بيت ابنة عمه أمانويل ، ولكنه لم يجد أحداً في الدار فأب إلى داره ، ثم عاودته نفسه أن يعود إليها مرة ثانية فوجدها مطرقة الرأس كسيرة النفس ممزقة الفؤاد ، ولمح دمعين كبيرتين تنسكبان من عينيها في شجن والم !

كانت امانويل تعيش في بيت غير بيت أبيها وكانت أمها متزوجة من شخص غريب ، فحاول أندريه أن يخفف من حزنها إلا أن امانويل آبت أن تبوح له بسر شقاها في البيت ، فعاد أندريه أدراجه ، إلى منزله في حزن حزين ، ومنذ هذه الفترة كما يقول في مذكراته أدرك أندريه جيد معنى الحياة ومعنى الألم ، وصمم على خوض غمارها بعزيمة لاثنين .

ويقول أندريه جيد : أن السعادة القصوى التي كنت أرنو إليها واحلم بها كانت تأتي إلى عندما أرافق مارلين ولم أكن أفضل قط فيما كنت أرغب فيه ولم يكن فرحي مكتملا إلا إذا شاركني هي فيه وفي الكتب التي كنت أقرأها كنت أسجل الحرف الأول من اسمها الجميل في هامش كل جملة تستحق إعجابنا وتسترعى أنظارنا وتثير حبنا وشوقنا أن الحياة لم تكن شيئا بدونها... وكانت عبثا ، وكانت شططا لا فائدة منه ولا خير فيه .

كنت أمتحها إحدى روائع دي موسيه أو لامارتين لتقرأها ، فإذا عادت إلى كنت أقبل الصفحات التي قرأتها والسطور التي وقعت عينها عليها ... وكنت أشعر بسرور لا يعدله سرور كلما تجلت أمامي بوجهها النوراني الجميل واتخيل أنها ترافقني في كل مكان حتى في المنطقة التي تسمى (روك) في النزهات الصباحية حيث كنت أساعدها في اجتياز الغابة ، وكنا نخرج عندما يكون كل من في البيت نائما والكرى يأخذ بمعاقد الإجفان ... والحشائش مخضلة بالندى ، وزهرة الفجر تبسم على فننها ، وكان شعاع الصباح ينبثق من الأفق البعيد ، وتندوم بيننا أحيانا فترة صمت طويلة يسكت فيها اللسان عن الكلام وتبدأ فيها العيون بالنجوى .

وهكذا ظل أندريه جيد يرتشف كنوس الحب دهاقا مع مارلين في ظلمة ولهفة حتى عقد قرانهما معا في ٨ من أكتوبر سنة ١٨٩٥ وتحولت امانويل أو مارلين الحبيبة إلى زوجة كريمة تحب زوجها وتسمى إلى جلب السعادة إلى قلبه وبيته .

وقد صرح أندريه جيد في مذكراته بأنه أولا أوضاعه الدنيئة ولولا امانويل زوجته ما استطاع أن ينتج كتبه ومؤلفاته وما أخرج أندريه : والتر والباب الضيق والسعقونية الريفية ... بل ربما كان لا يستطيع إخراج « المزيفون » كذلك وغيرها ، ففي مؤلفات أندريه جيد نلمح كثيرا من الصور التي تشابه صورة زوجته في أقوالها وفعالها وتحمل طابع زواجه منها وتصرفه معها ، وقد كتب في مذكراته في ديسمبر سنة ١٨٩٥ أن امانويل اليوم متعبة والطقس رديء ، وفي المساء لم تستطع امانويل أن تشاركني في لعب الورق وآوت إلى فراشها كي تنام وطيلة مساء اليوم كان إلى يشتد لأنها ليست في رفقتي ، ولا تفكر معي ، وكلما فتح الباب أو ارتفع صوت أينها وازداد أرقها اغرقت في الدعاء والصلاة .

ترى أي خاطر يجيش في نفس امانويل في هذه اللحظة ... ؟
ومن يقرأ مذكرات أندريه جيد يدرك مدى تعلقه بزوجته لقد كانت

ملهمته وهبات له جو الانتاج الفكرى والروحى دون اى توجيه مباشر منها . وكان جيد بحسن وصف الحب فى قصصه حتى احبه الشباب الفرنسيون حبا بالفا ، وظفر بجائزة نوبل فى الادب منذ سنوات .

وقد دفعته صراحته احيانا الى الانحراف فثار عليه كثير من الناس وفى غضون الحرب الاخيرة قابله المستر تشرشل ووجه اليه اللوم قائلا: متى تنتهى عن قصص الحب والفرام يامسيو جيد وتعمل على انقاذ البشرية من برائن النازية التى تهددنا - بشئ اهم من قصص الحب واقوم من حكايات الفرام .. ؟

استمع اليه وهو يقول فى السمفونية الريفية التى تعد من اروع انتاجه الادبى بل من اروع الاداب الحديثة « ايه يا رياه .. امن اجلنا جعلت الليل عميقا جميلا ... امن اجلى انا ياميدع السموات والارض ؟ ... السمات وادعة رحية ، ونور القمر يتسلل من النافذة وينسكب فوقى ويفرنى بتيار من السحر ، واذننى ترهف السمع الى دعة السماء وسكبتها ! ... وتجتاح قلبى روحانية صامتة ... رياه !

ليس للحب حد ولانهاية ... انما الحد والنهاية من صنع البشر لا من صنع يدك .. يا رياه .. ليس فى مقدورى ان انزع الحب من قلبى واخفيه من جوانحي اللهم الا بعد انتزاع ذلك الخافق بين الضلوع ... »

هكذا كان جيد رائعا فى تصوير المشاعر الانسانية الا انه كان صريحا ينادى بمبدأ المتعة ويدعو الى التحرر فإى نعيم واى سعادة مادام المثال عصى الطلب على السواد الاعظم من الناس ؟ .. ومن هنا وجدنا فى كتابات اندريه جيد صراحة قلما نعثر على مثلها عند غيره من المفكرين والادباء .

حضارة الغرب فى العالم الجديد

يتكون الشعب الأمريكى من مزيج من الأصول والسلالات ولكنه برغم ذلك قد كون له طابعاً يختلف عن الطابع الأوروبى بحكم تطور الزمن واستقلال أمريكا .

وحضارة الولايات المتحدة هى حضارة الصناعة التى تعمم الرخاء وتعمل للثروة .

والعوامل الاقتصادية هى الأساس الذى تقوم عليه الحضارة الأوربية الأمريكية على السواء وما فى الولايات المتحدة من سمات تختلف عما نراه فى سائر الأقطار إنما يعزى إلى تقدم الصناعة ، وقد جاءت بذرة الحركة الصناعية إلى الولايات المتحدة من أوروبا ، ولكنها لم تزدهر فى أوروبا قدر ازدهارها فى أمريكا .

والحضارة فى الولايات المتحدة الأمريكية تعتمد فى أكثر أصولها على الصناعة ، والكميات الضخمة التى تنتجها الولايات المتحدة بالمشروعات الحرة رفعت مستوى المعيشة فى كل مدينة أو قرية وتمكن 68% من التسعة والعشرين مليون عائلة فى الولايات المتحدة من امتلاك سيارات خاصة بها وتبنيات الفرصة لعائلة كل عامل لامتلاك آلة تبريد وآلة غسيل وتليفون وغيرها من وسائل الراحة والاستمتاع .

ويبلغ متوسط عدد الصناعات الجديدة التى تظهر سنوياً بـ ٢٠٠ ألف صناعة .

وهكذا كانت الحضارة الأمريكية تدعو إلى النمو الاقتصادى وازدهار الأحوال الاقتصادية حتى أن الأخلاق والأسرة ومركز المرأة ونظام الحكم أصبح اليوم فى أمريكا تابعاً للأحوال الاقتصادية ، فالأسرة كتلة اقتصادية تتمسك بالمصالح المادية التى تربط الأبوين وأبنائهما بحيث إذا تراخت هذه المصالح تفككت هذه الكتلة .

وتقوم الحضارة الأمريكية كذلك على العلم ، فالفرد الأمريكى يؤمن بالعلم إيماناً بالصناعة ولا يفكر إلا فى استغلال العلم والتمتع بمنتجاته دون أن يعياً كثيراً بالجانب المعنوى لنفسه ودون أن ينعم النظر فى العالم الباطنى الذى يحمله فى قلبه وروحه .

وإذا كانت أوروبا تعتمد فى كثرة الإنتاج على سياسة الجهد وترغيب العمال فإن الأمريكين يعتمدون فى ذلك على مخترعات العلم الحديث وعلى الآلات الجديدة التى تزيد الإنتاج وتقلل ساعات العمل ، بل أن الزوجة

الأمريكية نظرا لما تستخدمه من طرائق العلم الحديث في منزلها يمكنها
أن تترك البيت لتعمل خارجه دون اهتمال لشئونه .

ولقد دفعت هذه الروح الصناعية البحتة للحضارة الأمريكية وهذه
النزعة المادية الصرفة للعقلية الأمريكية - دفعت نخبة من الكتاب
الأمريكيين إلى الثورة على الأوضاع الراهنة مثل الكاتب الحر « شرود
اندرسون » الذي لا تعجبه الحضارة الأمريكية بما فيها من سيطرة للآلة،
ويغزغ إلى عالم التأمل والأحلام، وشيخ هذه الحضارة بالسخرية اللاذعة
والتهكم المرير حيناً أو بالفرار إلى الطبيعة حيناً أو الالتجاء إلى الطفولة
وعالم الأحلام حيناً آخر .

وكذلك قام (سنكلير لويس) بمثل هذه الدعوة فكتب قصة (بابيت)
التي هي صورة مروعة لمخلوق هزيل هو نتاج الحضارة الصناعية . وقد
أخذ لويس يرسم لهذا المخلوق صورة رائعة من نفسيته وتصرفاته ، فهو
إنسان لا شخصية له يشغل مركز وكيل عقارات ويحيا حياة ملؤها الحركة
والعمل والنشاط لأنه آلة لإنتاج الدولارات غير أنه في الخامسة والأربعين
من عمره يحس أنه على شفا الهاوية وقاب قوسين أو أدنى من الموت ،
وأنه لم ينعم بعمره ولم يستفد من شبابه ، فيقذف بقلبه في أحضان
الحب ويهرع بعقله إلى أكتاف الفكر الحر المتمرد على الأوضاع الراهنة .

وليس معنى هذا أن شرود اندرسون أو سنكلير لويس أو غيرهما من
الكتاب والمفكرين في أمريكا يريدون انتزاع الحضارة الأمريكية من أصولها
الصناعية ومقوماتها الآلية ، إنما ينادون بإصلاحها واستكمال أوجه
النقص فيها وجعلها مقرونة بفضائل القلب والروح أيضا .

ولا يحفل الشعب الأمريكي في حضارته كالشعب الانجليزي مثلاً
بروح التقاليد ، إنما يمتاز بالتجديد ، فالتجديد سائر على قدم وساق في
التعليم بفضل جون ديوي وغيره من المفكرين المجددين في هذا الميدان . كما
أن التجديد قائم في فن العمارة ، وما ناطحات السحاب إلا لون من التجديد
والاختراع في فن العمارة الذي قلما نجده في أوروبا أو في العالم الإسلامي
والعربي بوجه عام .

ويمتاز الأمريكي كذلك في حضارته بشدة الثقة في نفسه ولا يعبا
بالتقائيد الاجتماعية ، ويرجع موقفه هذا إلى الظروف التي تكونت فيها
أمريكا ، ففي واشنطنون - على ما جاء في رواية قديمة - يجد السفراء
الأجانب مشقة ألحمة في الحصول على الخدم . وما من أمريكي يقبل أن يرتدى
زى الخدم ، وليس لمة ما يدعو أي أمريكي إلى ذلك ، فالسفراء مضطرون
إلى اختيار خدامهم من بين الأجانب الذين سرعان ما يتركون هذا العمل إذا
ما وجدوا عملاً آخر لا يفرض عليهم زياً خاصاً . . .

وكان السواد الأعظم ممن جاءوا أمريكا من الطبقتين الفقيرة
والوسطى ، ولما كانت مشقات الحياة في العالم الجديد قد عجمت مودهم
وخبرت قناتهم واكسبتهم شدة في البأس والمراس وجعلتهم أكثر اعتماداً

على انفسهم فقد فقد الامريكيون كل اهتمام بالمركز الاجتماعى او
الكثرات به .

وهكذا لم يجد احد فلاحى فرجينيا وهو متمتع بتمام قواه العقلية
غضاضة فى ان يقول للورد بلتيمور فى وجهه انه كذاب أشر ، وان يهدده
بلكمة يدمى بها وجهه ، وان يتحدث عامل صغير فى (سيرك) لترويض
الثمرة والاسود ويدعى بارنام الى الملكة فيكتوريا فى قصر بكنجهام كأنه
يتحدث الى اية سيدة فى الولايات المتحدة الامريكية .

وتقوم المرأة فى الولايات المتحدة الامريكية بتصيب كبير فى تدعيم
الحضارة الامريكية والمشاركة فيها بكل قواها . وبالولايات المتحدة الآن
نحو ١٢ مليون امرأة يعملن فى المصانع والمكاتب ويعملن وهن فتيات او
عوانس تقدمت بهن السن او متزوجات لا يمنعهن الزواج من التكسب
خارج المنزل ، وقد رفع الامريكى المرأة الى أعلى منزلة وأسمى مكانة ولها
الحل والعقد فى جميع شئون التربية والمنزل ، ويرجع ذلك الى ان
المرأة وقفت الى جانب الرجل وعملت معه فى جهود الاقتحام والارتداد
وأظهرت شجاعة متنازة وكفاية منقطعة انظير فى تدعيم كيان الشعب
الامريكى .

وقد قيل : ان الحضارة الامريكية لاتعيا بالفنون ولا تكثر بالآداب
الرفيعة ، ولكن هذا القول فيه كثير من الجور وعدم الانصاف ، وهذا لا يمنع
ان أمريكا مقصرة بعض الشيء فى هذا الباب لزيادة الآلات كالسينما التى
طفت على المسرح، كما ان الفنون الجميلة محتاجة الى قرون طويلة حتى
تنضج وتزدهر .. وامريكا امة حديثة .

وقد قامت نخبة من المفكرين الامريكيين منهم سنكلير لويس وتيود
وروديز ابتون سنكلير وغيرهم بدعوة صريحة فى العصر الحديث لحفظ
الآداب الرفيعة والفنون واعتبارهما قاعدة الحضارة الحقيقية وتقديس
ما توحى به من رغبة فى طاب الجمال والسمو بالنفس وتلطيف الشهوات
.. والسمو بالاخلاق وبث روح المحبة الصادقة والاخاء التام بين أبناء
الانسانية جميعا .

تلك هى ملامح فى الحضارة الامريكية وهى تدل على بوادر طيبة
ومظاهر نافعة سوف تنمو على مر الأيام وتزدهر .. وتنتج من كل زوج
بهيح ...

من عجائب العلم والاختراع في الغرب

في كل يوم يمر يأتي لنا العلم بشيء جديد ... شيء لم يكن في الحسبان وهو أشبه بالخيال وأقرب إلى الأحلام ... غير أن سلطان العقل البشري أخرجه إلى دنيا الحقيقة وعالم الوجود .

ومتال ذلك أنه أمكن بإساليب كيميائية جديدة منع الأرض أن تشرب الماء وتجنب الطرق من الأوجال ، ففي أماكن كثيرة في الولايات المتحدة وفي بعض البلاد الأخرى أمكن أن تلبس الأرض وقاء لا يتغذى منه الماء ، وذلك باستعمال مقدار يسير من مادة صمغية (راتنجية) تخلط بتراب الأرض وتمد على سطحها . ولا يزيد عمقها على بضعة بوصات ، وليس هذا الغطاء الذي يغطي التربة أشبه بالأسفلت الذي يغير شكل التربة إنما هو غطاء يظهر التربة كما هي في الصورة ، بيد أنها تختلف عن غيرها في الواقع . وإذا انهمر المطر سال الماء عنها إلى الخنادق أو بحر دون أن يخرق السطح .

وقد بسط هذا البساط الكيميائي الواقى على الطرق التربة في جنوب الولايات المتحدة وبنما وغينيا . وظل طريق ترب في ولاية ميسيسيبي - بعد أن عولج بهذه الطريقة - جافاً صلباً طوال فصول المطر الفزير .

ومن فوائد هذا البساط أنه يمنع نمو الحشائش والاعشاب في الفية المصانع غير المرصوفة والمناطق التي تمتد فيها خطوط السكك الحديدية - وساحات التنس التي اتخذت سطوحها من الصلصال .

ويرجع هذا الاختراع العلمي إلى الدكتور ونثركورن خريج جامعة مين ليبزج الألمانية والذي هاجر من ألمانيا إلى أمريكا حيث صار مدرسا في جامعة ولاية ميسوري ثم تخرج بالجنسية الأمريكية . وأنشأ مندرسات و معمل علم التربة ، في جامعة برنستون .

وفي ميدان الحياة البيئية أمكن اختراع الحرارة السائلة التي أصبحت مصدرا مستقلا لقوة تنفع في الطبخ والتدفئة والتبريد وغيرها من شئون المنزل .

والحرارة السائلة مادة كيميائية جديدة أخرجتها مصانع مؤسسة "جون بيرس" وتحقق قوة محركة واحدة تجمع معدات البيت بعد أن كانت حرارة الغاز في البيوت المتوسطة تحمر اللحم وحرارة الفحم تسخن الماء ، وتدفع في الغرف ، والكهرباء تسير الشلاجات وتنجز أشياء أخرى كثيرة .

والجزء الاصيل في الجهاز الجديد الذي يغني عن شتى وسائل القوى

المحركة عبارة عن موقد ومرجل، أما وقوده فهو فحم الانتراسيت، وفي
المرجل وأنابيب الجهاز نحو ستين جالونا من «سليكات تتراكوبسل» بدلا
من الماء، وتعمل الجالون من هذه المادة ربال ونصف الريال، ولكن اذا
ما صنعت منه مقادير وافرة للبيع نقص الى نحو نصف ربال.

واذا استثنينا ما قد يذهب منه سدى بالرشح فإن الحاجة لا تدعو الا
الى اضافة جالون واحد كل خمس سنين. وبعد أن تنتقل الحرارة السائلة
من المرجل تسير في أنبوب ملتف، فلا تلبث أن تظفر بماء ساخن لا ينقطع
وبغير حاجة الى خزان ثم ينطفئ الماء في الأنبوب الى آلة التبريد فيحرك
جهازها.

والحرارة السائلة تسير الى كل جزء من مواقع الطبخ الحديثة
ويضبط سيرها صمام كصنبور يقطع الحرارة أو يطلقها على حسب
ما نشاء، ويتم ضبطها بطريقة بسيطة كالطريقة المتبعة في أفران الغاز
والكهرباء.

وقد اخترع حديثا جهاز للاشعاع أطلق عليه (راديتور) طوله ١٣
بوصة وعرضه عشر بوصات وله مروحة تدفع الهواء الدافئ في غرف
البيت فيدفئها، وفي الوسع أن تصل أنبوبا تنساب فيه الحرارة السائلة
بالادوات الميكانيكية لغسل الصحون وأجهزة غسل الملابس وعصرها
وتجفيفها وآلات تبريد الهواء وغيرها من المعدات، كما يمكن استخدام القوة
الحرارية في إدارة أجهزة الراديو والتليفزيون والمراوح الكهربائية.

وبهذه الطريقة تغني قوة حرارية واحدة عن قوى حرارية مختلفة،
ويمكن توفير نحو نصف ثمن الوقود الذي يستخدم للطبخ أو التدفئة، إذ
أن البيت لا ينتفع عادة بأكثر من ٥٥ ٪ من حرارة الفحم الذي يلقي في
الموقد، وهذا ضرب من ضروب التوفير الذي يمكن ملاقاته باستخدام الجهاز
الجديد.

وبرغم أن الحرارة السائلة تستخدم بشروط خاصة في بعض الأحوال
الكهربية فإنه من المنتظر التغلب على جميع الصعاب المتعلقة بهذا الموضوع.

واخترع لي دي فورست أنبوبا سحريا أطلق عليه « أنبوب اوديون »
وهو أساس الصناعة الكهربائية (اليكترونكس) التي تقدر بأربعة آلاف
مليون دولار وأمكن بهذا الأنبوب نقل صوت الانسان فوق المحيط الاطلسي،
وانشاء أول خط تليفوني منتظم بين نيويورك وسان فرانسيسكو، وحين
شاع استعمال التلغراف اللاسلكي بإشارات مورس كان خير جهاز معروف
لالتقاط الاشارات من الهواء أنبوبا غليظا مملوا ببرادة فلزية تتلاصق حين
تجيء الاشارة فتتم بتلاصقها الدائرة الكهربائية ثم لابد من طرق الأنبوبة
بالمطرقة لكي تتفرق الدقائق المتلاصقة حتى يستطيع الأنبوب أن يلتقط
اشارة أخرى، ولذلك أخذ لي دي فورست يسعى الى اختراع كشف جديد
للاشارات أفضل من هذا الكشف.

وادخل لي دي فورست تحسينات مختلفة الى هذا الأنبوب وأمكن
اختراع جهاز « بليوتروور » الذي يقذف تيارا من أمواج الراديو القصيرة

التي تولد الحرارة لتخترق الخشب والعجائن وتزيد أوارها في فترة وجيزة الى درجة كبيرة كان لا يمكن الوصول اليها الا عن طريق قرن كبير .

وهذا النوع الجديد من أنبوب أوديون يستعمل في خياطة المعاطف الواقية من المطر المصنوعة من مواد كيميائية فبدلا من أن تخاط أطرافها يضم بعضها الى بعض بتأثير الأشعة ، وهو يستعمل أيضا في طبخ اللحوم .
وأمكن اختراع عين كهربية تفتح الابواب وتحمي المستودعات وتفرز رزم البضائع وتخترق الضباب فوق البحر حتى تنزل الطائرات سالمة في العواصف أو الظلام وتمنع القطر من الاصطدام .

وفي عالم الطيران استطاعت الطائرات أن تسير بقوة المحرك النفث أو الضاروخ وأمكن طائرات النقل أن تطير في جو الأرض بسرعة تفوق سرعة الصوت كما تستطيع هذه الطائرات أن تحلق الى طبقات الجو العليا ، أما خارج جو الأرض فقد استطاعت الطائرات بلوغ سرعة ١٠٠٠ ميل في الساعة بالقياس الى سطح الأرض بكل ما عليه من أحياء وأشياء التي يقطع الفضاء في دوران الأرض بسرعة الف ميل في الساعة ليل نهار ، والمجموعة الشمسية تذرغ الفضاء بسرعة ٥٠٠٠ ميل في الساعة .

وفي عالم الزراعة استطاع عالم أمريكي يسمى ادجر مكغدن أن يثبت قمحا عظيما لا تدركه الأمراض ، وقد راودته فكرة انبات هذا القمح الجديد في مزرعته بولاية ساوث داكوتا حيث أصاب مرض الصدا زرع أبيه ولم يكن غير خمسة معايير من أربعين معيارا عن كل فدان ، ولم يلبث هذا الوباء أن اجتاحت ولاية تكساس كلها وأصاب الأرض بالقحط والامحال ، وفي سورة هذا الوباء الذي يهلك القمح لاحظ أن هناك ضربا من القمح لا تصيبه آفة الصدا ، وهذا الضرب يعرف باسم « ياروسلاف امر » ، ولكن هذا القمح القوي الكثير الالياف لا يصلح الا علفا للمواشي .

وأخذ العالم مكغدن يفكر ويقدر وأخيرا أخذ ملقفا دقيقا وأزال به عضو الذكر من نوار قمح « ياروسلاف امر » ثم غمس على بقية النوار لقاحا من قمح « ماركوبس » ولف الردوس بورق رقيق ليمنع أي تلقيح له لم يصنعه هو بيديه .

وفي الحريف رأى جيويا سقيمة أسفرت عنها المزاوجة التي تمت في الصيف ثم بذر هذه الحفنة من الحبوب التي جناها في الحريف السابق ، وجعل يرونها يوما بعد يوم ويتطلع الى اليوم الذي تثبت فيه ، ولكنها أبنت أن تثبت وأخيرا لاح له شعاع من أمل وقبس من رجاء ، وأطلت نبتة واحدة براسها وظل مكغدن يزاول تجاربه حتى نجح في اخراج نوع جديد من القمح يقف أمام مرض الصدا . دون أن ينال منه شيئا . وأطلق على هذا النوع اسم الأمل Hope ومضى هذا النوع من القمح ينتشر شيئا فشيئا حتى قدرت المساحة التي زرعت في الولايات المتحدة وكندا بقمح مولد من صفوة تلك الحبة السقيمة التي جناها مكغدن بنحو مائة مليون فدان . وبيعت منه محاصيل وافرة الى مختلف بلدان العالم فمُنعت الجوع عن ملايين البشر ، وصالت الملايين من المحاصيل من الهلاك .

ولمى عالم الطب أمكن الوصول الى طريقة للتوليد بلا ألم بعد أن كان موضوع الولادة عينا ثقيلا ، وهما عظيما تحمله النساء ، فأمكن الوصول الى أسلوب جديد فى التخدير مختلف عن الأسلوب المستخدم حاليا ، ويقول النساء اللواتى حقن بهذا المخدر أنه زال منهن بعد الحقنة الاولى ببضع دقائق كل شعور بالألم وهذه الحقنات تتكرر فى فترات تختلف على حسب الحاجة من ثلاثة ارباع الساعة الى ساعة ، وتظل المرأة التى تنتظر الوضع مضطجعة على سريرها لا تشعر بالألم الى أن يأتى وقت الوضع فتنتقل الى غرفة الوضع .

ويجب بذل كل عناية لتقع الابرة تماما على الموقع الذى تقع عليه فلا يصل المخدر الى الدم او الى سائل العمود الفقرى بل الى البقعة المحيطة بالعصب ، ولهذا الغاية ابرة من الصلب تقبل الالتواء ولا يتطرق اليها الصدا ، وهى لقبولها الالتواء لا تنكسر ولو تقلبت المرأة على سريرها ، ويجب استعمال مخدر موضعى لقتل الألم عند ادخال الابرة ، وهذه الابرة متصلة بأنبوب من المطاط بزجاجة تحتوى على المحلول المخدر ، ويحقن منه ببضع ملاعق صغيرة واسمه (ميتكاين) وهو أحد مركبات الكوكايين .

ويقول الدكتور فرنسيس آرفنج أستاذ فى التوليد بكلية الطب بجامعة «سيراكيوز» الامريكية وقد أتاحت له الفرصة لاختبار الطريقة الجديدة : « ولا شك أن هذه الطريقة كاملة من جميع الوجوه ، فهى تمنع آلام المخاض ، ولا تؤثر فى حياة الام أو الطفل » .

وبهذه الطريقة أمكن العلم أن يكتشف أسلوبا مأمون العواقب لمساعدة الام على الوضع بدون ألم .

وأمكن الوصول الى اختراع جديد فى عالم الورق ، وهو الورق الذى لا يصيبه البلل ولا يتلفه المطر ، ولا يعنى هذا أن الماء لا يخترق الورق الحديد انما هو يبتل كأي ورق ، ولكنه متماسك فلا يتمزق ولا يتقطع ، وإذا غطيت هذا الورق ببعض الصمغ أو الشمع فإنه فى هذه الحالة يقاوم البلل بشدة ، ولا يخترق الماء أنسجته وقد وضعوا منذ عهد قريب كياسا من طبقات من هذا الورق بينها أسفلت لمنع الماء من النفاذ ثم ملئ الكيس دقيقا والقى فى نهر نياجرا ، فهوى من فوق الشلال ، وظل سبع ساعات ونصف الساعة يصلح الصخر عند أسفل الشلال ، فلما استردوه كان الكيس لا يزال صالحا للشحن ، وكان التدقيق الذى فيه جافا لم يدركه البلل . ولم يصبه الماء .

وقد استعمل هذا الورق فى اثناء الحرب العالمية الاخيرة ، اذ انتفع به رجال الجيش ورجال الاسطول فى صيانة كل شئ عرضة للرطوبة ، بل انهم أحضروا مجموعة من اكياس الورق وملئوها بالثبونة والاعذية والقوها فى البحر حتى تصل الى الشاطئ الآخر فلم يصبها أدنى عطب أو تلف .

ويقول صانعو هذا الورق أنهم يستخدمون فى صنعه نوعين من اللدائن نجدهما عادة فى علب البطارية الكهربائية ، والاعطية التى تتخذ لزجاجات الادوية والعطور .

وصنع أحد رجال المصانع نموذجاً لملائة تستطيع أن تفرشها على شاطئ البحر أو في روض فوق السندس الأخضر عندما تخرج مع أسرته لاجتلاء منظر الطبيعة الساحرة وتعمل هذه الملائة على رد الماء وانعكاس ضوء الشمس كما أنها لا تلتهب ولا تتأثر بالحريق، بل لقد توصل الصانعون إلى عمل بيت مبنى كله بهذا النوع من الورق في أرض معهد كيمياء الورق في مدينة « ابلتون » بولاية ويسكونس وهذا البيت يتألف من حجرة طولها ١٦ قدماً وعرضها ثمانية أقدام ، ولم يتأثر هذا البيت بوابل المطر أو انطلاق صنبور المياه .

وقد تمكن العلماء من اختراع نوع جديد من الفحم المسحوق الذي يمكن به إدارة محرك من محركات الاحتراق الداخلي بدلاً من البنزين أو الزيت .

وأنشئ في معمل جامعة جونز هيكنز في مدينة بلتيمور تربينات تتحرك بالفحم المسحوق على أحسن وجه .

والفحم الجديد مسحوق أشبه بسناج الصباح الاسود ، وقد بلغ من دقة أجزاءه أنه حين يدفع في حجرة الاشتعال يشتعل فوراً كأنه وقود من زيت .

وتمكن اختراع موقد للبيت ينفذ بتيار مندفع من الفحم المسحوق الذي يباع في علب محكمة الإغلاق .

ولكن هذا الفحم المسحوق لن يستطيع بآية حال أن يحل محل الزيت في أعماله الكبرى في تحريك دفة المدينة وعالم العمران .

وفي ميدان المواصلات السلكية واللاسلكية يتوقع العلماء أن تهدم في المستقبل غير البعيد أعمدة أسلاك التلغراف والتليفون فتباعد حطبا للتيار ويحل محل التخاطب بأسلاك التلغراف والتليفون شبكة أو شبكات من الأمواج الدقيقة ، فتمتزج فيها بأمواج لا يزيد طولها على بضعة بوصات فتحمل كل الرسائل التي تريد أن تحملها أيها من أخبار وصور وإذاعات ومحادثات تليفونية وصور وأحاديث تليفزيونية .

ومما يذكر أن شركة (انترنشنال بيزنيس ماشينز) عرضت أخيراً جهازاً إلكترونياً جديداً يستطيع أن يميز الكلمات الموجهة إليه وأن يجمع ويطرح الأرقام التي تقرأ عليه شفويًا وأطلق على الجهاز الجديد اسم غريب وهو « صندوق الحذاء » لأنه يقارب حجم الصندوق الذي يستعمل لهذا الغرض .

وقال أحد المسئولين في الشركة المذكورة : أنهم لا يعتزمون إنتاج هذا الجهاز في القريب العاجل ، بيد أنه قد يكون في مقدمة عدد كبير من الآلات التي تستجيب للأوامر الشفوية وقد يكون من بينها آلات كاتبة تكتب ما يملئ عليها من تلقاء نفسها . وآلات تخزين المعلومات التي تملئ عليها وآلات حسابية تستطيع الإجابة عن الأسئلة الشفوية .

كما اخترع العلماء جهاز « الأيسوفون » الذي يحل محل التليفون

ويسجل المكالمات التليفونية التي اتصلت بك في أثناء غيابك ويرد عليها
وعندما ترجع الى مقر عملك تستطيع ان تعرف من اتصل بك في الفترة
التي كنت فيها بعيدا عن مكتبك .

وفي ميدان التحاليل استطاع العلماء ان يحولوا مادة الى اخرى تختلف
عنها كل الاختلاف مما ربما لا يصدقه العقل أو يعتبره ضربا من الاوهام أو
لونا من الخيال .

ومن العجائب التي وصل اليها العلم الحديث ان استادا في جامعة
هارفارد وعد ان ياكل قميصه اذا اخطأ وقد بر بوعده ، فأخذ قميصه
وأذا به في حمض من الاحماض ثم عدل الحمض بمادة قلوية ، ثم صفى
السائل ، وأخذ المادة المترسبة فبسطها على كرة خبز ثم أكلها .

وابتكر علماء الزراعة في أمريكا أنواعا جديدة من حبوب الذرة
العويجة لها رهوس شائكة وتطرد الطيور التي تتغذى بالحبوب ، ومن ثم
تقلل من الاضرار التي تلحق بالمحصول ، وقد زرعت فعلا على سبيل
التجربة بعض سلالات الذرة العويجة في جنوبى ولاية فلوريدا وأماكن
أخرى .

وفي ميدان الطب أمكن اختراع عيون عجيبة من اللدائن تغنى عن عيون
الزجاج التي كثيرا ما ينبت بها الذين أصيبت عيونهم سناخطين ليلبسوا
غمامة سوداء ..

وهذه العيون الجديدة مصنوعة من نوع من لدائن البلاستيك على قياس
العين الطبيعية وترسم مقلتها باليد بحيث تشبه كل الشبه العين السليمة
من عيني من يستعملها .

وأهم من هذا انها تتحرك في يسر مع اختها الصحيحة ، وعلى في هذا
تختلف كل الاختلاف عن عيون الزجاج التي لا يكاد ينقضى عليها عام حتى
تحدث فيها خدوش بفعل سوائل العين ، ومثل هذه العيون الثابتة تظل
تحتك ببقيّة العين المستأصلة التي تتحرك من ورائها فإذا طال لبسها
فكثيرا ما كانت تؤدى الى التهاب خطير .

وقد توصل العلماء الى اختراع قالب لحجر العين الضريبة وعضلاتها
بالطريقة التي تصنع منها قوالب الاسنان ثم نصب في هذا القالب اللدائن
السائلة فإذا هي كالعين الاصيلية ثم يأتى عمل الفنان الطبي الذي يرسم على
ورق دقيق جيد صورة الحدقة وانسانها حتى تعادل العين في شكلها ولونها
كل المسائل ، ثم يطبع هذا الرسم على العين الجديدة لدرجة انه يصعب
تمييزها عن العين الاصيلية .

وتمكن عالم المائى يسمى « هنرى هارتونج » من مدينة هامبورج من
الوصول الى اختراع سفينة جديدة للغوص هي أشبه بطائرات الهليكوبتر
التي تشق أجواز الفضاء ، ويمكن هذا النوع من سفن الغوص الى مسافة
سبعة آلاف متر تحت سطح الماء .

ويعمل الهليكوبتر الفواض بالطريقة التي يعمل بها الهليكوبتر الذي

يطير في الفضاء ، أعني أنه يعمل بمراوح أفقية فتساعده على الفوص
والصعود الى سطح الماء وفقا لاتجاه الدوران .

ويستطيع هذا النوع الجديد من السفن أن يقاوم ضغط الماء في دورانه
في صورة أعنف من سفن الفوص الأخرى . وقد جهزت مؤخرة بمروحة
أضافية تقوم بعمل الدفة التي تعين اتجاه الفوص .

وبالهيلوكوبتر الغواص مخزن للبنزين ، وإذا ما غاص في الماء أخذت
درجة حرارة البنزين في الهبوط فيتناقص حجمه ، ويقل وزن الهيلوكوبتر
فيزداد هبوطه ، وتحدد المراوح درجة الهبوط في السرعة أو البطء .

ويخصص هذا النوع من الهيلوكوبتر الغواص للبحث عن بقايا
الطائرات والغارقة كما يستعمل حاليا في البحث عن آبار البترول
في أعماق البحار .

هذه بعض معجزات العلم الحديث التي استطاع العقل البشري أن
يصل اليها وصدق الله جل ثناؤه حين قال :

« استرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

والله اعلم بالصواب .

قصة كفاح

الفريد كروب ملك الفولاذ

لم تكن منه تتعدى الرابعة عشرة عندما استيقظ ذات صباح فسمع نباح اليماء في الدار جزعت منه نفسه وتقطع منه نياط قلبه وانهمرت الدموع من عينيه في لوعة وحسرة وحرقة وشجن : ذلك أنه سمع ب وفاة والده (كروب الأكبر) ، ولكنه لم يلبث أن لم شعث نفسه ... وجمع جماع قلبه ، ومنع الدموع من أن تسيل على خديه ، وذهب الى حجرة أمه يواسيها ويخفف عنها حنة المصاب وفداحة الحزن ...

وورى كروب التراب وانقضت سخاية اليوم والأسى يخيم على أسرة كروب وما أن جن الليل حتى ذهب (الفريد) الى مخدعه ، لكنه لم يذهب لينام فقد اعتراه في ذلك الوقت أرق طويل واستغرق في تفكير متصل في السبل التي يستطيع أن يتكسب منها ويهيئ السعادة له ولأمه . ولاح لعينه طيف أبيه ، فأنحدرت دموع من مقلتيه ولكنه مسحها ، وصمم على الجهاد والكفاح ...

ترك (كروب) الأكبر معسلا صغيرا لصنع البواتق من الحديد الزهر وإذابة الحديد الصلب ، ولم يكن يعمل في هذا المعمل سوى أربعة عمال وكان على رأسهم عامل مسن كبير يسمى (كومو) كان من أقرب الناس الى أبيه الراحل . فربت العامل المسن كومو على كتف الفريد ودعاه الى مراقبة العمل في المعمل والى أن يشرف بنفسه على سير العمل .

فكان الفريد يذهب كل يوم الى المعمل ويقف أمام (الفرن) ويشاهد الحديد الصلب وهو ينصهر والحديد الزهر وهو يفرغ لعمل بواتق مختلفة الأشكال والأحجام ، فتعترية النشوة وينسى الألم وينشرح صدره ويطمئن بآله . ولم تمض ست سنوات حتى استطاع الفريد أن يجعل هذا المعمل المتواضع مصنعا كبيرا يضم بين رحابه خمسين عاملا من خبرة العمال .

وعندما احتفل الفريد بالعيد العاشر لافتتاح هذا المعمل كان يحضر هذا الاحتفال في داخل المعمل مائة عامل شربوا جميعا نخب النجاج ... في سرور وانشراح ...

وقد استنبط (الفريد) ثلاثة أشياء استطاع أن يفرو بها السوق وتدر عليه ربحا وافرا وكسبا عظيما .

وأول هذه الأشياء طريقة عمل الملائق المعدنية فغزت السوق ملائق كروب المعدنية وارتاح الناس الى اتقان صناعتها إرتياحا كبيرا .

وثانى هذه الاشياء طريقة لعمل الاطر الحديدية من غير لحام .

وثالثها طريقة عمل المدافع من الفولاذ .

وقد قامت الطريقة الاخيرة بدور كبير فى حياته وكانت سببا من اسباب شهرته ومجده .

اما طريقة عمل الملاعق المعدنية فانه لم يلبث أن باع امتيازها بشمن كبير جدا الى أحد رجال الصناعة فى انجلترا واستغل المال الناتج من هذه الصفقة المربحة فى عمل تجارب عدة لصنع مدافع من فولاذ وعمل الاطر من الفولاذ كمركبات السكك الحديدية . وكانت الاطر قبل ذلك تصنع من الحديد الصاج وتلحم لحما فتكون كثيرة العطب قريبة الفساد . .

ونظر الفريد كروب الى مصنعه بعد ذلك بسنوات أو ان شئت الدقة فقل عام ١٨٥٨ ، فوجد فيه ما يربو على ستمائة عامل فحمد الله على هذا النجاح ، ثم خرج من المصنع وذهب لتوه الى البيت حيث توجه الى حجرة امه وقرب يديها من فمه ، وطبع عليها قبلة حارة تنبض بالوفاء وتنطق بالاخلاص .

واستطاع الفريد فى هذه الآونة ان ينتج مصنعه عددا كبيرا من الآلات الضخمة والمطارق البخارية الكبيرة والافران الثقيلة . كما اشترك فى المعرض العام الذى أقيم فى ذلك الوقت فى انجلترا وعرض فيه مدفعا وقطعة كبيرة من الفولاذ ثقلها طنان ، وأهدى مدفعا الى ملك بروسيا فتمتجه . نيشان النسر الاحمر . .

وعندما فتح المعرض الدولى الكبير للصناعات فى باريس عام ١٨٦٧ لم يشأ (الفريد) ان تفوته هذه الفرصة فعرض مدفعا طوله خمسة أمتار وربع المتر وقطر فوهته ٣٥ سم وفيه أربعون حفرة لولبية وقضى فى عمله سنة وأربعة أشهر وبلغت نفقات عمله ٦٥٢٥ جنيتها فى صنعها .

وذاع صيت مصانع (كروب) حتى زارها الملك ولهم الاول ملك بروسيا بنفسه وسبك امامه الفريد قطعة من الفولاذ ثقلها تسعة أطنان الى ٣٠٠ بوتقة وطرق قطعة أخرى ثقلها سبعة أطنان ونصف الطن وطولها ١٥ قدما بمطرقة بخارية فاشتدت دهشة ملك بروسيا من هذا العمل العظيم ، واعتبر مصانع كروب فخرا عظيما فى تاريخ الدولة .

وتوالى بعد ذلك المؤتمرات والمعارض كالمعرض الأمريكى فى فيلادلفيا ومعرض شيكاغو الدولى للصناعات وغير ذلك وكانت معروضات الفريد كروب تنال الصدارة بين المعروضات العالمية المختلفة .

وذاث يوم زاره أحد رفاقه منذ الصبا وكان قد غاب عن بروسيا فى رحلة طويلة فراعته ما شاهده فى مصانعه : فهنا مكاتب للبريد والبرق والحريق ، وهناك مدارس وكنائس ومعاسك ومطاعم وأندية للعمال وأبنائهم وملاعب لشتى الألعاب الرياضية . ومضى ذلك الصديق ينتقل بين أنحاء هذه المصانع والعجب يعلو محياه والدهشة تعقد لسانه وهو يرى كل هذه الغرائب ، ويرقب القطر وهي تنتقل بين أنحاء مصانعه وتقيب عن عينيه بعد أن تترك دخانا كثيفا لا يلبث أن يتفرق فى الهواء . . !

وذهب مادلنج رفيق الصبا الى الادارة العامة حيث يجلس (الفريد كروب) على مكتبه وقد تقدمت به السن واشتعل رأسه شيئا وارثسم عليه وقار الشيوخ وبدا في عينيه نشاط الشباب .

ذهب مادلنج الى صديقه الفريد فلم يكذب براه حتى احتضنه بين ذراعيه وغمره بقبلاته ثم اعطاه معاومات دقيقة عن مصانعه وذكر فيما ذكره له ان بمصانعه ٤٦٧٠٠ عامل و ٤٥٨ آلة بخارية وسكتين حديديتين طول الاولى ٣٦ ميلا وفيها ست عشرة فاطرة و ٧٠٠ عربة وطول الاخرى ٢٣ ميلا وفيها ٢٦ فاطرة و ٥٠٠ عربة ، كما ان بمصانعه ٥٩٠ ميلا من اسلاك البرق و ٣٢٨ محطة للتليفون .

فدخل مادلنج رفيق الصبا من ذكر هذه المعلومات وهناه على نجاحه المتقطع النظير غير ان الفريد كروب ظل يتكلم وكأنه يستلهم الماضي ويستعيد الذكرى امام عينيه ويقول :

اني احسب ان اول نعمة من الله بها علي ان خلقتني فقيرا ، فان هذه النعمة هي التي دفعتني الى الجهاد والكفاح والكدح والاقتصاد وانكار الذات ، وعرفتني قيمة المال ومدى ما يكابده الانسان في سبيل الحصول عليه ، فان ابن الغنى يدخل ميدان الحياة مغلول اليدين لا يعرف قيمة ما عنده اما ابن الفقير فيعرف قيمة الشيء ، وقيمة الشيء على حسب التعب الذي ينال به وما تعب على نيله كثيرا تزداد قيمته في عينيه عشرات الاضعاف .

وسمع الصديق هذه الكلمات فحرك رأسه في استجابة الصديق . وقال وهو يحاوره . . . حقا يا صديقي . . . حقا يا صديقي .

الموسيقى تغزو مصانع العمال في الغرب

ان ما كان بالأمس حلما أصبح اليوم حقيقة واقعة وما كان يحول
يخلد الفنانين والشعراء كأنه وهم من الأوهام أو أسطورة من الأساطير
لغدا اليوم يتمثل في وقائع الحياة . في المجتمع الأوروبي والأمريكي
والروسي وغيرها من المجتمعات المتحضرة .

لقد كانت الموسيقى بالأمس سنوى الفنان . وسقاء للمحب الحزين
أو ذى القلب المتفطر حتى ينسى آلامه وأشجانه وتبارجه وأحزانه فأصبحت
اليوم فضلا عن ذلك تخضع لتجارب علمية . ومقاييس دراسية في أثناء
اجراء العمليات الجراحية في المستشفيات الكبرى أو في أثناء تخدير المريض
تخديرا موضعيا أو في عموده الفقري . فيستمع اليها بسماعتين توضعان
على أذنه . فتخفان عنه وقع الشغور بأن الأطباء يمزقون بمباضعهم جسمه .
كما دخلت الموسيقى اليوم المستشفيات في البلاد الغربية للترويح عن
المرضى والتفريج عنهم . وانقش من التجارب التي يجريها الأطباء على هؤلاء
المرضى أنهم يتألمون نوما هادئا هنيئا . وتسكن أعصابهم . ويطمئن شعورهم .
ويزداد تعلقهم بالحياة . ويشرق أمامهم الأمل عقب سماعهم الموسيقى .

كما اخترع الدكتور المربست مقعدا موسيقيا لعيادة طبيب الأسنان
يجلس عليه المريض فيصغى الى زوائج النغم تنساب في أذنه وتصرفه عما
يكابده من ألم ويقاسيه من وجع في أثناء خلع إحدى أسنانه أو حقن لثته .
ويقول الدكتور البريجادير جنرال رالف دى فو مدير مستشفى
هالوران : ان الموسيقى يجب أن تكون في مقدمة وسائل التسلية في
المستشفيات العسكرية .

وقد رأت مراكز الصليب الأحمر في بروكلين وبوسطن ويقولون : ان
عزف الموسيقى في أثناء عمليات نقل الدم يأتي بنتائج باهرة . ومن ثم
لجأت الى هذه الطريقة في كثير من العمليات حتى لا يصاب المتطوع بالانغماء
في أثناء اجراء هذه العملية .

الموسيقى في المصانع الحربية

واخيرا استطاعت الموسيقى أن تدخل المصانع الحربية . فصارت
بعض المصانع في أمريكا تدبغ القطع الموسيقية عن طريق الراديو أو
الجرافوفون في أثناء القيام بالأعمال اليدوية . وعمد الى هذه الوسيلة أكثر

من ثلاثة آلاف من المصانع الحربية الأمريكية ، فبعثت في العمال روح الإقبال على العمل بعزم ونشاط ، وصار العامل يشتغل في عمله وهو صافي الذهن ، منشراح الصدر ، وضاء الأسارير .

وتدل الإحصائيات الرسمية التي أجراها الباحثون في هذه المصانع على أن الإنتاج ازداد عقب استخدام الموسيقى ازديادا ملحوظا ، كما بعد عن العمال التراخي والكسل ، وفتحت مداركهم لشتى العمليات الصغيرة التي يقومون بها .

وقد استعانت المصانع الحربية بعلماء النفس وأقطاب الموسيقى في اختيار المقطوعات الملأمة والمؤثرات الصوتية المناسبة ، فمما لا شك فيه أن الموسيقى التي يحب العامل أن يسمعها بمجرد أن يستأنف عمله في الصباح الباكر تختلف عن الموسيقى التي يجب أن يسمعها وهو على أهبة الانتها من العمل أو الانصراف للغداء ، كما أن الموسيقى التي ينبغي أن يسمعها عقب تناوله الغداء تختلف في تكوينها عن تلك الموسيقى التي ينبغي أن يسمعها وهو على وشك الانتهاء من عمله اليومي والذهاب إلى دور الخيالة أو المسرح أو ما إلى ذلك .

أثر الموسيقى في العمال

وقام رتشموند كاردنيل مدير أبحاث الموسيقى بالولايات المتحدة الأمريكية والدكتور هارولد موريس ماير بمباحث وتجارب واسعة النطاق لمعرفة مدى تأثير الموسيقى في إنتاج العمال ودرجات نشاطهم اليومي ، فأتضح أن الموسيقى انقصت حالات انصرافهم قبل الميعاد بمعدل ٦٦٪ وهبطت بحالات الغياب عن المصانع بنسبة ٨٧٪ وزادت نسبة الإنتاج بمقدار ١١٤٪ وأسفرت تجارب العالم الموسيقى رتشموند والطبيب هارولد على أن نسبة الشعور بالتعب والارهاق والصداغ نقصت إلى حد كبير كما راقبوا العمال في أثناء انهماكهم في العمل، فأتضح لهما أن العمال قلما ينظرون إلى الساعة المعلقة على الحائط أو يقطعون الوقت بالثرثرة وفارغ الكلام، كما أن الأساليب الحادة الجافة التي يستخدمها العمال بعضهم لبعض في أثناء تبادل أدوات العمل أو شكت أن تختفي تماما ، وكذلك بعض العلامات امتنعن عن التشديد « باللبان » وشغلن بالموسيقى وانكبين على العمل في شغف وإخلاص .

وكان لهذه النتائج شأن كبير في رفع مستوى المصنع وزيادة إنتاجه زيادة ملحوظة مما اغتبط به الرؤساء اغتباطا شديدا ، فزادوا علاوات العمال الذين يشتغلون في هذه المصانع ، فاشتد اقبالهم على العمل ، وعظمت رغبتهم في انجازه على الوجه الأكمل .

الروس يستغيثون بالموسيقى

وزحفت الموسيقى بشكل ملحوظ الى كثير من المصانع الروسية . وللروس موسيقى خاصة ، قلما يرتاحون لسواها من الموسيقى (المقطوعات) الغربية .

ولذا كان عزف المقطوعات الشعبية الروسية شيئا يلذ العمال الروسين الى حد كبير ، واصيب أحد العمال الروس بصدمة عصبية في أثناء العمل ، فلم يقو على الحركة ، فأخذ يضج ويصخب في وجه زملائه ، ويتصور أنهم مقدمون على قتله ، ولم يبدأ روعه الا عندما عزفت له الموسيقى بعض القطع الروسية التي تعود أن يستمع اليها في فترة معينة في حياته .

ويستخدم أحد المصانع الحربية في ألمانيا مقطوعات موسيقية معينة للعمال الذين يدخلون المستشفيات العسكرية : فمثلا أنشودة المسرة لبتوفن وشوبرت ثلاثم المرضى بالملائكوليا أو الكآبة والانتباض كما أن قطعة فاجنر ثلاثم المرضى الذين يثورون لانفج الأسباب .

أما من بهم امراض نفسية خفية فيمكن معالجتهم تجريبيا بقطعة أتود أن سول ماجور من شوبان Etude en sol majeur أو قطعة السونات باليتيك لبتوفن .

وأثبتت التجارب العلمية أن قطعة « مالكوريزت » لفاجنر زادت في حركة التنفس عند أحد عمال المصانع المرضى من ثمانى عشرة مرة في الدقيقة الى ثلاثين مرة ، وكذلك زاد النبض عنده بعد أن كان بطيئا .

وحذا حذو المصانع الحربية كثير من المصانع المدنية والمطاعم ومصانع النسيج والعطور وأدوات الزينة فزاد انتاجها بصورة واضحة ملموسة .

ويجرب أصحاب المصانع تجارب متعددة لاختيار أحسن أنواع الموسيقى وانسبها للعمال مستعينين في ذلك بخبرة الاخصائيين ، واتضح أن أحسن أنواع الموسيقى في المصانع هو الموسيقى الهادئة الوداعة الرقيقة التي لا تحمل الصخب ولا الضجيج ، ووجد البعثة الطبيب فيري Fairy أن الموسيقى السهلة تزيد في تفتح الأوعية الدموية في حين وجد أن العنيفة منها تضيقها .

واستحسن الأطباء استخدام الآلات الملائمة كالبيانو والكمنجة والكيلاريت والفأ في معالجة العمال الذين يفقدون الى المستشفيات لعلاجهم مما يشكون من المرض ، أما الهارمونيوم والشيلو والباس فوجدوا أنها غير ملائمة للعلاج بالموسيقى .

وانضح من التجارب كذلك أن موسيقى الجاز باند العالية الصاخبة
تثير العمال في أثناء قيامهم بالعمل ، وتبعث النقطة فيهم مرة واحدة ، غير
أنها لا تترك أثرها إلا لمدة محدودة ولفترة وجيزة ثم يعود التراخي والخمول
إلى نفس العامل .

مدة اذاعة الموسيقى

والمتبع في المصانع الأمريكية أن اذاعة القطع الموسيقية في أحد
المصانع تشغل نحو ساعتين ونصف الساعة في اليوم على فترات يتردد
طول كل منها بين عشر دقائق وعشرين دقيقة ، ويعمد كثير من أصحاب
المصانع إلى تشجيع العمال لتكوين فرق موسيقية ترفه عن زملائهم في
أوقات الفراغ ، وتقوم بأحياء حفلات موسيقية للعمل في المواسم والأعياد
وتصاحب بعض الفرق الرياضية في الأندية والملاعب لتشجيع اللاعبين ،
وإثارة الحماسة في نفوسهم وإذكاء الروح المعنوية العالية فيهم ، بل لقد
دلت بعض الإحصائيات الفنية الدقيقة التي أجريت في بعض المصانع
الأمريكية أخيراً أنه قد نبغ بين العمال في المصانع لقيف كبير من هواة
الموسيقى والغناء والتمثيل ، وانضم لقيف منهم إلى ميدان المسرح والسينما
فنال شهرة واسعة امتدت عبر البحار .

وهكذا استطاعت الموسيقى أن تغزو المصانع في الولايات المتحدة
كما غزت المصانع في روسيا وسنكت سبيلها في المؤسسات والمستشفيات
المختلفة بل في البنوك والمكاتب الهندسية المزدهمة بالموظفين مثل مكاتب
مجلة ريدر ديجست وشركة توماس للنشر وغيرها ، وتضم هذه المؤسسات
بين جنباتها مئات من الموظفين والخبراء والمهندسين والعمال الذين يقبلون
على أعمالهم بنفس راضية مرضية ، وعزيمة وثابة لا تعرف الركود ولا
الخمول .

الموسيقى في مصر

ودخلت الموسيقى في بعض المصانع في مصر ، بل لقد دخلت في
بعض عيادات الأطباء مثل عيادة الدكتور محمد داود التنير الذي يعالج
مرضى الأسنان على نغمات الموسيقى ، ولكن الموسيقى ورغم هذا كله توجد
على نطاق ضيق ونسبة ضئيلة ، وأنا نأمل أن تستعين المصانع المختلفة
بالموسيقى في تشجيع العمال على العمل وترغيبهم فيه كما نأمل أن تستعين
المصانع بالأخصاليين من علماء الموسيقى وعلماء النفس بل بالأطباء كذلك
في هذا المضمار حتى لا تكون النتيجة عكسية وحتى لا تضر العامل بدلاً من
أن تنفعه ، وتدفعه خطوات إلى الوراء بدلاً من أن تأخذ بيديه قدماً إلى
الإمام ، فيسقط بالبحث عن الإغاني ، والمردول من الموسيقى ، والمتهاقت
المتخثت من الألحان ، فتضعف عزيمته ، ويقترب جهده ، ويقل نشاطه ويفقد
انشراحه للعمل .

وينبغي أن يهتم الأطباء بفائدة الموسيقى في العلاج ، والمعروف أنه ظهرت في هذا الميدان أبحاث شتى ، وقدم الفنان ماكس ريجر منذ سنوات الى جامعة برلين بحثا عن الموسيقى نال عليه درجة الدكتوراه ، كما استطاع الجراح الأمريكي جون هوارد استخدام الموسيقى في عمليات لم تكن تطرا على بال مثل عمليات الزائدة الدودية وإزالة « الحصاة » من الكلى .

عدم التخلف عن ركب الحضارة الحديثة

إن العلم يفتح لنا كل يوم آفاقا جديدة ، ويفسح أمامنا مجالات شتى ، فينبغي أن تسير ركب العلم ولا نتخلف عنه ، ونتابع موكب الحضارة ولا ننفر منه ، فتلک سنة الحياة ؛ ومبدأ الوجود ولا بد أن تلحق بالركب ، ونستمتع بما يخرجه لنا العقل الانساني من أبحاث جديدة ، وتجارب مفيدة تصلح بها حياتنا وننظم بها كياننا ونثبت بها وجودنا فالركب يمضي ... والكلاب تعوى .. والقافلة تسير ...

الضمان الاجتماعي والتأمينات الاجتماعية

بين الشرق والغرب

كانت التأمينات الاجتماعية خطوة مباركة في حياة الأفراد بل في حياة الأسرة جمعاء . وقد اتخذت في العهد الاشتراكي الجديد صورة واضحة المعالم . متألقة الجنبات تختلف عن مشروع الضمان الاجتماعي القديم .

والواقع أن الضمان الاجتماعي عرف منذ قديم الزمن وإن اختلفت الصورة التي نراها عليها في العصر الحديث، فمن يرجع إلى تاريخ الفرائعة يجد أنهم كانوا يعرفونه ، ولكن بصورة محدودة وبمبسطة ، فلما انبثق نور الاسلام تحققت مبادئ هذا النظام وأهدافه ، وكانت الزكاة أول أسس الضمان الاجتماعي في الاسلام وأهمها ، وهي الركن الثالث للاسلام . وفريضة من الفرائض التي حث عليها القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضعا كما وردت في أحاديث كثيرة عن الرسول الكريم .

أما مصارف الزكاة فكانت وفق الآية الكريمة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والفارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » .

ويرى بعض الفقهاء أن حد الفقر المسموع لاستحقاق الزكاة هو ألا يملك الشخص قوت يومه وليله ، ويرى مذهب الحنفية أن الفقير من لا يملك نصيب الزكاة .

كما كان الوقف في الاسلام بابا من أبواب الضمان الاجتماعي .

والوقف في نظر الفقهاء هو حبس العين على أن تكون مملوكة لأحد من الناس فيجعلها على ملك الله تعالى . ويتصدق بريعها على جهة من جهات الخير في الحال أو المال .

كما أن النفقة عنصر من عناصر الضمان الاجتماعي في الاسلام ، والنفقة في العرف الغالب بين فقهاء الشريعة الاسلامية هي الطعام ، ولكن يعطفون عليها السكنى والكسوة .

وهناك أحوال ثلاث تجب فيها النفقة وهي الزوجة ، والقرابة والملك ، وشروط وجوبها أن يكون المتفق عليه معسرا أو عاجزا عن الكسب .

هذه وجوه بعض الضمان الاجتماعي في الاسلام ، أما في الغرب فقد عرف الضمان الاجتماعي منذ عام ١٦٠١ حين صدور قانون يسمى قانون الفقير .

ثم عرف باسم التأمين الاجتماعي عندما وضع بنسارك قانون التأمين

ضد المرض عام ١٨٨٣ وقانون التأمين ضد حوادث العمل عام ١٨٨٤ وقانون التأمين ضد الشيخوخة والعجز عام ١٨٨٩ .

وقد كان من نتيجة الثورة الصناعية التي غزت أوروبا أن انتشر استعمال الآلات وسابق أصحاب الأعمال إلى اقتناء الآلات الجديدة . والادوات الميكانيكية ، في شتى الشركات التجارية أو الصناعية ، وكان من جراء ذلك أن ازداد الانتاج بصورة ملحوظة ، وتوافرت كمياته ، بيد أن ذلك أصبح خطرا يهدد العامل في الصميم ، إذ أن الصناعة اليدوية أخذت تنهقر إلى الوراء ، وأخذت تختفي معالمها من المجتمع الصناعي الجديد رويدا رويدا ، وانهارت الصناعات الصغيرة التي كان يعمل فيها عدد كبير من العمال ، وتغيرت تبعاً لذلك العلاقات التي تربط بين العمال بأصحاب الأعمال ، وأصبحت البطالة شبحاً رهيباً يهدد العامل بين الحين والحين .

وتكاتف العمال بعد ذلك للوصول إلى مطالبهم ، ومجابهة الظلم النازل بهم ، واندلعت الثورات ثورة إثر أخرى في أوروبا ، وحاولت الحكومات المستبدة أن تكبت شعور الرأي العام بين العمال ، بيد أنهم لم تلبس لهم قناة ، في المطالبة بحقوقهم حتى خرجت إلى الوجود نظم جديدة تكفل لهم حياة كريمة ، ومنها نظام جمعيات الإعانة التبادلية ونظام التوفير ونظام التقاعد ونظام التأمين ضد حوادث العمل .

وأصبح تشكيل الجمعيات العمومية التبادلية أكثر سهولة وحرية عقب الثورة الفرنسية .

وتحت تأثير فكرة التأمين الاجتماعي وقوة الطبقة العاملة في أواخر القرن الماضي أتيج لهذه الجمعيات تأسيس صناديق للتأمين ضد الشيخوخة دون شرط الضمان الرسمي الذي كان مفروضاً عليها قبل ذلك حتى تتمكن من مزاوله التأمين . كما أجاز لها القيام بالتأمين التبادلي في حالات الموت والإصابات والأمراض .

وقد استعملت عبارة الضمان الاجتماعي منذ سنوات غير مقيدة في ضمائر التكافل الاجتماعي ، واستعملها الرئيس روزفلت عقب ذلك في رسالة إلى الكونجرس منذ ذلك التاريخ . بيد أن الضمان الاجتماعي في مختلف صورته وتعدد تعاريفه يعني التخلص من العوز بأن يكفل لكل مواطن مستعد للخدمة على حسب طاقته دخلاً كافياً في كل الأوقات لمواجهة تبعاته .

كما يرى السير وليم بيغردج في تقريره عن التأمينات الاجتماعية أنه يقصد باصطلاح الضمان الاجتماعي ، ضمان حصول الفرد على دخل يحل محل أجره عندما ينقطع هذا الأجر بسبب التعطل أو المرض أو الإصابة ، وعلى معاش تقاعد في حالة الشيخوخة ، وعلى إعانة في حالة وفاة العائل ، وسد النفقات الاستثنائية كما هي في حالات الوضع والوفاة والزواج .

والضمان الاقتصادي فضلاً عن فوائده للمستفيد منه يعمل على التنمية الاقتصادية في الدول المتخلفة اقتصادياً كما أنه يدعم ويوسع التقدم الاقتصادي في الدول المتقدمة اقتصادياً ، إذ يرفع مستوى الثقافة والصحة والمعيشة ، وهذا يؤدي إلى التقدم الاجتماعي والاقتصادي فيرفع من العمال عامل التعرض إلى المخاطر وعامل الخوف من أحداث الزمان وواجب الدهر ،

فان العامل القلق قلما ينتج ، اذ يظل مبلبل الخاطر على مستقبله ومستقبل أسرته ، كما أن الفقر يؤثر تأثيرا سيئاً على كرامته وإنسانيته . فجاء الضمان الاجتماعي وقرر صيانة الكرامة للإنسان ، لأنه ينمى في الفرد روح الاعتماد على النفس والاعتماد بها ودفع بواعث الاستكانة ودفع الخمول . ويساهم في رفع كفايات امكانيات الافراد الانتاجية .

ويعمل الضمان الاجتماعي كذلك على تخفيف النفقات بين الدخول الفردية ، لأن الدول الفنية ستحدد المعونة للدول الفقيرة وبذلك يرتفع مستوى المعيشة والقوى الانتاجية .

ويمكن استثمار أموال الضمان الاجتماعي في المشروعات الاقتصادية أو الاجتماعية كتأسيس مشروعات لصنع الأدوية أو الاثنيات الأخرى التي يقترحها الضمان للأفراد بصورة عينية ، كما يمكن إيجاد أبواب جديدة للاكتساب والارتزاق والنشاط الاقتصادي على وجه العموم حتى قيل : « أن أموال الضمان أموال استثمار أو رأس مال استثمار بدل أموال مدخرة » .

أما التأمين الاجتماعي فقد كفل حياة كريمة للأفراد وليس صحيحاً أنه غدا خطراً للأفراد والمؤسسات التأمينية الفردية في مجال النشاط الاقتصادي ، لأن هذا يصح أن يكون في مجتمع رأسمالي ، أما المجتمع الاشتراكي فلا يتحقق فيه ذلك كما هو الحال في بعض البلاد الرأسمالية التي تركت اصابات العمل بلا تأمين حتى تستفيد الشركات التأمينية من التأمين ضدها .

وليس بصحيح أن التأمين الاجتماعي كذلك أدى إلى زيادة حوادث العمل ، إذ أن الإحصائيات الأخيرة أثبتت أن هذه الحوادث في تناقص مستمر فضلاً عن أن التقدم الطبي يقوم بدور كبير في هذا المضمار ، فقلل عدد الحوادث المؤدية إلى العطل الدائم الكلي . وليس بصحيح كذلك أن عدد القضايا قد زاد نتيجة لاستخدام هذا التأمين إذ أن أغلب هذه القضايا يدور حول درجة العطل لغرض تعيين مقدار الإعانة .

وقد نص الدستور المصري الذي صدر في ١٧ من يناير سنة ١٩٦١ على ضمان العمل للجميع مع جميع الخدمات الثقافية والصحية ، كما أنه قرر في المادة ٢٣ التضامن بين الأفراد في تحمل أعباء الكوارث والمخاطر العامة ، وقرر لهم الإعانات في حالة الشيخوخة والمرض والعجز عن العمل ، وأوجب على الدولة أن تكفل وجود التأمين الاجتماعي والمعونة الاجتماعية بصورة واضحة .

وفي العهد الاشتراكي الجديد استحوالت الآمال إلى حقائق ، وهذه الأحلام إلى وقائع ، وخرج نظام التأمين الاجتماعي إلى الوجود بفضل السيد الرئيس « جمال عبد الناصر » الذي قال : « الاشتراكية الديمقراطية التعاونية طابع يشكله دور الأفراد في تقرير مصيرهم ، ومن أجل ذلك لا تستطيع الاشتراكية الديمقراطية التعاونية أن تنشأ إلا في مجتمع متحرر من جميع أنواع الاستغلال والسيطرة ، مجتمع تتحرك طاقته بلا أغلال ، واعية حقيقة دورها ، مدركة أنها ستجنى من الثمرات بقدر ما تعمل .. فما من أحد يكدح وغيره يجنى ، وما من أحد يستمتع بثمرات عرق الآخرين ١٠٠٠٠ »

كاتب غربي داخل افريقية

هذا كتاب نفيس ألفه الكاتب الأمريكي المشهور جون جوتشر وهو ضمن مجموعة كتبه القيمة التي صور فيها رحلاته عبر العالم ومنها كتاب داخل أوروبا وكتاب داخل آسيا وكتاب داخل الولايات المتحدة الأمريكية وكتاب داخل أمريكا اللاتينية .

وكتاب « داخل افريقية » يسير على النمط الذي اتخذته مؤلفاته جميعا وهو يمضي وفق الأسلوب الصحفي الجذاب والمعلومات الاخبارية المثيرة والرغبة في التشويق . زد على ذلك أنه يحاول أن يوجه النقدات تلو النقدات لما يرى ويسمع وهو في انشاء ذلك كله يعطي كل ذي حق حقه دون أن يكون متعصبا أو متجنبا أو متحاملا . اللهم الا في بعض الأحيان كقوله ان الجزائر جزء من فرنسا كما سيأتي وهو قول حراء .

وقد تكلم جون جوتشر في هذا الكتاب على دول افريقية ، وطاف بنا بين جنتاتها ، وانتقل بنا بين ليبيا والجزائر وتونس وسافر بنا في الصحراء ، وانحدر بنا الى أعماق افريقية حيث تضيء القارة المظلمة ، ففي افريقية فكر على أكبر نطاق على حد تعبير سيسل دروس ، وبين أن افريقية مستودع هام للمواد الأولية ولم يكبد يتم استغلال ما يزيد عن الطبقة السطحية من أرضها الى اليوم ، ومع ذلك فإنها تنتج ما يقرب من ٩٨٪ من انتاج العالم في الماس و ٥٥٪ من ذهبه و ٢٢٪ من نحاسه مع كميات ضخمة من معادن جوهريّة هامة كالمنجنيز والكروم والأورانيوم ، كما تنتج افريقية حوالي انتاج ثلثي العالم من الكاكاو وثلاثة أخماس زيت النخيل ، وفيها احتياطات لا نهاية لها من القوة المائيّة .

ويتكلم سكان افريقية حوالي ٧٠٠ لغة رئيسية مختلفة وتتضمن ١٠ لغات سامية و ٤٣٧ حامية و ١٨٢ للبانطو وليس أقل من ٢٦٤ سودانية .

أما بالنسبة الى الأديان فيقول جون جوتشر في كتبه : ان أهم الديانات في افريقية الاسلام والوثنية أو عبادة الحيوانات والمسيحية ويقول : ان هناك نحو ٦٠ مليون مسلم يتركز أغلبهم على الشاطئين الشمالي والشرقي و ١١٢ مليون وثني و ٢١ مليون مسيحي .

بيد أن الإحصائيات التي ذكرها جون جوتشر غير دقيقة لانه لم تجر حتى الآن إحصائيات دقيقة بالنسبة الى الأديان ، غير أنه يمكن اعتبار هذه الأرقام تقريبية .

وقد دافع جون جونتير دفاعا طليبا عن الافريقيين الذين رماهم الاستعمار بالتأخر وعدم مسايرة المدنية واقتراحهم المنكرات فقال :

لابد لنا عندما نذكر شيئا عن تأخر افريقية ان نذكر انه كان الى عهد قريب في ولاية كانتوكي ٤١٦٣٣ منزلا ليست فيها دورة مياه - وفي بورتوريكو البالغ عدد سكانها مليونين وربع المليون لا يوجد أكثر من ٤٩٧ طبيباً وان مليونا ونصف المليون من الشبان الأمريكيين رفض قبولهم في الحرب العالمية الثانية لجهلهم القراءة والكتابة ، وان سيارة تسرق في أمريكا كل دقيقتين ، وان ٣٤٧٦٣ مواطنا أمريكيا قتلوا في حوادث السيارات عام ١٩٥٤ .

وتحدث جون جونتير عن الجمهورية السودانية فذكر عنها بعض الحقائق : منها أن مساحتها ٩٦٧٥٠٠ ميل مربع أي ثلث مساحة الولايات المتحدة الأمريكية وتمثل الكاتب برأي وندل وباسكي في حل مشكلة الاستعمار في افريقية اذ يقول : ان مشكلة الاستعمار لا يمكن حلها الا بتوزيع الثروة في كل مكان .

كما قال ان هناك تيارا جارفا في افريقية لتكون افريقية للافريقيين ، فان القوميين الافريقيين يؤمنون بأنهم يجب أن يبدأوا في حكم أنفسهم من الآن ، وأن يتعلموا فن الحكم بممارسته ، وأنه خير لهم أن تقوم منهم حكومة سيئة الحكم من أن تقوم حكومة أفضل من الدخلاء البيض ، فان الطريق الوحيد لتعلم المشي هو الزحف .

وقال : ان الافريقيين في القارة يتظلمون من الاوروبيين الذين خنقوا التعليم تماما في معظم أنحاء افريقية ، ويكفي دلالة على ذلك انه كان لا يوجد في كينيا سوى ٣٥ مدرسة ثانوية للسكان الافريقيين البالغ عددهم ٥٠٠.٠٠٠.٥٥٠ ، أما عدد الطلاب المقيدون في هذه المدارس فلا يزيد عن ٣٥٥٥ ولدا و ٤٥١ بنتا ، كما أنهم يتظلمون من الاستغلال الاقتصادي ، اذ أن الاوروبيين في جنوب افريقية يستخرجون من التربة الافريقية ما تقدر قيمته بعدة مئات من ملايين الدولارات في كل سنة ، وان أصحاب مناجم الذهب هذه لا يدفعون لعمالهم من الاجور الا ما يتردد بين ٣٣ سنتا الى ٤٢ سنتا في اليوم أي ما يتردد بين ١٣ قرشا الى ١٦ قرشا يوميا .

وهذه الحقيقة المريرة موجودة للعيان ، ويلمسها الباحث المدقق في أنحاء شتى من افريقية .

وصعد جون جونتير الى شمالي افريقية ، فوصف المغرب والجزائر وتونس ، وذكر أن بعض الاوروبيين يمتدحون أن هذه المناطق امتداد لفرنسا نفسها سياسيا واقتصاديا وحربيا ووجدانيا . وقد وصف الجنرال جيوم دولة المغرب ذات يوم بأنها كسرة متفصلة من القارة الاوربية ، بيد أن أهل شمالي افريقية في الواقع عرب سدي ولحمة ، ولا بد لهم من الاحتفاظ بعروبيتهم ، ولا بد لتيار القومية العربية أن يكتسح كل تيار .

وقد وصف جون جونتير دول شمالي افريقية وصفا جميلا ، واعطانا

ملاحق برفقة من تاريخها السياسي ، وقال : ان الرباط هي عاصمة المغرب
ويبلغ عدد سكانها نحو ١٦١٦ و١٦١٦ نسمة ، وهي مقر السلطان وفيها شوارع
واسعة جميلة وبيوت أليفة غارقة بين الأشجار المزهرة ، ويقول جون جوتنر :
ان الاسم الصحيح للرباط هو « رباط الفتح » أي معسكر النصر ، وفيها
آثار عربية ترجع الى القرن الثامن عشر ، وتشبه الرباط الى حد بعيد مدينة
واشنطن .

اما الدار البيضاء الكبيرة فتشبه مدينة نيويورك ، ويبلغ عدد
سكانها حوالي ٦٠٠ ألف ، ومنذ أربعين سنة كانت الدار البيضاء عبارة
عن مجموعة من اكواخ الصيادين وهي اليوم تشبه الى حد كبير ريو دي
جانيرو ، او حتى ميامي ، ولها وجهة مؤلفة من المباني البيضاء يبرق في
معظمها الزجاج ، وتعلق فيها الشرفات العصرية البناء المظلة على البحر .

اما مدينة مراكش فيبلغ عدد سكانها ٢٣٧ ٢٣٨ نسمة ، وهي اكبر
مدينة في المغرب ، وبها فندق من أعظم فنادق العالم من حيث توافر
الاقامة المريحة والمناظر اشاعرية ويسمى فندق « المأمونية » وتحمل
مدينة مراكش الطابع الأفريقي البحت : فشوارعها أقل رصفاً وتمهيدا
من شوارع فاس ، واسواقها تستطيع أن ترى في أثناء سيرك السماء من
خلل السقف ، كما لو كنت تنظر بين فرجات خيمة ، وبالجمل فالك
تشعر بها طول الوقت وكأنك في صميم صحرائها الكبرى .

اما بالنسبة لاقتصاديات مراكش فذكر جون جوتنر منها عددا كبيرا
وقال : ان هناك مشروعا لاستخدام القوى الكهربائية المائية على نطاق
واسع ، وقد بنيت خزانات كبيرة بالفعل لهذا الغرض لوجود عجز كبير
في الفحم وللحاجة الملحة الى المزيد من القوة المحركة .

ويضيف جون جوتنر الى ذلك قوله : ربما كانت مراكش نفسها
غير خضبة غير ان أهلها مخلصون .

وبعد الحديث عن مراكش مضى جون جوتنر يتحدث عن تونس
والجزائر ، وذكر ان ثلث سكان العالم من العرب يقطنون في منطقة شمالي
أفريقية ، وتنتشر العقيدة الإسلامية هناك انتشارا واسعا وفي ذلك يقول
العالم « آلن . ه . بروودريك » : « الإسلام هو المذهب الوحيد بين المذاهب
التيشرية الذي لم يضعف في الأرض التي نبت فيها ، ويلاحظ أنه عندما
يفتح الدين الإسلامي بلدا ما يظفر به كلية فإنه لم يحدث ليومنا هذا
أنه أخرج منها » .

وقد تمكن الإسلام من بلاد شمالي أفريقية تمكنا شديدا ، ويحافظ
أغلب المسلمين على تعاليم دينهم ، بيد أن الشيء الذي أثاره أنه رأى في
بعض بلاد الشرق الأوسط مسلمين يشربون الخمر بشراهة كالارلنديين
تماما . أما في مراكش فلم يلحظ جون جوتنر هذه الظاهرة . ويحدث
أحيانا أن تقابل شابا مغامرا يرتشف كاسا من الخمر ولكنه ما ان يفعل
ذلك حتى يصاب بالدوار ويستولى على نفسه الخجل والشعور بالآثم .

وقد حاد جون جوتنر عن الحق عندما ذكر أن الجزائر جزء أساسي

من فرنسا برغم انفصالها عنها جغرافيا وإن سكان الجزائر الافريقيين مواطنون فرنسيون بكل مايتضمنه تعبير المواطن من الناحية الفنية من معنى ، فقد تناسى تاريخ الجزائر ، ونسى القبائل العربية المنتشرة في شتى أنحاء الجزائر ، كما نسى تلك الهجرات الاولى التي قام بها العرب منذ فجر التاريخ ، وكذلك نسى ذلك التاريخ المشترك الذي يجمع الجزائريين بالعرب منذ أبعد الحقب ، وتلك اللغة التي تجمع أبناء الجزائر بالقومية العربية برغم تلك المحاولات الكثيرة التي يقوم بها المستعمر لاغفالها ، وعدم تعليمها في المدارس حتى ينشأ الطفل وهو لا يعرف لغة آبائه وأجداده الاولين ، كما أن جون جونتير نفسه نسى أنه ذكر أن الاسلام اذا تمكن من أرض فبيهاث أن يقتلع وهناك غالبية من العرب المسلمين في هذه المناطق ولا يمكن تجاهل دورهم في بناء الكيان الوطني .

بيد أن جون جونتير أزاح القناع عن كثير من الاساليب الاستعمارية التي يستخدمها الفرنسيون في الجزائر من أجل تحطيم كل محاولة للنهوض ، ومن ذلك أن حكومة باريس لم تفكر في دفع مليم واحد لتعليم العرب حتى عهد قريب ، ويذهب سدس الاطفال العرب فقط الى المدارس حينما يبلغون سن التعليم حتى أن أكثر من مليون طفل محروم من فرص التعليم .

وتبلغ مساحة الجزائر ٨٤٧٣٠٠ ميل مربع أي حوالي أربعة أضعاف مساحة فرنسا ، ويبلغ عدد سكانها نحو تسعة ملايين بحال المستعمر بكل طاقة ممكنة أن يستغلهم لمصالحه الخاصة في فرنسا ، بيد أنها استقلت أخيرا .

أما تونس فقد ظفرت بالاستقلال ، وتبلغ مساحتها نحو ٤٨١٩٥ ميلا مربعا وعدد سكانها ٣٦٠٠٠٠٠ نسمة ، ويختلف حاكم تونس عن ملك المغرب في عدة أمور هامة منها أنه ليس من الاشراف أي ليس من نسل النبي .

أما ليبيا فهي دولة ناشئة تسير في طريق التقدم والتطور ، وتطل على البحر الابيض لكنها تمتد بعمق في الصحراء الكبرى وتخلو تماما من الانهار ، وتعتبر أكبر حجما من أوروبا الغربية وتبلغ خمس حجم الولايات المتحدة غير أن معظم هذه المساحة الهائلة صحراء لا قيمة لها . ولا يقطن هذه المساحة الواسعة سوى ١٥٠٠٠٠٠ نسمة معظمهم بدو رحل ، والخطوط الحديدية لا يزيد طولها على ٢٢٥ ميلا ، بيد أن هذه الدولة الناشئة لا بد أن تعيش وليس من سبب يمنعها من ذلك . فإن كانت ضعيفة وجب اعطاؤها دعامة لتقويتها ، وهي في الواقع آخذة فعلا في السير قدما بهمة ونشاط .

هذا طرف من الحديث الذي تضمنه كتاب « داخل افريقية » للكاتب الامريكي جون جونتير ، وهو كما نرى منتصف حيننا وغير منتصف حيننا آخر غير أن حديثه يدعو الى القراءة ويبعث على التأمل والتفكير .

سندباد بحرى جديد حول افريقية

انه ملاح عظيم وجواب آفاق قهر البحار ٠٠٠ من القرن الخامس عشر الميلادى أو من القرن التاسع الهجرى الا انه ملاح جديد لان البحث العلمى لم يهتد اليه الا منذ فترة وجيزة فقد عثرت على مخطوط مصور منقول عن المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٢٢٩٢ و ٢٥٥٩ كتبه احد البحارة الذين اشتركوا مع الرحالة البرتغالى الذائع الصيت فاسكودى جاما فى رحلة حول رأس الرجاء الصالح وهو شهاب الدين أحمد بن ماجد وكتاب ابن ماجد هذا يسمى « الفوائد فى اصول علم البحار والقواعد ٠٠٠ والاراجيز والقصائد » وهو أحد الكتب التى استخرجها واعتم بتصويرها أحد العلماء فى فرنسا ضمن مجموعة مكونة من أربعة كتب عن الملاحة عند العرب : وهى كتاب الفوائد لابن ماجد ، وكتاب الفوائد فى الملاحة لسليمان النهري ، وترجمة الاقسام الجغرافية فى المخطوطات المذكورة وشرحها مع تفسير الاصطلاحات العربية فى فن الملاحة ، وتراجم بعض الادلاء القدماء البرتغاليين .

وغنى عن البيان أن الدول الموحدة فى أوربا اتجهت نحو توسيع املاكها فى هذا العصر داخل القارة على حين اتجهت الدول القائمة فى شبه الجزيرة الاسبانية بطبيعة مركزها الى التوسع فيما وراء البحار والاستيلاء على موارد التجارة الشرقية التى كانت تدر الربح الوفير ، وكانت التجارة فى يد الغرب والهنود ينقلونها الى أوربا بطريقتين : أحدهما يبحرون أسيا الوسطى الى البحر الاسود ، والآخر يبحرون المحيط الهندى والبحر الاحمر الى السويس فالاسكندرية والبحر الابيض ، فلما قامت فكرة الدوران حول رأس الرجاء الصالح وأذن الملك أمانويل لفاسكودى جاما بتنفيذ الفكرة فكر فى ريان عربى يهديه فى رحلته ، ويكون على المأم تام بالمحيط الهندى على الخصوص ، وقد وجد فى شخصية ابن ماجد ضالته المفقودة وعونه على ارتياد البحار المجهولة .

وقد أشارت دائرة المعارف البريطانية الى معاونة بعض البحارة الهنود لفاسكودى جاما ، ومن المرجح أن يكون هؤلاء البحارة من العرب وعلى رأسهم ابن ماجد ، اذ ثبت لبعض علماء العرب أن فاسكودى جاما استعان بابن ماجد فى تسيير أسطوله حول الارض الذى أبحر من تاجوس فى ٩ من يولييه سنة ١٤٩٧ فى منطقة مالندى على ساحل افريقية الشرقية الى فاليفوت فى الهند .

وقد استطاعت سفن فاسكو دى جاما أن تتغلب على الانواء والاعاصير التى منعت بارتليمودياز من التقدم ومتابعة رحلته ، فعاد أدراجه مع رجاله بعد أن كانوا على وشك الهلاك . وعندما عاد فاسكو دى جاما الى البرتغال فى سبتمبر عام ١٤٩٩ كان يحمل لابن ماجد فضلا لا يثنى ومعروفا لا ينكر .

دراسة علم البحار

وقد لقب المستشرق الفرنسي جيريل فيران ابن ماجد بأسد البحار
وربأن غاسكو دي جاما .

والواقع أن من يتناول كتابه المخطوط يلاحظ مدى تفوقه في دراسة
علم البحار وطوقاته في أنحاء مختلفة من أرجاء العالم ، فقد أتى على وصف
جميل لكثير من البلاد التي طاف حولها أو نزل فيها في أسفاره : كساحل
الهند الغربية وشبه جزيرة العرب وجزيرة مدغشقر وسومطرة وفرموزة
وسيلان وزنجبار ، كما ضمنه طريق سير السفن في البحر لمعرفة منازل
القمر ومهب الرياح ومعرفة القبلة وأصول الملاحة وحجر المغناطيس
وأقسام الأبرة المغناطيسية .

وقد ختم كتابه « بحاوية » تشمل أراجيزه وقصائده كارجوزته عن
الملاحة في خليج عدن عام ١٤٨٥ ومعرفة القبلة عند العرب والاستدلال
عن النجوم وذو المراسي على ساحل الهند الغربية وأرجوزته في فوائد
لبعض النجوم الشمالية في سير السفن وأرجوزة الضرائب في ذكر
الكواكب النافعة في الملاحة ، وهي في ١٩٢ بيتا ، وأرجوزته المنسوبة لعل
ابن أبي طالب في معرفة منازل القمر وحقيقتها في السماء وأشكالها
وعدها وأوصافها ، وأرجوزة « الهاوية » في النجوم التي توافق رسو
السفن في وصف المراسي . وأرجوزته في الضفدع والأسماك والحيتان ،
وأرجوزته في الصخور البحرية وأعماله وغير ذلك من الأراجيز الطريفة
التي تشتمل على تجارب ابن ماجد في مضمار الملاحة وعلو كعبه في هذا
الميدان .

ومن طريف ما ذكره عن علم ركوب البحار : « اعلم أيها الطالب
أن لركوب البحار أسبابا كثيرة ، فأفهمها ، فأولها معرفة المنازل والاضغاف
وأندير والمسافات والباشيات والقباس والأشارات وحلول الشمس
والقمر والأرياح وأسمائها ومواسم البحر وآلات السفينة وما تحتاج
إليه وما يضرها وما ينفعها وما يضطر إليه في ركوبها .
وينبغي أن تعرف المطالع والاستويات وحالة القياس ومطالع النجوم
ومغاربها وطولها وعرضها وبعدها ، وينبغي أن تعرف ما في الأعماق
كالطين والحشيش والحيتان ومد البحر وجزره وآلات السفينة » .

واشتمل كتابه كذلك على الآداب التي ينبغي أن يتوخاها المسافرون
في البحر مما يعد دستوراً طيباً للبحارة والمسافرين فقال :

« ينبغي أنك إذا ركب البحر أن تلزم الطهارة فانك في السفينة
ضعيف من أضياف الباري عز وجل فلا تغفل عن ذكره ، فانه شديد
العقاب وانه لغفور رحيم لانه يمهل ولا يهمل فلا يقرنكم بالله الغرور وترك
ما يعتنيك وانه جميع الركاب عن كثرة المزاج في البحر ، فما ينتج منه الا
الشرب والبغض والعداوات ومن أكثر منه لم يخل من حقد عليه أو بغض له
أو استخفاف به » .

ثم يوجه ابن ماجد بعد ذلك الخطاب الى ربان السفينة في تأكيد وتصميم : « ولا تركب سفينة الدلالة والهداية وانت فيها غير مطاع ولا تأخذ دركها على نفسك درج الدلالة فلا تكن الا مطاعا . وهذب الراى فان ركوب البحر عند من لا يسير مسيره صعب فى بر او بحر » .

اقامتى بين من لا يقتضى اثرى امر من خطرات البحر فى المظن
دعنى بفلك اقسامها على خطر فانها خير من صعب على خطر
ذى آية الله مثوى لى ومصطحبى رب كريم ومون المرء فى السفر
انفقت عمري على علم عرفت به فازددت بالعلم توقيرى على كبر
(ص ٥٩ مخطوط باريس)

معرفة القبلة

وقد اتى لنا ابن ماجد فى كتابه على طرق لمعرفة القبلة ونظم هذه الطرق فى ارجوزة من اراجيزه الطريفة وقدمها بمقدمة نثرية يقول فى اولها :

لما رايت الناس يميلون عن معرفة القبلة وليس لهم اصل يعرفونها
به خصوصا فى المدن اللواتى بقرب البحر وجزره التى يمر بها المسافرين
نظمت هذه الارجوزة واقمتها باوضح الادلة واسهلها بأربعة وجوه :

الوجه الاول بطول مكة المشرفة وعرضها وطول البلد الذى فيه
الانسان وعرضها .

والوجه الثانى على الجدى

والثالث على بيت الابرّة .

والرابع على جهات الكعبة الاربع .

ويحتوى كتاب الفوائد فى اصول علم البحار والقواعد على تغييرات علمية كثيرة فى علم الفلك والنجوم وقد اشاد فران فى مقدمته الى أن ابن ماجد لا جناح عليه فى استعمال هذه الاصطلاحات لانه بحار ، وقد كتب كتابه الى بحارين مثله ، غير أن ابن ماجد كان يشعر دائما بأنه لا يزال عند ابواب المعرفة فكان يقول :

يا ايها الناس مهما شئتمو قولوا الارض معلومة والبحر مجهول .

وكان فى بعض الاحيان يزهو بعلمه ويفخر بتجاربه الكثيرة فيقول :

فان تجهلوا يا قوم قدرى فانما سيأتى رجال بعدكم عارفو قدرى
بطول الذى قاسيت شرقا ومغربا وقست شمالا او جنوبا الى القمر

فينبغى للانسان أن يعرف الشر أكثر مما يعرف الخير لان الخير للزيادة ومعرفة الشر للوقاية ، وكانما أدرك ابن ماجد فى هذه العبارة أن

العلم ضرورة ، غير أن هناك علوما لا بد من معرفتها وإن كانت الشجى فى
الحلوق .

وقد وصف ابن ماجد فى كتابه البحر الاحمر وصفا جيدا ، غير انه
ادعى انه اكبر البحور ، ولعل ذلك يرجع الى قلة الآلات المستعملة وقت ذلك
فى المساحة وقيل : ان ابن ماجد قد اخترع الابرة المغناطيسية ، كما ذكر
برتن الانجليزى ان بحارة عدن فى سنة ١٨٥٤ كانوا قبل السفر يتلون
القاتحة اكراما للشيخ ماجد .

ومهما يكن من شئ ، فان هذا المخطوط الذى بين ايدينا يلقى كثيرا
من الاضواء على ربان عربى كان له شأن عظيم فى الملاحة وكان من أبرز
المعاونين للرحالة البرتغالى فاسكو دى جاما فى رحلته حول رأس الرجاء
الصالح ، كما يلقى الاضواء على علم البحار مثلما يراه ذلك الربان العربى
وكما كتبه فى أسلوب نثرى حيننا واسلوب شعري حيننا آخر حتى يكون
أقرب حفظا عند البحارة وأشد مساسا لقلوبهم وعقولهم جميعا .

حديث في الصحافة لعالم غربى

يعد الكاتب الصحفى الانجليزى ويكهم ستيد Wichham Steed من اعلام الصحافة فى العصر الحديث ، وقد عمل فى الصحافة مدة طويلة وقام بتصيب مشكور فى خدمة صاحبة الجلالة فخيرها خبرة واسعة ووصل فى ميدانها الى غاية بعيدة حيث اشرف على تحرير جريدة التيمس الانجليزية فترة طويلة من الزمان ، ودام عمله فى الصحافة خمسين عاما ، فتعلم الاختزال واتقنه ، وخبر التحرير واحسنه ، وعرف كيف يلج المجتمعات ويحضر المحاضرات ، وقد ألف ويكهم ستيد كتابين فى الصحافة سمي الاول The press كما سمي الكتاب الآخر Journalism ، وله غير هذين الكتابين كتب اخرى ومقالات جميلة فى الصحف ، وقد لجأ ويكهم ستيد الى الصحفى الكبير ت.ستيد يسأله النصيح فى ميدان الصحافة فقال ستيد لستيد :

(كل ما يحضرك فى الكتابة فأسرع ودونه وبعد أن تدونه تصور أنك سوف ترسله بالبرق وأنت فى بلدك انجلترا الى استراليا على نفقتك الخاصة بحيث تكلفك الكلمة الواحدة شلنا ، وعلى هذا ينبغي أن تحذف ما لا فائدة منه ولا غناء فيه وستجد فى النهاية أنك حذفت كثيرا وأبقيت قليلا ، ولكن هذا القليل هو ما ينبغي أن ترسله الى صحيفتك) .

هذه هى نصيحة رجل صحفى قديم من اساطين الصحافة أرخ حياته فردريك وايت : Fredric Whyte فى مجلدين لويكهم ستيد ، فالصحافة إذن لا تقبل المراوغة ولا المداورة ، ولا تحتل الاسهاب ولا الاطناب ، ولا ترغب فى دوران الجمل الكثيرة حول معنى واحد ، إنما تريد الصحافة شيئا سهلا يسيرا قصيرا يقبله القارىء ، فى سهولة ويسر دون أن يكلف نفسه عنا القراءة ودون أن يكلف كاتبه عنا الكتابة كذلك فيستريح ويربح .

وقد بين ويكهم ستيد مهمة الصحافة فى جمع الاخبار التى تهم الرأى العام واعلانها وتفسيرها ، وهذه المهمة مفيدة قيمة ما فى هذا شك وفيها كثير من المسؤولية ، ولكن فيها أيضا كثيرا من الشرف والفخار :

فمنذ فجر التاريخ ومنذ مستهل الحياة فى هذه المعمورة ولا نستطيع أن نعين بالتحديد ذلك الوقت الذى قامت فيه الاخبار بدور حيوى كبير فى حياة الانسان بل وفى حياة الحيوان أيضا ، فمجرد اتقاء الحيوانات للخطر ما هو الا (اخبار) بذلك ، وكذلك الحال فى المجتمعات المتحضرة ، فالمحكمان يحاولون أن يستشفوا الاخبار الوثيقة والبيانات الصحيحة عن الشؤون المؤثرة فى

مصلحتهم ، ولذلك وجد السفراء كما وجد المتأدون على الاخبار أو الجارون لتبليغها ، كما وجدت المراكب السريعة لنقل الاخبار ووجد من يحملون الاخبار والرسائل على ظهور الدواب . ووجد المتكهنون والعيون والجواسيس . ولذلك قالوا في الامثال (أن تقدر الخطر قبل وقوعه وهو أن تستعد قبل حدوثه) فمعنى الاخبار أن تعطى الشعب تحذيرات أو تبليغات بين الحين والحين عن الاحداث التي وقعت أو الاحداث التي قد تقع ودورة هذه الانباء بين افراد الشعب خدمة اجتماعية لها قيمتها ولها خطرها .

فالمصاحفة اذن صورة حديثة من الخدمة الاجتماعية قد نهضت وانتعشت بفضل الطباعة ، ولم تثبت أن ازدادت نهوضاً وانتعاشاً وامتلأت حياة وتشاطاً بفضل الانتقال من المرحلة البدائية الى المرحلة الميكانيكية ، فأمكن بذلك أن تجمع الاخبار ، وأن توضع في اطارات معدنية وأن تنشر على الناس بكميات كبيرة .

ولم تكن للمصاحفة في منشئها الا حرية محدودة حتى وضعت الدساتير السياسية ، وحررت الطبقة الثالثة أو السلطة الثالثة بتعبير آخر ، وأطلقت على الصحافة السلطة الرابعة ، ومن ثم أخذت الصحافة تزدهر وتنتعش ، وكان بعض الصحفيين يخرجون دوريات تناقش المصلحة العامة كما تناقش شئون الشعب ، ولكن لم تكن في إنجلترا صحافة مستقلة كاملة الا في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، وأسست بعض المطابع التي ساهم في تكوينها كثير من المولدين ، كما أنشئت جريدة التيمس The Times في سنة ١٧٨٥ تحت اسم (الدلي يونيفرسال Daily Universal register) وقد أسسها طباع يسمى جون ولتر John Walter حتى تؤكد للناس قيمة فن الطباعة الحديث ، وثبتت الصلة الوثيقة والوشيجة القوية بين تقدم فن الطباعة والخبرة الصحفية .

وظفقت الصحافة تنمو وتزدهر منذ أن أصبحت معرفة الاخبار عملاً قانونياً خاصاً ، وكان من الطبيعي أن تحاول الحكومات أن تسيطر أو أن تحد من سلطة الصحافة سواء بفرض عقوبات أو غرامات رادعة ولا سيما عندما خاضت الصحف في المسائل السياسية والشئون الدبلوماسية ، فكان من اللازم الحرص في هذه المسائل والحيطة في تناول هذه الشئون ، ولا تزال الصحافة حتى اليوم معرضة لكثير من القيود ، ومن أمثلة ذلك قانون تسوية السمعة والقذف والتشهير Law and libel

ولذلك كان كثير من الصحفيين مقيدين في تقديم وتعليقهم على الانباء . فيفرضون بذلك رقابة من أنفسهم على أنفسهم ويتخذون الحيطة في نشر الاخبار .

ويعتبرون هذه الحيطة واجباً مفروضاً عليهم لا مفر منه ولا محيص عنه ، وقد صرحت بذلك جريدة نيويورك تيمس الأمريكية التي جعلت من مبدئها (نشر كل الاخبار الجديرة بالطبع) فللمجتمعات الديمقراطية وقت السلم الحق في معرفة كل ما يمس مصلحتها العامة وما حرية الصحافة أو بمعنى آخر غياب القيود الرسمية على استقلال الصحفيين في الظروف

العادية الا منحة لاستتياب السلام الاجتماعى ، أما فى وقت الحرب حيث تنتشر الاخبار المذيرة الخطيرة وحيث يمكن الخير الكاذب أن يهدد كيان الأمة جمعاء فقد وجب أن تفرض رقابة رسمية على الصحف لان هذه الرقابة لا يمكن الاستغناء عنها فى مثل هذه الآونة الحرجة .

ولكن تحت تأثير أى الظروف والاحوال يستغل الصحفيون هذه التجارة ؟

أما اذا كانت الصحافة مهنة فما المؤهلات التى تطلب من الصحفيين ؟ وما الشيء الذى يؤهلهم أن تطبع اخبارهم وتباع افكارهم وبأى الدرجات العقلية والميزات الاخلاقية يتحلى الصحفيون قبل أن يسيطروا على روح الاستطلاع فى الشعب ؟ فالصحفيون لا يجتازون امتحانات مهنية والصحفيون ربما لا يكونون حاصلين على دبلومات أو درجات علمية ، وربما لا تزيد ثقافة بعضهم عن ثقافة فنان صغير ، فمن أين أتتهم هذه السلطة ، وكيف حصلوا على هذا المركز وهذه المكانة العظيمة ؟

المفروض أن الصحفيين ينبغي أن يكونوا أصحاب (أقلام مستعدة) Ready Pens للكتابة فى أى موضوع من الموضوعات بغض النظر عن الموضوعات التى لا يعلمون عنها الا النثر اليسير والقدر الضئيل ، فهناك اخبار صادقة ، وهناك اخبار كاذبة ، وهناك موضوعات يضطر الصحفي الى الحوض فيها تكون مما تميل اليه نفسه وتستهوئ قلبه ، ولكن كثيرا من الصحفيين يخطئون فى نصح المبتدئين بالدخول فى ميدان الصحافة والمضى فى سبيلها .

ويرى ويكهم ستيد عكس هؤلاء جميعا ، فبعض الشباب يسألونه عن كيفية الدخول فى ميدان الصحافة وعن كيفية اتخاذ الصحافة كمستقبل لهم ، فيلقى ويكهم ستيد بالماء البارد على مطامحهم (الحارة) ويضعهم فى امتحان عسير حتى يخلص عقولهم مما بها من آمال كاذبة وأحلام براقية ..

فبعض الهواة يرون - وبدون سبب معقول مقبول - أن للصحفيين قدرة أدبية ، ولكنهم فى الواقع يبعدون عن الحقيقة كثيرا ولا يعرفون أن الانسان قد يكتب عبارات صحيحة سليمة من الأخطاء ، ولكنه يكون غير صالح للصحافة ، على حين يرى الآخرون أن لديهم افكارا كثيرة يرغبون فى نشرها ، ولكنهم لا يعرفون أن الصحافة تعتمد على الجانب التجارى كذلك ، وأن بعض الافكار ربما لا تجد عند جمهور القراء قبولا ، وقد تجذب الهواة الآخرين المرتبات الضخمة والأجور المرتفعة التى يحصل عليها الصحفيون الناجحون ، ولكنهم لا يدرون ما وراء هذه المرتبات وهذه الأجور .

غير أن أكثر طلاب الصحافة يتمنون أن يدخلوا فى ميدانها كقاعدة عامة بجوار عجلة الطباعة ، وأن يشاركوا بأيديهم فى تكييف الفكر للأمة .

وقد يكون من حق هؤلاء جميعا أن يأملوا وأن يستلهموا آمالهم من الصحافة ، ولكن ويكهم ستيد الصحفي المجرب الخبير يرد عليهم : كلا ،

الا اذا كنت مستعدا أن تخاطر وأن تكابد الفقر ابتغاء وجه الصحافة وتفضل ذلك العمل على أن تكسب رزقك من عمل مريح في أى مكان ...

انه بالرغم من وجود مدارس للصحافة ومعاهد لتدريب الصحفيين فان الصحفيين يولدون ولا يصنعون ، وقد تمر سنوات كثيرة على شباب تعلم الصحافة والكتابة الصحفية الفنية (النظرية) حتى يعلم انه ينقصه الاستعداد الشخصى والميل الحقيقى الذى بدونه تكون حياة الصحفي فارغة .

ليس كل من يعمل في صحيفة صحفيا ، فالجريدة تضم كتبة مثل كتبة البنوك ، كما تضم مستخدمين وأطباء ومحامين ورجال أعمال . وهؤلاء جميعا لا تفتقدهم الجريدة في وقت من الاوقات ، ولكنها دائما تفتقد الصحفيين فهؤلاء الصحفيون لا يمكن أن تستكفى بهم صحيفة من الصحف ، انهم رجال ونساء يعقول ذكية وافكار نيرة وعزيمة ماضية للبحث والتنقيب في أرجاء المعمورة أملا في الوصول الى ذلك اليوم الذى ينشرون فيه آراءهم ويثبتون فيه معتقداتهم في عقول الآخرين . وعندما يذكر ويكهم يستبد الصحفيين يعنى ما يقول بهذه الكلمة ، غير ان للصحفيين المؤهوبين الحق في معرفة التفاصيل الدقيقة والصعوبات الكثيرة في عملهم والعقبات التى تحول بين الجوانب المثالية والمناحي المادية ، تلك العقبات التى تصرف الصحفيين عن تدوين خبرتهم .

فرايهم في الصحافة عظيم غير أنهم يحسون بالثغرة الواسعة التى تفصل الجوانب النظرية عن العملية والمثالية عن الحقيقة ، وهم يعتقدون في قرارة نفوسهم أنهم لا يستطيعون تقرير كون الصحافة صناعة أو عملا أو مهنة حرة أو وزارة ، فالتجربة قد علمت الصحفيين أن الصحافة قد تكون هذا كله أو بعض هذا كله . والصحفيون قد يكونون هذا كله أو بعض هذا كله .

والصحفيون لا يستطيعون أن يضعوا تعريفا جامعا مانعا للصحافة وان كانوا يعرفون أن الصحافة تتكون من جمع الاخبار وطباعة ونشر اخبار احداث يوما بعد يوم بتعليق أو بدون تعليق وبوجهة نظر أو بدون وجهة نظر .

والصحفيون يعرفون أن الصحافة عمل فيه كثير من المسئولية ، لان الاخبار ينبغي أن تكون صحيحة كما أن التعليق ينبغي أن يكون امينا ، وعندما تطبع وتنتشر الاخبار ينبغي أن تباع ، غير أن الجمهور ربما لا يحب الاخبار السيئة أو الآراء التى لا طعم لها ، فمنتجو الصحف يعتمدون على ذوق الشعب ، ولكن كيف يؤهلون لذلك ؟ والى أى مدى يخدعون أنفسهم ويدعون ثقتهم ليجعلوا اخبارهم وآراءهم توافق ذوق الجماهير ؟ ومن تلومهم في هذه الحال كما تلوم التاجر الذى يطفف في ميزانه ، والصانع الذى يزيف في صناعته ؟

وهذه الاسئلة تساعد على بيان المبدأ السائد أو الذى ينبغي أن يسود في الفن الصحفي ، فالامانة الصحفية ثقة اجتماعية ضرورية قد وضعت

كاتفق مع الشعب حتى تكون الاخبار صادقة ، ويكون هؤلاء الذين يقدمون الاخبار للبيع صادقين في تعليقاتهم ، وهذه الثقة المتبادلة نفسها توجد بين الاطباء والمرضى ، غير أن الاطباء يسعون وفق نظام وقانون مهني دقيق ، كما أنهم مضطرون الى الحصول على مؤهلات طبية ، على حين ان الصحافة (مهنة حرة) تخضع لقليل من القيود الخارجية في قوانين البلاد .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو : هل الصحفي هو الذي يبيع اخبارا يعلم انها كاذبة او ان بعضها زائف ؟ وهل الصحفي الذي يموه الحقائق ليجعلها قريبة الى النفس أكثر جرما من التاجر الذي يطفئ في ميزانه او الصانع الذي يقدم بضائع مغشوشة ؟؟؟

الواقع أن نشر تصريح كاذب او اذاعة فكرة خاطئة أكثر خطرا واشد اذى من بيع البضائع الزائفة على أنها بضائع جيدة ، ولكن الصحفي الكبير ويكهم ستيد يعتقد أن الافكار الكاذبة أشد خطرا من السكر الزائف أو الصابون المغشوش .

ان الصحفي الذي يخون ثقته يقع عليه اللوم أكثر من التاجر المحتال ، ان الصابون الفاسد يفسد الجلد ولكن الافكار السيئة تنفث السم في العقل . والصحافة مهنة حساب على اعتبار أنها أساس لما يطلق عليه الآن (صناعة الصحف) ، لان مواردها الاولى ليست في الحقيقة الا عقل الجماهير ، فهي تتاجر في (القيم الانسانية) أو بمعنى آخر : ان المسؤولية الخلقية التي يتحملها الصحفيون تختلف عن تلك المسؤولية التي يتحملها رجال الدين والزعماء أو قادة الرأي ، فالصحافة تتأثر بحالات صناعية و ظروف تجارية على عكس الحال عند الافراد القيمين على عقلية الجماهير أو اخلاقهم .

وليس من شك في أن صناعة الصحف تحتاج الى رأس مال عظيم ، فهي تستهلك يوما بعد يوم آلاف الاطنان من ورق الصحف ، وهذا الورق مصنوع من لباب الخشب المستخرج من بعض أنواع الشجر ويطحن هذا المستخرج الابيض بمطاحن شديدة القوى ، وأغلب مواد هذا الورق يستورد من وراء البحار على ظهور السفن خاصة ، ويلزم كذلك صناعة الصحف مئات من البراميل المملأ بحبر الطباعة لتجبير الاوعية المعدنية التي تغطي الاسطوانات المعدة للطباعة ، كما انها في حاجة الى آلات للطباعة وآلات لطي الورق وآلات لقطع عشرات آلاف من الصحف في الساعة

وتحتاج صناعة الصحف كذلك الى رأس مال عظيم لجمع الاخبار من جميع انحاء العالم ، ولدفع مرتبات هؤلاء الذين يرسلونها ، ولدفع نفقات الارسال ، كما تحتاج الى رأس مال كبير لدفع مرتبات هيئة التحرير وأجور العمال ولقضاء بعض المصالح في البلاد ، وتحتاج كذلك الى مقر كبير توزع منه الصحف المطبوعة على وجه السرعة ، كما انها تحتاج الى رتل من السيارات للتوزيع السريع ، لهذه الاسباب ولغيرها كان انتاج الصحف صناعة حقيقية .

والصحف الى جانب ناحية الاخبار والتعليق تنشر اعلانات المعلنين

تكون هذه الناحية مقدارا كبيرا من دخل الصحف . أما ضرورة الحصول على هذا الدخل فمتأثرة بأكثر من سبب فإن ثمن بيع الجريدة يعتمد على نوع توزيعها أو بمعنى آخر يعتمد على درجة الثقافة والوعي والقوة الشرائية عند الجماهير . ولو أساءت هيئة التحرير إلى القراء في أثناء أداء الواجب عليها للجماهير فقدت الجريدة حركة التوزيع ، ومن ثم لا بد أن يتأثر بذلك دولا العمل ، وربما لا ينسى كثير من الصحفيين أن ما يعتبرونه مهنة أو فنا أو حتى وزارة يتأثر وله صلة وثيقة ببيت المال .

وبرغم هذا كله فإن الصحافة تحسب مهنة تعصم من الحاجة ويتمرن عليها كثيرون ، كما يتمرن الأطباء والمحامون على مهنتهم . والصحافة فن كذلك ، لأن النجاح في الجريدة قد يعتمد على الطريقة التي تستعرض بها الأخبار والأفكار . والصحافة بعد هذا كله وزارة وليس هناك صحفي يستحق هذا الاسم ، جدير بأن يؤثر في عقول القراء إلا إذا كان يشعمر بالمسئولية الخلقية تجاه القراء .

إن كل الغابات المقطوعة لاستخراج ورق الصحف وكل الاطنان السوداء من الحبر الذي يحبر الاوعية المعدنية التي تضغط الكلمة المطبوعة على اسطوانات الورق الملفوفة . وكل هذه الملايين من الحثيثات التي تصرف في سبيل الاعلان تعتمد في النهاية على دعاء الصحافة لعقل الجماهير ، هذه هي الصحافة الحق .

والفكرة التي تقول بأن عقل الجماهير سهل التأثر وسهل الخضوع إلى أي لون من ألوان الدعاية فكرة خاطئة ، فإن الرأي العام أو ما يتصوره الصحفيون بالرأي العام يؤثر فيهم أنفسهم ، فتدور الجماهير يؤثر في حركة التوزيع والتوزيع يعين قيمته ، ولهذا يعمل الصحفيون على اعطاء الجمهور (ما يريد) .

والصحفيون الذين يستطيعون التخمين بما يريد الجمهور هم (الأوز) الذي يبيض بيضا من الذهب لأصحاب الصحف اللهم إلا إذا كانوا هم أنفسهم أصحاب الصحف .

ولكن ماذا يريد الجمهور ؟ أنه كقاعدة عامة يريد العواطف ويكره ويمتنع سريعا عن شراء أو بيع الصحف الكثيفة . أو بمعنى آخر الصحف التي لا تقدم إلى قرائها شيئا طريفا فيه حماس وفيه حياة وفيه حوادث مثيرة ومخادئات خطيرة وأفكار نيرة وأخبار مسيوق اليها . ويمكن تعريف الأخبار بأنها ما هو حادث في نطاق الحياة ، وهناك مثل يقول وقد يكون فيه بعض المجون (الرذيلة تكون أخبارا أما الفضيلة فلا تكون) وهذا المثل ثبت أن الفضيلة شيء عادي أما الرذيلة فشيء غير عادي وعندما لا تكون هنالك أخبار في الجريدة وأشياء تخرج على المؤلف يعتقد القراء أن جريدتهم كئيبة ويتطلعون إلى جريدة أكثر حياة ، ولهذا كان الأمر الأول في الرواج الصحفي ألا تكون الجريدة كئيبة ، والكآبة معناها فقد التوزيع ، وفقد التوزيع معناه فقد قوة الاعلان ، وفقد قوة الاعلان معناه فقد الدخل الذي يغطي ما بين ثمن البيع للجريدة و ثمن الانتاج .

وأغلب الصحف في إنجلترا تباع إلى متعبدى الصحف الذين يمولون الجماهير بالجراند بشمن أكثر قليلا ان لم يكن أقل في الواقع من تكاليف الورق الأبيض الذي يستعملونه في الطباعة . فالصحافة الناجحة ينبغي ان تحرز انتصارا يوميا على الكتابة ، ولكن افكار القراء عن الكتابة تختلف من فرد إلى فرد ، فالطعام الذي يقدم إلى الأور لا يقدم إلى غيره من الدواجن . وكل جريدة تحتاج إلى وسائل كثيرة للتأثير في أذواق الجماهير فهي في حاجة إلى مضحكات تهرز الأصدقاء لنفر من الناس ، وفي حاجة إلى جدييات لهؤلاء الذين يؤثرون الجدل ، وفي حاجة إلى شئون مالية وإلى رجال الأعمال والدائنين وفي حاجة إلى رياضيات للرياضيين وإلى أدب على اختلاف درجاته للمثقفين ولكن هنالك قاعدة عامة تسبب الجودة .

ان القراء على اختلاف مشاربهم وتباين نزعاتهم يحبون ان تجلب اليهم الطرافة والمتعة والتسلية ، ويكرهون ان يقدم اليهم الزجر ونساق اليهم الموعظة ، ولا يتقبلون ان يعلموا أو يلقنوا حيث لا توجد أية سلطة مدرسية في هذه العملية .

والواقع ان العلاقة بين الصحيفة والجمهور تجربة دائمة في دراسة نفسية الجمهور . ويعلم الصحفيون الماهرون المكان الأول الذي ترمقه عين القارئ والمكان الذي توضع فيه الأخبار الهامة والفروق بين حروف الطباعة التي توضع للعنوان والتي توضع للتعليق . والنصف الأعلى من الصفحة أحسن عند القراء وأكثر أهمية لأن القراء في العادة يركزون أنظارهم جهة اليمين (في الجريدة الأفرنجية التي يتحدث عنها وبكم سئيد) ولهذا كانت الزاوية اليمنى من الصفحة أنسب مكان للإعلان . فالجزء الأعلى من العمود الأيمن من الصحيفة هو الجزء الذي يركز فيه القراء أنظارهم في العادة اللهم إلا اذا كانت العادة في توضع الصفحة غير ذلك فعودتهم قراءة الأخبار الرئيسية اليومية عند طرف العمود الأيسر من الصفحة .

والقراء المعتادون على نوع معين من « التوضيب » يحتاجون إلى احترام عاداتهم ، غير أن بعض الصحفيين الماهرين يغيرون (توضيب) صفحاتهم بين الحين والحين حتى يبعثوا روح التغير في القارئ ويبعدوا القارئ عن روح السأم والملل .

وينبغي ان تكيف الأخبار المهمة بجو خاص ان لم يكن هنالك اختلاف في عرضها فلا يشعر القراء بأنهم محتاجون إلى ان (يحفروا) ابتغاء الوصول إليها بدلا من ان تصل اليهم في فكرة واضحة واسلوب مناسب .

ان الكفاح في سبيل التوزيع والدخل من الاعلان يسيطر على شكل واسلوب كل جريدة تقريبا وانه كفاح قد يصل إلى حدود غير ظاهرة ان لم يحتفظ بدائرته في أصحاب الصحف والصحفيين أنفسهم .

وعلى العموم يمكن ان نقول : ان الجمهور يهتم قليلا بالوسائل التي تصل بها الاخبار والافكار إلى الجريدة ، ولكنه يهتم كثيرا بأن هذه الاخبار

أو الأفكار تناسب ذوقه كما أنه يهجر الصحف التي تفتقد الأخبار أو تتاجر في نشرها أو التي تشد في بيان آرائها كما أن الجمهور لا يهتم بأن الجريدة أساس قوى قدر اهتمامه بشعوره الخاص .

ورئيس التحرير يحتاج إلى قدر كبير من الشجاعة ليحمو تعصب قرائه حين يعتقد أنه على حق وأن الحوادث سوف تثبت ذلك لأن القراء لا يحبون أن يظهر خطأهم أمام أي صحفي يعتز براه .

وقد يثق أكثر القراء عقلا في حكم صحيفته ، ولكن كثيرا من القراء قد يضايقه ذلك ، ومن الصعب على الجريدة أن ترتفع عن مستوى القراء ، ولذلك كان من الصديق أن نقول : أن للأمة الجريدة التي تستحقها . كما نصدق أن نقول أيضا : أن الذوق العام للجمهور قد يتأثر بالصحف التي تؤثر في القرائ المنحطة للقارى .

وبعض الصحف تعتمد لزيادة نسبة توزيعها على تقديم «ميزات» للتامين لقرائها ، لأن هذا يشجع الطبقات الفقيرة على شراء الجريدة ، ولكن مثل هذه الأشياء ليست صحافة حقا ، وينبغي أن تحرم مثل هذه الأمور لمصلحة الجمهور فإنها ليست الأصل لزيادة التوزيع ولا تمت إلى الصحافة بصلة

ويمكن أن نعتبر هذه المسألة في نظر الصحفيين أنفسهم غشا أو نصف غش لأنهم يدفعون القراء إلى شراء الجريدة لا لأخبارها ، بل لمسا تمنحه من سندات التامين ، وفي مثل هذه الأحوال يدفع المعلنون للنشر ما لا يمكن أن يتسلموه في الواقع .

أمجاد العرب في صقلية

صقلية جزيرة رابضة في البحر الأبيض المتوسط في جنوب إيطاليا ، وهي على شكل مثلث تتساوى أضلاعه ، ولذلك أطلق عليه أقدماء « انترينا كريبا » أي المثلث ، ويفصله بحرا عن فلوريا بإيطاليا مضيق ميسينا ولا يكاد يجاوز ثلاثة كيلومترات ، ويفصله عن تونس معبر صقلية وعرضه مائة وعشرون كم ، وتبلغ مساحة الجزيرة كلها نحو ٢٥٤٦١ من الكيلومترات المربعة

وقد وصلت أمجاد العرب الى هذه الجزيرة منذ قرون طويلة وظل الحكم العربى بها من عام ٢١٧ هـ الى عام ٤٥٠ هـ أى نحو ٢٣٣ عاما .

وعند ما انقسمت الامبراطورية الرومانية قسمين - الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، والامبراطورية الرومانية الغربية - كانت صقلية من نصيب الامبراطورية الأخيرة وأدركها ما أدركها من تدهور وانحطاط وفشل واضطراب .

وكانت الدولة الأغلبية في ذلك الوقت قد مدت نفوذها على بلاد المغرب ونشرت العمران في شتى أرجائها ، وبنت المدارس والمعاهد والمساجد في مدينة تونس وسوسة ، كما شيدت ، صهاريج المياه في القيروان التى أحالت الصحراء المقفرة المجذبة الى جنة وارفة الظلال .

وكان أول الفيث عند ما جهز موسى بن نصير حملة لفزو الجزيرة ، وسميت غزوة الاشراف بعد ما أنشأ بتونس دار صناعة صنعت له السفن للقيام بهذا الفزو بيد أن موسى بن نصير لم يظل المقام في الجزيرة وعاد بعد أن حصل على غنائم وافرة .

ولما تولى امر افريقيا - من قبل الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك - عبيد الله بن الحبحاب أراد أن يقتفى أثر القائد موسى بن نصير ويعيد الفزو ، وفي هذه المرة تقابل أسطول الروم واسطول المسلمين ، ودارت بين الفريقين معركة بحرية رهيبة أسر فيها الروم القائد العربى عبد الرحمن بن زياد .

حينئذ صمم العرب على إعادة الكرة مهمما كلغهم ذلك من التضحيات ، وقامت حملة بقيادة حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع بمصاحبة القائد عبد الله بن حبيب

ولم تطل اقامة هذه الحملة في جزيرة صقلية طويلا ، اذ سرعان ما عادت على اثر اندلاع نيران الفتن في المغرب .

ولم تستقر الحالة بين العرب والدولة البيزنطية عقب ذلك انما زادت القرصنة البيزنطية الرومية ، واشتدت هجمات قطاع الطرق

على السفن العربية مما أوغر صدر العرب حتى عولوا على وضع حد لهذه الاعتداءات المتكررة ، وكان عدد الأسرى العرب قد زاد في هذه الأونة في جزيرة صقلية زيادة كبيرة برغم الاتفاق الذي عقده زيادة الله الأغلب مع حاكم الجزيرة على إرجاع أسرى المسلمين إلى البلاد الأفريقية .

وشجع العرب على القيام بحملة كبيرة استنجد الأمير «أوقيماس» الصقلي بالأمراء العرب ضد قسطنطين عامل امبراطور الروم في القسطنطينية الذي استبد بأهل الجزيرة استبداد عظيم ، وسام أهلها الخسف ، واذفهم كثوس الهوان .

حينئذ لم يجد العرب مندوحة من إرسال حملة لتلاديب ، ولقطع دابر الفتن المشتعلة في الجزيرة ، وتأمين حال العرب هناك . وترددت أسئلة كثيرة حول قائد الحملة المنتظر ، وأخيرا استقر الرأي على أسد ابن الفرات وهو شيخ كبير من مواليد خراسان ، وتربية معاهد القيروان ، وكان أسد بن الفرات في ذلك الوقت في العقد السابع من عمره . فعند ما ولاء زيادة الله إمارة الجيش الغازي قال أسد : وأها يامولاي ! أتعزلي عن القضاء لكي توليني الإمارة ؟ فقال زيادة الله : كلا ! بل إمارة الجيش مع القضاء !

وكان القائد القاضي الشيخ يقول مفاخرًا : أنا أسد والاسد خير الوحوش . وابن الفرات ، والفرات خير الماء ، وجدي سنان ، والسنان خير السلاح !

وقد سارت الحملة باسم الله مجريها ومرساها من مدينة «سوسة» يوم الأحد الموافق ١٤ من ربيع الأول عام ٢١٢ هـ ١١ من يونيو عام ٨٢٤ ووصلت إلى مدينة مازرة بعد ثلاثة أيام من إقلاعها .

وخرج الرومانيون يحاولون رد الحملة على أعقابها ، والقضاء المسلمين في البحر ، بيد أن العرب صمدوا أمام العاصفة الهوجاء ، وقال ابن أبي الفضل وكان حاضرا المعركة : «ورأيت أسد بن الفرات ويده اللواء وهو يزمزم فجعلوا عليه ، وكانت فينا روعة ، فأقبل أسد على قراءة «يس» فلما فرغ منها قال للناس : هؤلاء عجم الساحل ، هؤلاء عبيدكم ، لا تهابوهم وحمل باللواء وحمل الناس معه فهزم الله جل وعلا «بلاطة قائد الروم» وأصحابه فلما انصرف أسد رأيت والله الدم وقد سال من قناة اللواء مع ذراعه حتى صار مع أبطله .»

ومعنى قول أسد بن الفرات هؤلاء عجم الساحل أي هؤلاء الذين هربوا أمامكم من السواحل الأفريقية .

وبعد جهاد مرير دام ١٣ شهرا انتقل أسد إلى رحمة الله ودفن بمقر استشهاده تحت أسوار سرقوسة ، فتولى مكانه محمد بن أبي الجواري الذي حمل رسالة سلفه الصالح في توطيد الحكم العربي في أرجاء الجزيرة ، ثم فتح زهير بن عوف مدينة «بالرمو» وهي العاصمة بعد حصار عنيف ونضال طويل .

واتسعت فتوح العرب في جنوبي إيطاليا حتى بلغوا روما وارتج

عرش البابوية ، وبرغم انقضاء الحكم العربي عن صقلية عام ١٠٥٠ هـ بعد أن دب الخلاف بين العرب وكثرت الفتن الداخلية فإن مظاهر الحياة العربية ظلت سائدة في الجزيرة قرونا طويلة ، بل لا تزال لغتهم تحمل بعض الألفاظ العربية حتى وقتنا هذا ومثال ذلك دار الصناعة التي أطلق عليها أهل الجزيرة Darcena ، والأمراس وهي الجبال وقد أطلق عليها أهل الجزيرة Amarra ، ورياح الموسم التي أطلق عليها أهل الجزيرة Moussone وغير ذلك من مثلات الكلمات العربية التي دخلت إلى اللغة الإيطالية أو الفرنسية .

وقد أدخل العرب إلى الجزيرة زراعة القطن وقصب السكر والزيتون والفستق والبرتقال والليمون ويقول الرحالة ابن حوقل : أن حقول القمح والشعير كانت تبسط على أكثر أقسام الجزيرة وشاحا من الذهب الأبريز .

كما أدخل العرب إلى الجزيرة صناعة الحرير ، وفي متحف « نورمبرغ » بألمانيا معطف من الحرير كان يرتديه ملوك صقلية وهو محاط بنسج من الكتابة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هـ ١١٢٣ م .

ولا تزال في الجزيرة حتى يومنا هذا آثار من قنوات الري والترع التي أنشأها المسلمون في شتى أنحاء لتسهيل المواصلات ، ونقل البضائع والسلع من مكان إلى مكان ، كما لا تزال القرية في صقلية تحمل الطابع العربي إلى الآن من اتساع وتنوع كما أن بها قصر العزيز الذي يطلق عليه الأهالي « لازبوا » وقصر القبة بجوار مدينة بالرمو ، أما كاتدرائية بالرمو فقد بنى المسلمون قسمها الشرقي والأوسط .

وحكم جزيرة صقلية في العهد النورماندي عدد من الملوك الذين يحبون العرب ، نذكر منهم الملك غايوم والملك روجر الثاني الذي وصفه ابن الأثير بقوله : « سلك طريق ملوك المسلمين من الخبايب والحجاب والسلاحية والجندارية وغير ذلك ، وخالف عادة الفرنج ، فانهم لا يعرفون شيئا من ذلك ، وجعل له ديوان المظالم يرفع إليه شكوى المظلومين ، فيتصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه » .

وقد زاره الرحالة العربي الشريف الإدريسي في مقر حكمه فرحب به ترحيبا عظيما ، وأعجب بعلمه وخبرته حتى أنه كان ينهض من مجلسه لتوديعه - وقد صنع الإدريسي للملك روجر الثاني كرة أرضية وزنها ١٨٠٠ أوقية وقسم الدنيا المعروفة آنذاك سبعة أقاليم متوازية يبتدىء الاقليم الأول عند خط الاستواء تقريبا ، وينتهي الاقليم السابع عند المتجمد الشمالي الذي يدعو به بحر الظلمات .

ويقول المسيو لوريش في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى عن الكتاب الذي وضعه الإدريسي بعنوان نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : « هو أكمل كتاب جغرافي تركه لنا العرب ، وإن ما دققه الإدريسي من

تحديد المسافات ، وما حققه من دقائق الوصف يجعل من هذا الكتاب وثيقة نفيسة لعلم الجغرافيا في مستهل القرون الوسطى .

وقد قام الصقليون بنهضة ثقافية واسعة في الفكر العربي ، وأخرجوا مؤلفات كثيرة في شتى المعارف الإنسانية نذكر منها كتاب الاشتراك اللغوي والاستنباط المعنوي - وينبوع الحياة في التفسير ، وأعلام النبوة لابن ظفر المتوفى عام ٥٦٨ هـ ، كما ظهر كتاب الأفعال وتصاريها للشيخ أبي انقاسم بن القطاع المتوفى عام ٥١٥ هـ ، وكتاب تاريخ صقلية ، والشافي في علم القوافي ، والملح العصرية ، وطبقات الشعراء للمؤلف الأنف الذكر ، كما ظهر كتاب المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر لابن بشر بن الصقلي .

وكذلك ظهر منهم علماء نذكر منهم أبا الحسن أحمد بن الحسن الكيلي ، وعمر بن خلف بن مكى ، وطاهر بن عمر بن الرقباني وغيرهم من العلماء .

وظهر من الصقليين شعراء بارعون نذكر منهم عمار بن المنصور الكيلي ، وعبد الرحمن بن أبي العباس ، وابن حمديس .

وكان هذا الشاعر الأخير من أشهر شعراء صقلية الذين تروموا بمجد العرب فيها ، وأرساوا الزفرات الحارة من أجله ، واستحث المسلمين وخاصة أمراءهم على الأخذ بيدها واستخلاصها من براثن المعتدين الفاسقين .

وقد عاش عبد الجبار بن حمديس حتى بلغ الثمانين من عمره وأصبح يقول :

أسلمنى الدهر للرزايا وغير الحادنان نفسى
وكننت أمشى ولست أعيا نصرت أعيا ولست أمشى
كاننى اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش

وقد سأل بعض الأدباء عن تشبيهه نفسه بالنسر فقال : ليس في الحيوان من يطعمه ولده إذا هرم إلا النسر

ومن قوله في عصاه انتهى يتوكأ عليها لكبره :

كانها وهى فى كفى أهش بها على الثمانين عاما لا على غنمى
كاننى قوس رام وهى لى وتر أرمى عليها زمان الشيب والهزم

وقد لاقى ربه عام ٥٢٧ هـ فتحطم الوتر الحزين والموج يرتطم بصخور جزيرة صقلية فى قوة وعنف

ملك صقلية يستقبل عالما عربيا

جلس الملك في قصره وحوله الامراء والوزراء يلتفون حوله من كل جانب وكان الملك ينتقل في الحديث من موضوع الى موضوع :

فتارة يتحدث في العلم وتارة يتعرض للفلك وحينما يخرج على الفلسفة ومرة يعرض للفن ، فقد كان مولعا بمجالسة العلماء ومحادثة الفقهاء وكان يجلس امامهم في هدوء ، كما يجلس الطلاب المجتهد امام استاذهم او المؤمن المتبتل امام واعظه ، وكان يعتبر اليوم الذي لا يلتقي فيه بالعلماء يوما لا طائل تحته ولا غناء فيه ولا فائدة منه فلا خير في يوم من غير علم ، ولا خير في ساعة بقضيها من غير فائدة فتذهب كالهشيم تدرره الرياح او كاوراق الخريف في الفضاء

تلك كانت حياة روجر الثاني ملك صقلية في القرن الثاني عشر الميلادي الذي كان يحكم هذه الجزيرة في هذه الآونة ، فنشر فيها العلم والمعرفة ، وكان ينظر الى السماء فيتمنى ان يعرف اسرار نجومها ومدارات كواكبها ، وكان يخرج للصيد في بقاع الجزيرة فيصيد بعض الحيوانات ، ولكن هذه الحيوانات التي يصيدها تثير في نفسه افكارا شتى وخواطر متنوعة ، فهو يتمنى ان يعرف شيئا عن حيوانات البلاد الاخرى ، بل انه يريد ان يعرف شيئا عن اهل البلاد الاخرى ، وكان يقف على شاطئ البحر والموج يرتطم بالصخور تحت قدميه ، ويتشاطر الزيد كالقطن المندوف حوله ، فيفكر ويظلم التفكير ويقدر ويظلم التقدير ويتمنى ان يعرف تلك البقاع التي تجثم وراء هذا البحر الخضم ، ولكن كيف يتاح له السفر ولديه ماله من مشاغل الملك وعنده ما عنده من اعباء الحكم .

وبهبط الليل فيجلس الملك مع علمائه يتحدث في امر هذه الدنيا العجيبة ويتمنى ان يهب الله له من العمر ومن فراغ البال وسعة الوقت ما يسمح له بعمل هذه السفرة الطويلة واجتياز هذه الشقة البعيدة .

وفجأة ترامت الى القصر انباء وصول عالم عربي وجواب آفاق طالما قطع البيد والقفار وركب متن البحار وعبر السهول والانهار وهو العالم العربي الادريسي .

قال سمير الملك للملك : ان عالما عربيا قد وطئت قدماه ارض صقلية ولعل مولاي يجد عنده متعة في الاجتماع به والتحدث اليه ، فقال الملك : هذا من غير شك ماكنت اطمح فيه منذ زمن بعيد ، لقد علمت انه طاف بشتى الاقطار والامصار وعرف اوصاف البلاد والممالك وقاس ابعادها بالميل والفرسخ

وذهب المنادي لينادي الادريسي ليمثل بين يدي روجر الثاني .

وعلت وجه الادريسي مسحة من الدهشة وقال متعجبا : احقا يطلبني الملك ؟ فاكد له الرسول انه المعنى وهو المراد ، وحينئذ تاهب الادريسي للذهاب الى قصر الملك روجر الثاني ، ومضى حتى بلغ القصر ووقف عند بابه مدهوشا امام روعة البناء وفخامة القصر ، ودلف مع حارس الى انقصر في بالرمود وما ان دخل البهو الملكي حتى سمع صوت الملك روجر يتردد في قاعة الاستقبال فتملكته الرهبة ، واخذته الدهشة مرة اخرى . ولكنه تمالك نفسه ، واخذ يبحث خطاه حتى وصل الى الملك ، فمشى الملك لمقدمه ، وبش في وجهه ، والغريب ان الملك كان يتكلم العربية لولا بعض الرطانة التي تشوب كلماته

جلس الادريسي في حضرة الملك وكان الملك يتبعه نظراته ويتربص كلماته ، والادريسي لا يفتأ يصف البلاد التي زارها والبحار التي اجتازها ويقسم الارض سبعة اقاليم او مناطق ، ثم يقسم كلا من هذه الاقاليم او المناطق احد عشر قطرا ، والغريب انه اخذ يقول كلاما عن كروية الارض والجاذبية في القرن الثاني عشر قبل ان يتنبه احد سواه اليه وقبل ان يجيء كابرنيك وكوبلر ونيوتن وغيرهم من علماء الطبيعة والجاذبية فقال :

ان الارض مدورة كتدوير الماء والماء لاحق بها وراقده عليها رقودا طبيعيا لا يفارقها ، والارض والماء مستقران في جوف الفلك كالمحبة في جوف البيضة ووضعهما موضع متوسط والنسيم محيط بهما من جميع جهاتهما . وهو جاذب لهما الى جهة الفلك او دافع لهما والله اعلم بحقيقة ذلك

وعندئذ سأل الملك : وكيف يكون موضع الارض اذن من الفلك ، فقال : ان الارض مستقرة في جوف الفلك وذلك لشدة سرعة حركة الفلك وجميع المخلوقات على ظهرها والنسيم جاذب لما في ابدانهم من الخفة والارض جاذبة لما في ابدانهم من الثقل بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الاشياء اليه .

وليس من شك في ان الادريسي في هذا الحديث كان قد سبق نيوتن الذي ظهر في حوالي النصف الاول من القرن السابع عشر ومات في حوالي الربع الاول من القرن الثامن عشر في معرفة الجاذبية والدلالة عليها وهذا مما يشرف العرب ، ويرفع قدر العلوم العربية بين العالمين وطفق الملك يسأله عن البلاد التي زارها ، فكان مما تحدث عنه انجلترا وفرنسا وغيرهما من بلدان اوربا وآسيا مما دهش له الملك دهشة عجيبة .

وعندما جاء الحديث عن مصر طلب منه الملك بعض التفصيل في الحديث وطلب منه ان يعرف شيئا عن نهري الخالد وكان مما قاله الادريسي للملك : ان عرض النيل في بلاد النوبة ميل واحد ، وعرضه في قبالة مصر ثلث ميل كما ان في بعض اجزاء النيل الحيوان المسمى بالتمساح ، وفيها ايضا الحوت المسمى بالخنزير وهو ذو خرطوم اكبر من الجاموس يخرج الى الجهات المجاورة الى النيل فيأكل بها الزرع ، فيرجع الى الماء وفي النيل المذكور سمكة مدورة حمراء الذنب يقال لها

« اللاش » لا تظهر به الا ندرة وهي كثيرة اللحم طيبة الطعم ، وفيه أيضا سمك يسمى « الأبرميس » وهو حوت أبيض مدور أحمر الذنب ويقال : انه ملك السمك وهو طيب الطعم للذيد يؤكل طريا مملحا

فاشتدت دهشة الملك من هذه المعرفة الواسعة وكان خبيرا بما في البحار لموقع الجزيرة التي تحفها المياه من كل جهة وطلب منه ان يقدم له عملا يذكره به فوعده الإدريسي بتحقيق طلبه وقال له الملك : اننى أريد شيئا جديدا لقد اتسعت أعمال مملكتى ، وأحب ان أعرف كيفيات بلادى حقيقة وان أقتلها يقينا وخبرة وان أعلم حدودها ومساكنها برا وبحرا وفي أى إقليم هى مع معرفة غيرها من البلاد والإقطار ، وقد أحضرت الكتب المؤلفة فى هذا الفن مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد النجيهانى ، وكتاب الكيمائى ، وكتاب أبى القاسم عبيد بن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذرى وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب أرسىوس الانطاكى ، وكتاب بطليموس التالوذى فلم أجد فى هذه الكتب جميعا ذلك مشروحا مستوعبا مفصلا ، فطالبت العارفين بهذا الشأن ، ولكنى لم أجد عندهم أكثر مما فى الكتب المذكورة .

ولم يكذب الملك هذه العبارة حتى طمأنه الإدريسي وطلب منه ان ينتظر عدة أيام ، وهم ان يودعه ويطلب الاذن منه بالخروج ، ولكن الملك نهض من أريكته وضغط على يده وربت على كتفه وخرج بنفسه يودعه عند باب القصر مما لم يحدث فى تاريخ العلماء .

وتوالت زيارة الإدريسي لقصر روجر الثانى ، فما كان الملك يسمع بمقدمه حتى ينهض عند الباب لاستقباله ، ويجلسه الى جانب سرير الملك فاذا ما اتم المحاضرات معه وافاد ما أراد ثم هم بالخروج ودعه الملك بنفسه الى عتبة القصر .

ولم تمض أيام حتى صنع الإدريسي للملك كرة أرضية ليشرح عليها دروسه ، وكانت كرة عظيمة الجرم ضخمة الحجم فى وزن أربع مائة رطل رومى فى كل رطل منها مائة واثنان عشر درهما وتضم صور الأقاليم ببلادها وإقطارها ومدنها وريفها وخليجاتها ومجاري مياهها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها والطرق والمسافات والمسافات والمشاهدة وكتب عليها بأحرف عربية كل مكان يعرفه من البلدان المختلفة ، وكانت مصنوعة من الفضة الخالصة .

وقد سر الملك سرورا عظيما بهذه الهدية العلمية الثمينة وشكر الإدريسي شكرا جزيلا على فضله وحرصه على توحى الحقائق العلمية حتى اذا ما انتهى المجلس خرج الملك يودعه بنفسه عند الباب والإدريسي مزهوا بهذا الفخر العظيم .

وتشاء الأيام أن تفقد هذه الكرة بعد ذلك ولولا فقدتها لواد فهم المؤرخين لقيمة المعارف الجغرافية فى القرن الثانى عشر الميلادى زيادة عظيمة .

تم الكتاب

فهرس

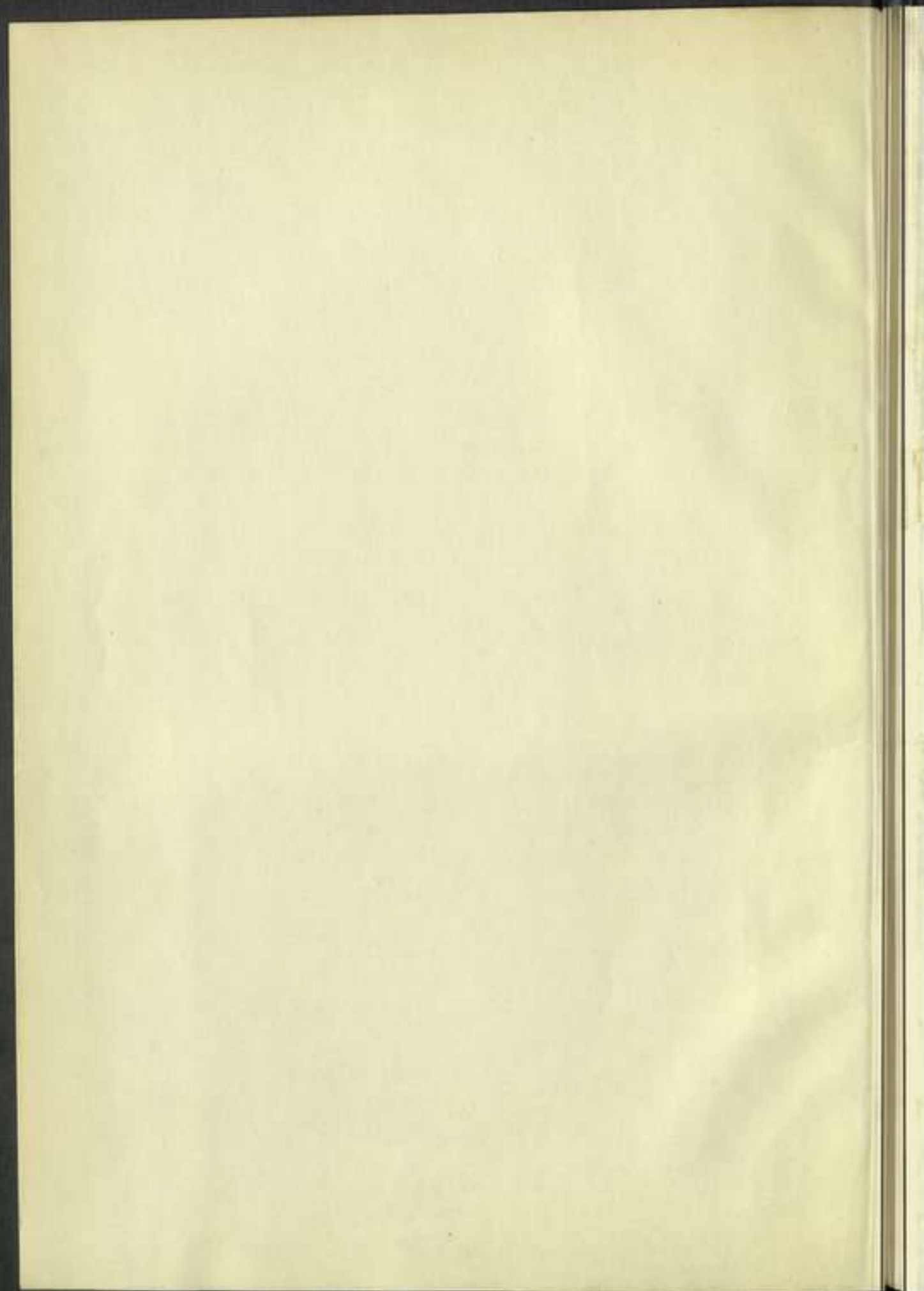
الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
حديث في الشتاء بين الشرق والغرب	٥
الخريف في الأدب الانجليزى	٩
الصيف في الأدب الانجليزى	١٤
الربيع في الأدب الانجليزى	١٧
بين الربيع والخريف	٢١
المسرح المصرى والمسرح الانجليزى يلتقيان في حركات تطورهما	٢٤
كشف مسرحى عظيم عن المسرح في الشرق	٢٦
امير الشعراء الانجليزى في الأدب العربى الحديث	٢٨
امارة الشعر بين شوقى ودريدن	٣٣
بين لورد بيرون وعمر بن أبى ربيعة	٣٥
الليل بين الشرق والغرب	٣٩
الليل في العصر الاسلامى	٤٠
شعراء الحرب	٤١
الليل في العصر الحديث	٤٢
<u>البحر بين الشرق والغرب</u>	٤٦
خليل مطران والفريد دى موسيه	٥٥
القمر في الأدبين العربى والغربى	٥٨
<u>الموت في الأدبين العربى والغربى</u>	٦٤
لغة الزهور بين الشرق والغرب	٧٢
حديث في القصة بين الشرق والغرب	٨٠

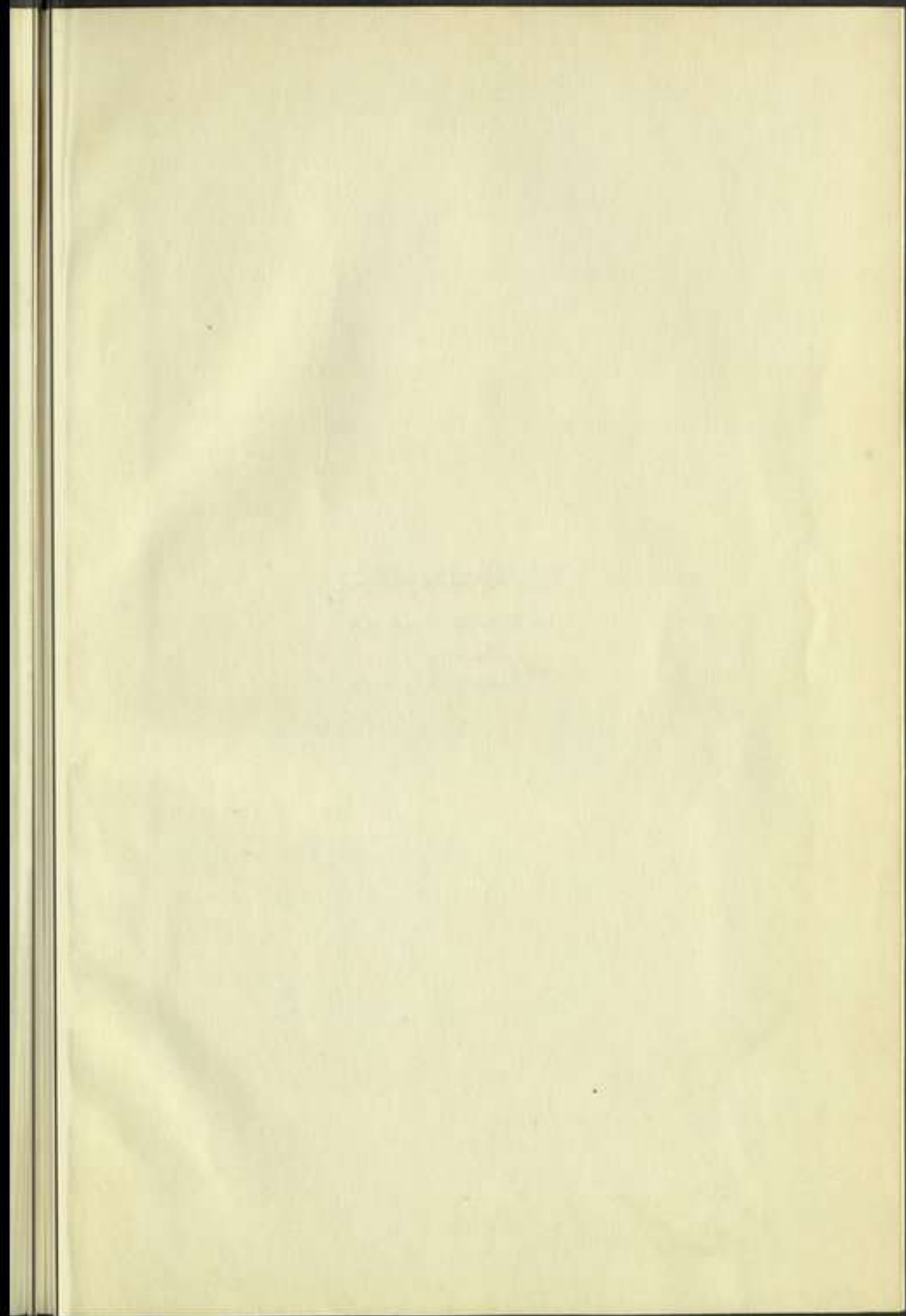
٨٥	لقتنا أمنا الكبرى ووسيلتنا الى نهضة الشرق
٩٠	الأدب العربي ادب عالمي
٩٢	المذهب الرومانسي في الشعر العربي
٩٤	كنوز بين المعرفة في آداب الشعوب الآسيوية والأفريقية
٩٨	أحلام البحيرة بين الشرق والغرب
١٠٢	فلسفة الألوان في الغرب
١٠٤	عالم غربي يضع الوسائل الى السعادة
١٠٦	كاتب غربي وزوجته ماهرة
١١٠	حضارة الغرب في العالم الجديد
١١٣	من عجائب العلم والاختراع في الغرب
١٢٠	قصة كفاح الفريد كروب ملك الفولاذ
١٢٣	الموسيقى تغزو مصانع العمال في الغرب
١٢٥	الروس يستغيثون بالموسيقى
١٢٨	الضمان الاجتماعي والتأمينات الاجتماعية بين الشرق والغرب
١٣١	كاتب غربي داخل أفريقية
١٣٥	سندباد بحري جديد حول أفريقية
١٣٦	دراسة علم البحار
١٣٩	حديث في الصحافة لعالم عربي
١٤٧	أمجاد العرب في صقلية
١٥١	ملك صقلية يستقبل عالما عربيا

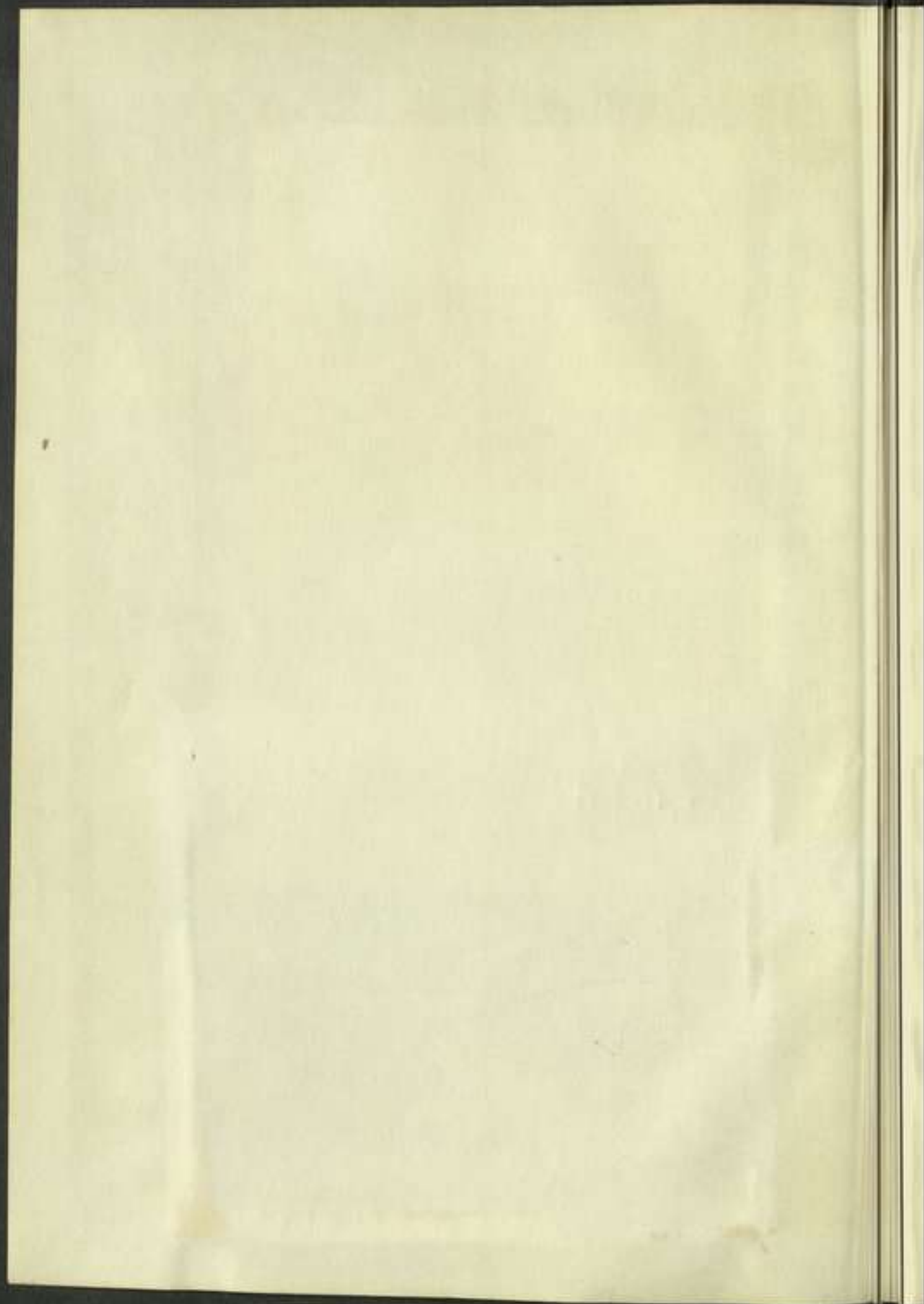
الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبّيد
روضون الغريج

٤١-١٥ / ٤٠٧٥٣ } المفقود
 ٤٠٨١٤ / ٤٠٥٨٨ }







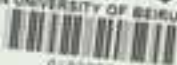
DATE DUE



809:R164A:c.1

الرمادى، جمال الدين
لصون مقارنة بين ادبي الشرق والغرب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01232571

809
R162fA
c.1